للإمام عبد الوهاب الشعرانى

ردع الفقرا عن دعوى الولاية الكبرى



تقديم وتحقيق وتعليق

د / عبد البارى محمد داود

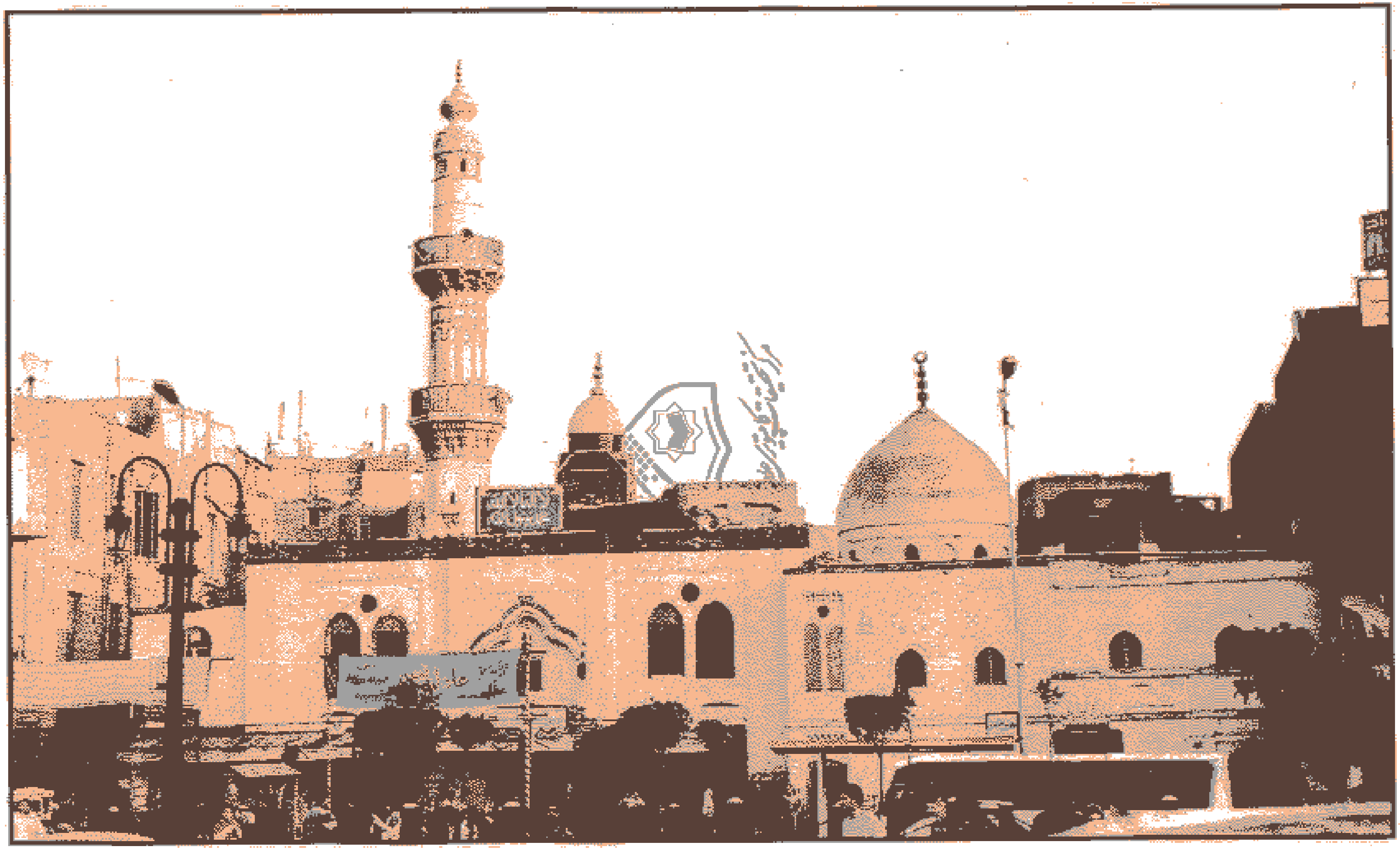
كلية الآداب جامعة بنها



ضريح العارف بالله تعالى سيدى عبد الوهاب الشعرانى



ضريح العارف بالله تعالى سيدى نور الدين الشونى
و هو شيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى و هو موجود فى مسجده



منظر عام لمسجد سيدى عبد الوهاب الشعرانى - ميدان باب الشعرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح

قال تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

« سورة يونس : الآيات ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ » .

مقدمة الناشر

الحمد لله معز من أطاعه واتقاه ، ومذل من خالفه وعصاه ، الذي وفق المتقين للعمل بما يرضاه ، وأوقع بالعاصين ما قدره عليهم بظلمهم وقضاه ، وأتوب إليه مستغفراً إياه، وأستعينه مستنصراً ، بقدرته وقواه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لا إله لنا سواه ، ولانعبد إلا إياه ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، استخلصه واصطفاه ، واختاره واجتباه ، ثم بعثه بالدين المشهور ، والكتاب المسطور ، إلي أهل فسوق وفجور ، وضلال وغرور ، فدعاهم إلي إتباع الهدي والنور ، ونهاهم عن منكرات الأمور ، فبرئت أمته من العلل ، ونسخ الله بملته جميع الملل . صلي الله وسلم علي سيدنا محمد وعلي آله ، كما استنقذنا من الضلالة بارساله . ثم مكارم الأخلاق ، وأكمل محاسن الأخلاق ، لا تحصي نعوته ومناقبه ، ولا تعد معجزاته ومواهبه ، طاعته واجبه علي من أراد تقواه ، وذلك لكون الطاعة بابا فسيحا يدخل فيه المؤمن ليحظي برضا الله عزوجل .

وبعد فانه لمن دواعي الفخر والإعزاز أن تقوم مكتبتنا ـ دار جوامع الكلم ـ بنشر وإخراج كتاب « ردع الفقرا عن دعوى الولاية الكبري » لسيدي عبد الوهاب الشعراني وهدفنا من ذلك هو العودة بالتصوف الإسلامي إلي أصوله الأولي المقيدة بكتاب

الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وما كان عليه سلفنا الصالح .

ولقد عاهدنا إلي الدكتور عبد الباري داود لتحقيق والتعليق علي هذه المخطوطة النادرة وعمل دراسة دقيقه لها متعددة الجوانب بغية تنقية التصوف الإسلامي الصحيح مما علق به من الأباطيل والخرافات .. ولقد استعرض المحقق في التعليق علي هذه المخطوطة الجوانب الاتية :

أولا : أثبت أن مخطوط : « ردع الفقرا عن دعوي الولاية الكبري » ضمن مؤلفات الإمام الشعراني التى لم تنشر بعد . كما أوضح نسب الشعراني إلي الإمام علي بن أبي طالب عندما تحدث عن سيرته وسلسلة نسبه . وأنه كان صوفيا علي قدر عظيم من الوعي والحركه والعمل الدائب لانقاذ مجتمعه .

ثانيا : أوضح هذا المخطوط الهدف الذي يدور حوله بما احتواه من تنبهات وتحذيرات لكل من ادعي الولاية الكبري.

وما أروع التعبير الذي نطق به الإمام الشعراني حيث يقول « دوروا مع الشرع كيف كان لا مع الكشف .. ثم يضيف قائلا .. إن الولي إذا صح كشفه فلا يكون إلا موافقا للشريعة ومؤيدا لها .. »

وهكذا يري الإمام الشعراني ان الشريعة هي السيف القاطع بحده كل بدعة وضلالة .

ثالثا : ولقد أوضح المحقق منهج الإمام الشعراني في دعوته إلي سلوك الطريقة الصحيح للولاية الشرعية بالدليل المأخوذ من الكتاب والسنة المحمدية حماية من دخول التلبيس فيها ودفاعا

عن الشريعة الإسلامية .

رابعا : برزت شخصية الإمام الشعراني في دعوته الصريحة للعلم والعمل وطريقة الاكتساب لكونها طريقة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وكذلك أمرنا بها رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم . فالتوكل سنته والتكسب حرفته . وكذلك كان مسلك الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين والتابعين من بعدهم من رجال الزهد والتصوف للأخذ بهذا المنهج في الحرفة والاكتساب والرزق الحلال . ويجب علي الإنسان ألا يتقاعس فيكون صاحب عمل متوكلا علي الله ، معتمدا عليه ، واثقا به ، مسلما له .

واخيرا فان مكتبتنا . دار جوامع الكلم . وهي تقدم هذا الكتاب القيم الخطير بما احتواه من موضوعات هامه ومصطلحات متعددة يعد إضافة جديدة في مجال الدراسات الصوفية كما يعد اضافة للمكتبة العربية عامة والصوفية خاصة ..

نسأل الله سبحانه وتعالى ان ينفع به وان يجعله خالصا لوجهه الكريم ..

دار جوامع الكلم

ذو الحجة ١٤٢٥ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم وهو ثقتي وكفى
الحمد لله رب العالمين والصلاة والتسليم على أشرف المرسلين
أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل وبعد فقد دعاني
داعي ... على صاحبه من الفقراء في هذا الزمان سموا
أنفسهم بالصوفية وادعوا الولاية الكبرى وهم أجهل من المتعلم
بما سيتضح لكل ناظر في هذه الرسالة إن شاء الله تعالى فصار كل
من دب له مشيخة القاصر بأن يستفتح الذكر بجماعة أو أذان
لولا أن يلقن الناس أو مريدون له ويسمع في خلوته هاتفا
من جن أو شيطان يقول إنه ولي الله عز وجل فيجتمع له جماعة
من العوام من أهل الصنائع وغيرهم فتارة يجلس في بلده
وتارة يطوف البلاد ويكلف العباد في هذه الأيام الكدرة
النكد على الخاص والعام وهو مع هذا يدعي أنه قائم
في الخلق مكان نبيهم صلى الله عليه وسلم وكفى بذلك كفرا
وجهلا وسوادا وأين المقام من المقام وأين الملائكة من
الشياطين ونرى من يدعي المشيخة من هؤلاء المدعين
من يخرج خمسة أصناف ويتكلف مثل ذلك على الكشاف
والقصاد ومشايخ العرب وقطاع الطريق ثم بعد ذلك هاتف
عمه ورعه ولم يجد شيئا يأكله هو وعياله وما تم له مرا
بلغني أنه سكت ولم يتكلم ولم ينصره فلما تكلم لا لحقيقة
ولا شريعة لله تعالى بعثت الناس له ما يأكل وما يشرب
هو وجماعته على الشاهر من غير حرامه فكثر كلامهم وصار
يعوق الناس لابد لكل إنسان يريد الطريق إلى الله من أستاذ
... حضرهم ... المصيدة الخبيثة وبجهل

... ان لم يكن شهودا فقا يما زا ي من الحضرتين
فيه اخر الزمان فلا تلا بد لنا معه لغا المعمن بتميز
في هذا الزمان فانه لا يصير بشخالي الا بادراك
اخوانه ورويته اياهم دونه بدرجات فرد
قوله تعالى انما المؤمنون اخوة وقوله تعالى
انه ولي الذين امنوا وقوله تعالى النبي اولى
بالمؤمنين من انفسهم ويحمل تقسم خيرا من
اخوانه وليعلم الخلق دون الله تعالى واولى
بالمؤمنين من النبي صلى الله عليه وسلم وهذا
حرف لسياج العبودية على الاطلاق وفي
هذا القدر كفاية وقد اوضحنا ذلك في رسالة
الانوار ولواقح الانوار وغيرها وقد وضعنا
هذه الرسالة للتنفير عن طريق هولاء المغترين
فاذا حصل التنفير فلينظر في بقية رسائلنا الموضوعة
لبيان الاداب المتعلقة بالخلق من الملوك والعلما
واصحاب الحرف وغيرهم والحمد لله رب العالمين والصلاة
والتسليم على اشرف مخلوقاتك وزين عبادك
سيدنا محمد وعلى اله وصحبه
وسلم ورضي الله عن
اصحاب رسول
الله
اجمعين
تم ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تقدس فى أزليته وأبديته وأحديته عن النظير والشبيه ، وتنزه فى جماله وجلاله وكماله عن مقالات أهل التمويه ، الغنى عن جميع خلقه ، فلا آن يحصره ، ولا أحد ينصره ، ولاضياء يظهره ، ولاحجاب يخفيه ، الواحد الأحد ، القدوس الصمد ، الذى لاشك فيه ، شهدت بكمال قدرته عجائب صنعته ، فكل ماسواه موجده ومدبره ومنميه ، الحى العليم القدير السميع البصير ، الملك الكبير ، فلا مقرب لمن يبعده ، ولامبعد لمن يدنيه . المتكلم بكلام أزلى ، ومن عطل أوشبه فقد وقع فى التيه ، حبب للمؤمنين ، إثبات صفات الكمال والعجز عن إدراك الجلال . فهذا القدر يكفيه ، ومن رام الوقوف على غاية أو ظن المعرفة لها نهاية فقد تعدى طوره .

فالله سبحانه وتعالى هو الذى أوجد الموجودات وخلق العوالم ودبرها واستحق المحامد جميعها ، والأسماء الحسنى كلها ، وأنه على كل شىء قدير ، وبكل شىء عليم خبير .

فالحمد لله سبحانه وتعالى نستمد منه الهداية ، وإلى رحمته نلجأ ضارعين أن يدخلنا سبحانه فى عبادة الصالحين ، وأن يدخلنا برحمته مدخل صدق ، وأن يخرجنا مخرج صدق ، وأن يجعل لنا من لدنه سلطاناً نصيراً .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عامة

أحمدك ربى ، خلقت فسويت ، وقدرت فقضيت ، وعافيت وأبليت ، وعلى العرش استويت ، وعلى الملك احتويت .

الحمد لله رب العالمين ، الحمد الذى أرشد العقول إلى توحيده ، والذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، الحكيم العليم ، اللطيف الخبير بعباده ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، له الحمد كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، لاإله إلا هو السميع العليم . والصلاة والسلام على أفضل الخلق أجمعين ، إمام الأنبياء وسيد المرسلين ، الشمس المضيئة لكل الشموس ، والغيث المفاض لتزكيه النفوس ، أرسله الله رحمة للعالمين نبينا سيدنا محمد صلوات ربى وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

يعتبر مخطوط : « **ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى** »

من أهم مؤلفات الإمام الشعرانى حيث أنه رسم فى مؤلفه هذا الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يسلكه المريد الصادق فى دعوته لطلب الولاية . وهو يعد بحق ردعاً صادقاً لكل من ادعى الولاية

الكبرى كماهو واضح من عنوان هذا المخطوط .

لذلك يطالب الإمام الشعرانى أصحاب هذه الدعوى المزعومة بالرجوع إلى الكتاب والسنة لوزن أقوالهم وأفعالهم عليهما . ولقد كان هذا هو شأن الصوفية السنيين فى معالجة جميع مسائلهم .

ونوجه الانتباه هنا إلى أن أصحاب هذه الدعوى ليسوا منصفين فى دعواهم الولاية الكبرى وذلك لأن ميزان التفاضل بين الناس إنمايكون فى سلوكهم منهج الاتباع الذى هو سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصحابته رضوان الله تعالى عليهم ، ومن تبعهم بإحسان .

لذلك نجد الإمام الشعرانى علق بنصوص كثيرة فى هذه الرسالة يحذر فيها أصحاب هذه الدعوى .

إن منزلة الولاية الكبرى منزلة عالية لاينال التزيى بها إلا أهلها حقاً الذين وصفهم الحق سبحانه وتعالى فى كتابه بقوله : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (١).

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٢) .

(١) سورة يونس : الآيتان : ٦٢ ، ٦٣ .
(٢) سورة البقرة : الآية : ٢٥٧ .

وفى الحديث القدسى : « **من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة** »[١].

من هنا جاء تحذير الإمام الشعرانى لكل من ادعى الولاية الكبرى لكونها منزلة عالية لاينالها إلا كل تقى حقاً استفرغ طاقته فى طاعة الله سبحانه وتعالى .

ولما كان موضوع دراستنا هو : « **ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى** » .

ومن ثم جاء ترتيب هذا المؤلف على النهج التالى :

- نبذة عن الإمام الشعراني:

عاش الإمام الشعراني في القرن العاشر الهجري مواكباً العصر المملوكي العثمانى .

- سيرته : وهي التي تتصل بنسبه ، وميلاده ، ونشأته ، واتصاله بأساتذة العلم .

- شيوخه : وهم الذين تتلمذ عليهم ، وأخلص في خدمتهم ، وتأدب بآدابهم .

ولقد ذكر الإمام الشعراني هؤلاء الشيوخ في طبقاته « الصغري » ، وطبقاته « الكبري » بشيء من التمجيد والإعزاز .

(١) أخرجة البخارى فى صحيحه فى باب التواضع ، ج٨ ، ص: ١٠٥ ، ورواه الترمذى .

ـ زهده : يتمثل هذا الزهد في ورع الإمام الشعراني حيث بَعُد عن الناس وتقشف في مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، ورزق بالقناعة التي جعلته يكتفي باليسير من أمور الدنيا في سبيل تلقي العلم ، وفهمه ، ودراسته .

ـ مؤلفاته : ألف الإمام الشعراني أعداداً كثيرة جداً من المؤلفات في شتي فروع المعرفة . كما أوضح أنه ماقام بتأليف هذه المؤلفات إلا بعد قراءة كثير من الكتب ، ولقد ذكرت أكثر من سبعين مؤلفاً من مؤلفاته .

ولقد قمنا في هذه الدراسة بوصف المخطوط ، وحالته ، و نسبته إلي الإمام الشعراني .

فالمخطوط كما أسفرت الدراسة : رسالة مخطوطة تحت عنوان : « **ردع الفقراء عن دعوي الولاية الكبري** » . ولم تقسم هذه الرسالة إلي أبواب ، أو فصول . وأوضحت الدراسة حول هذه الرسالة المخطوطة أنها لم تقسم إلي أبواب أو فصول لصغر حجمها وكون عدد أوراقها لم تستوعب فصولاً ولاأبواباً .

والذي يؤكد صحة مانقول ونجزم به حقاً أنها رسالة . وطبيعة الرسالة تكون موجهة من صاحبها إلي غيره فلا تحتمل أبواباً ولافصولاً .

وفي النهـاية قدمنـا نتائج هذه الدراسـة ، وهي تلك النتـائج التي توصلنا إليها من خلال دراستنا لهذا المخطوط .

و فهرس الموضوعات .

وقـد تكشف للباحث أن الطريـق الوحيـد الموصل إلي الشريعـة الثابتة هو ربط ظاهر الإنسان بباطنه ، وعـقله ، وقلبه ، ووجوده بخالقه حتي يتـيسر له استجـلاء الغامض وكشف المجهـول . وهذا ما توصلنا إليه في نهاية هذه الدراسة .

الدكتور

عبد الباري محمد داود

القسم الأول

تقديم دراسة حول شخصية الإمام
عبد الوهاب الشعرانى

١ ـ نبذة عن عصر الإمام الشعرانى

٢ ـ حقيقة التصوف عند الإمام الشعرانى

٣ ـ سيرة الإمام عبد الوهاب الشعرانى

٤ ـ شيوخ الإمام الشعرانى

٥ ـ حقيقة الزهد عند الإمام الشعرانى

٦ ـ مؤلفات الإمام الشعرانى

٧ ـ منهجنا فى الدراسة والتحقيق

٨ ـ نسبة المخطوط إلى الإمام الشعرانى

٩ ـ الإشارات المستخدمة فى التحقيق والدراسة

١٠ـ منهج الإمام الشعرانى

القسم الأول

تقديم دراسة حول شخصية الإمام الشعرانى

نبذة عن عصر الإمام الشعرانى

مما لاشك فيه أن قيام خلاف فكرى حول تقييم شخصية ما ، يعطينا حقيقة هامة جداً هي أن هذه الشخصية التي اختلف العلماء في فهمها شخصية عظيمة دون مراء .

وفى أغوار العظمة السحيقة لهذه الشخصية ودروبها المتعددة الأنحاء تتجه تيارات الفكر باحثة عن غاية تقف عندها ، ثم تستجمع ما عن لها من ملاحظات على الطريق ، لتدلى برأى قاطع حول تلك الشخصية .

وقد تجتمع الآراء على شيء واحد لاتراه معلناً واضحاً ، ثم تفترق فى تقديم القيمة الحقيقية لهذه الشخصية حسبما بدت لتلك العقول الفاحصة .

أما ما يمكن فهمه من الخلاف حول تفسير حقيقة شخصية هذا العارف العظيم فهو أنه شخصية أفسح وأعمق من أن تسبرها العقول منفردة ، وأما ماتطالعنا به التقارير النهائية عن هذه الشخصية فهو

الخلاف حولها من الولاية إلى الزندقة ، من الكفر إلى الإيمان ، من القمة إلى الحضيض .

ولاشك أن الإمام الشعرانى بحق يعد من العارفين الراسخين فى العلم ، المتحققين بعلم الشريعة ، سالكاً الطريق الصحيح ، معتمداً على الله ، متوكلاً عليه ، وازناً جميع أقواله وأفعاله بالكتاب والسنة ، فوصل إلى الحقيقة .

أو بعبارة أخرى ربط الشريعة بالحقيقة ، فمن وجهة نظره كل شريعة حقيقة ، وكل حقيقة شريعة من وجه آخر .

وهكذا نستعرض التراث الرفيع من شخصيات الإسلام فلانجده يشذ عن هذه القاعدة إلاَّ فى تفاصيل الخلاف .

فالإمام الحارث المحاسبى ، والإمام الجنيد سيد طائفة الصوفية ، والحكيم الترمذى ، وأبو طالب المكى ، والإمام أبو حامد الغزالى الذى لقب بحجة الإسلام ، والإمام السهروردى ، والإمام الأكبر الشيخ محيى الدين بن عربى ، والإمام الشعراني ،وأضرابهم . كلهم تردد العقل البشرى فى تقدير حقائقهم بين الصلاح والفساد ، أو بين الولاية والزندقة ، أو بين البناء والهدم ، إذا حسنت النية واستقامت عقلية البحث على منهج قويم من مناهج الفكر الرائد المحب للحقيقة .

أما الفكر الحاقد الحاسد فإنه يجتمع على التجريح وعلى هدم

القيم الإنسانية مهما بلغت من مراتب السمو والجهد العنيف فى سبيل البناء والتعمير .

وهنا نوجه أصحاب العقول المستنيرة إلى أن الإمام الشعرانى كسابقيه من العلماء تعرض للتجريح والحقد والدس عليه فى كتبه . ولم يكن نصيب الإمام الشعرانى بأقل من أنصباء إخوانه السابقين من الحقد والحسد والتجريح ، ولن يكون أقل من أنصباء اللاحقين . فقد تركزت حملات الحاقدين عليه فوق رميه بالعظائم فى الدس فى كتبه بما يؤيد الفكرة التى يهدف إليها الحقد المدبر الذى لايدع قمة إلا أهدرها دون وعى . ولكن الحق يعلو دائماً ، والباطل يفضح نفسه بنفسه مهما آزرته الحجة التى تتداعى من تلقاء نفسها مع قليل من الفحص والتدبر .

حقيقة التصوف عند الإمام الشعرانى

ينبغى أن نوضح فى هذا المقام أن الإمام الشعرانى كان صوفياً على قدر عظيم من النضج العقلى الواعى . أو بعبارة أخرى يمكن القول : كان صوفياً متحققاً بعلمى الشريعة والحقيقة ، وعلى قدر من الوعى والحركة والعمل الدائب المتواصل لإنقاذ مجتمعه مما لحق به من آلام وبلاء جره عليه نوع من الحكم الظالم . حكم الدم الغريب الأهوج ، إذ اصطلى الشعب المصرى بنار الصراع الذى انتهى بقتل السلطان الغورى ودخول السلطان سليم الأول إلى مصر .

وكان هناك فى مصر طبقات ثلاث :

الأولى : طبقة من العلماء : وكان هدف هذه الطبقة وكل اهتمامها منحصراً فى إرضاء الحاكم الدخيل ، مسلِّمينَ له كل تسليم ، طامعين فى عطائه لهم ، بائعين ضمائرهم ، مهدرين كرامة بنى وطنهم وكل ذلك فى سبيل المطامع والأهواء الشخصية .

وقد عرض الإمام الشعرانى لكثير من هؤلاء بالتشهير فى معركتهم مع الإمام جلال الدين السيوطى وغيره من العلماء المخلصين من أهل الحق .

الثانية : طبقة الفلاحين : وهؤلاء هم الكادحون الذين صورهم

الإمام الشعرانى فى كتابه : « **البحر المورود فى المواثيق والعهود** » بأنهم كانوا يعملون طول العام ، ثم لايكتفى الحاكم الغريب بأن يستولى على محصولهم من الزرع حتى يستولى على الجاموسة والبقرة .

الثالثة : طبقة الصوفية : وهؤلاء كانوا أكثر التصاقاً بالشعب ، وأشد تلاحماً معه فى أزقته وحواريه ودروبه ومجتمعاته ، ومع تلاحم الصوفية بالأوساط الشعبية فإنهم كانوا على صلة وثيقة بالعلماء جميعاً . والمخلصين منهم لتنظيم خطط الإصلاح ومقاومة الحكام الدخلاء، والمصلحين منهم بالجرح والفضح والتشهير وكشف الخداع.

ولم يكن نقدهم للعلماء بأهون من نقدهم للصوفية الزائفين أنفسهم ، بل إن الضلال هو الضلال ، سواء أكان فى عالم رسمى ، أو فى عين من أعيان القاهرة ، أو غيرها من البلاد ، أو متصوف دخيل .

وكان الإمام الشعرانى من أبرز الشخصيات التى تصدرت لحركة الإصلاح هذه فى أوساطها جميعاً ، ولاسيما فى بيئة العلماء وبيئة الصوفية ، إذ أصبح الفلاحون وأرباب الصنائع فرائس للأدعياء من هؤلاء ، ومن رجال الحكم الغرباء عن البلاد .

ولقد ألف الإمام الشعرانى رسالة فى هذا المعنى أودع فيها رأيه الصريح بما يدفع أولئك الذين دَسُّوا على كتبه مايشوه مقاصده القويمة

السامية .

فقال : « صار كل من أذن له شيخه القاصر بأن يستفتح الذكر بجماعة ، أو أذن له بأن يلقن الناس أولم يأذن له ، أو سمع فى خلوته هاتفاً من جنى أو شيطانى ، يظن أنه ولى الله ، فيجمع له جماعة من العوام من أهل الصنايع وغيرهم ، فتارة يجلس فى بلدته ، وتارة يطوف البلاد ، ويكلف العباد فى هذه الأيام الكدرة النكدة على الخاص والعام ، وهو مع هذا يدعى أنه قائم فى الخلق مقام نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم ، وكفى بذلك جهلاً وسوء أدب .. أين المقام من المقام ؟ وأين الملائكة من الشياطين ؟

ولقد أورد الإمام الشعرانى فى رسالته : « **ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى** » : أن كل من نظر فيها بالأدب من مشايخ هذا الزمان عَلِمَ يقيناً أنه لم يشم رائحة الولاية فضلاً عن حصولها فيستريح من الدعاوى الكاذبة لأنه يجد نفسه عارياً عن صفات الأولياء .

كما أورد فى موطن آخر من هذه الرسالة : « من أراد أن يتصدر للمشيخة وتربية المريدين أن يعرف تلامذته أول يوم أخذ الله فيه الميثاق فى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾(١) .

وأن يعرف من يفتح له على يده ممن كان لايفتح له . هكذا درج عليه الأولياء العارفون .

وأورد أيضاً : « مامن ولى حق له قدم الولاية إلا ويعلم العلوم اللدنية كشفاً وذوقاً لانقلاً وفهماً » .

كما قال : « لايجوز لشيخ أن يلقن أحداً من الخلق إلاَّ أن يكون يعرف مراد حركاتهم ومصادرها، ويعرف الأنفاس والنظرة، وماله ويعرف بالشم أهل الطريق الذين يصلحون من الذين لايصلحون، ويعرف ماقسم لتلميذه من الأعمال حتى يأمره بها على وفق القسمة السَّابقة ، لامن يعرف ذلك بأمر الخلق بأن يفعلوا مالم يقسم لهم مالم يستطيعوا بشرطه ، وأن يشاهد تصاريف الأقدار فى الخلق فيأمرهم بفعل ماأراد الله فى كل وقت . وهذا ماأجمع عليه الأولياء . فمن لم يصل إلى ذلك فيلدخل فى غمار الناس ولايتصدر لشيء من صفات الأولياء يهلك نفسه ومن يتبعه » .

وقال أيضاً : « قد أجمع أهل الله تعالى أنه لايجوزلولى أن يتصدر أو يتظاهر فى الولاية فى وقت من الأوقات حتى تجتمع

(١) سورة الأعراف : الآية : ١٧٢ .

الأولياء أصحاب الدائرة والطريق ويبـايعونه فى اليقظة ويدخلون تحت طاعته » .

وينبه الشعرانى فى هذه الرسالة مريده قائلاً : « من عرف من أين جاء عـرف إلى أين يصير . وهنا أسـرار لاتفشى فـاعلم ذلك . فإذا لم يعلـم الشيـخ ذلك فكيـف يسـلك ويتـشبه بـالأولياء الذين يعـرفون ذلك » .

ومن أقـوال الشعـرانى : « الجـاهل لاينبغى له أن يتـصدر لـباب الدعوة ».

وكذلك يطـالب الإمـــام الشعرانى كل من طــرق باب الدعوة إلى الله أن يكون عالماً بالعلوم الشرعية، عامـلاً بها، سالكاً عليها، مطبقاً لهـا، فيكون من المتبعـين لكتـاب الله وسنة رسوله صلى الله عليـه وآله وسلم .

ولقد أودع الإمام الشعـرانى الآداب التى يتحلى بها المريد السالك طريق الحق فى رسـالة : **« الأنوار القـدسيــة فى مـعـرفـة آداب العبودية »**.

كـمـا أودع فى رسـالة : **« الأنوار القـدسيــة فى مـعــرفـة قـواعــد الصوفـية »** .جانبـاً من الأخلاق التى يتـحلى بها الـصوفى العارف بالله .

وينبه الإمام الشعرانى مريده فى هذه الرسالة بقوله : إن المدعيين المشيخة قد طرحوا السياج وليس أحد منهم يقتدى به . ومن شك فى ذلك فليعرض أوصاف القرآن ونعوته لأهله وخاصته يعلم ذلك يقيناً .

فالمسلم الكامل حسبما يرى الإمام الشعرانى أعزّ من الكبريت الأحمر .

من هنا قال : لايكون المسلم كاملاً حتى يسلم لسانه وسمعه وبصره ويده وفرجه وقلبه مما حرّم الله تعالى ظاهراً وباطناً . وأين للمدعين هذه الرتبة ولاجارحة لهم إلا وعصت الله مراراً .

والمقصود من قوله هذا : الذين يدّعون رتبة المشيخة والولاية وهم ليسوا من أهلها .

ويعقب على ذلك بقوله : إذا كان هذا فى رتبة الإسلام فكيف تسلم له رتبة الإيمان فضلاً عن رتبة الولاية . وكيف يليق بمن لم يحصل له رتبة الإسلام أن يكون داعياً إلى الله تعالى محبباً لاينازعه فى الكمال والاسم فإن الولى اسم من أسماء الله تعالى .

كما يحذر الشعرانى مدعى الولاية من الاغترار بالنفس فعليهم

أن يسيروا فى طريق العلم والأدب منهجاً وسلوكاً . ولا ينبغى لهؤلاء أن يشاهدوا أحوالهم مستقيمة وأحوال غيرهم معوجة وينصبوا أنفسهم متبوعين لاتابعين لذلك جاء تنبيهه بمخالفة النفس فقال : « اعلم أن درجات الاستقامة شهود العبد العوج فى نفسه وأعلى درجات الاعوجاج شهود الاستقامة فى نفسه ».

كما جاء تحذيره بعدم التقليد للأئمة والفقهاء تقليداً أعمى بأن يعمل شيخاً ويقلد كلام الفقهاء أو لرسالة شيخ من مشايخ الصوفية فإن فى ذلك هلاكاً لمن قلد .

لذلك قال : أحسن أعمال العبد أن يرى نفسه عاصياً وقلبه قاسياً فإنه يصير حينئذ لادعوى عنده . وهذا مادرج عليه أهل الله لأنه وصفهم على الدوام .

ويوجه الإمام الشعرانى نداءً لكل من ادعى الولاية يدل على معايشته لهؤلاء المدعين يقول فيه : كيف تطلب أن تكون من المؤمنين وأنت طالب لأوصاف المتكبرين من الصلاة على السجادة ؟

ويعود فيقول : هذا من أفعال الغافلين المحجوبين فكيف يكون صاحبه داعياً إلى الله تعالى وهو لايعرف طريق بابه ؟

فاعلم ذلك واحذر من اقتفاء آثار المتظاهرين فى هذا الزمان

بالمشيخة فإنهم لايسلكون بك إلا من طريق المقت .

كما قال : احذر أن تقر أحداً من المعتقدين على وصفه لك بالولاية والصلاح بل ازجرهم على ذلك. واعلم أن درجة الإسلام عزيزة فى مشايخ هذا الزمان لكثرة المنازعة فى بواطنهم لله تعالى فى صفات الكمال بما يستحق به المدح ورفع المنزلة على الخلق ، والإسلام هو الإستسلام والانقياد لله تعالى ولعباده ظاهراً وباطناً وألا يكون عنده منازعة فى شىء من الكمالات وأن يسلم اعتقاده وإيمانه من الشكوك والأوهام المضلة عن طريق الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين . إذا علمت ذلك فتيقظ لنفسك ولاتقلد أحداً فى علمك بها فإن الخلق لايعرفون منك إلا ظاهرك والمدار على السرائر لاعلى الظواهر.

وقد كثر فى هذا الزمان المدعين وصار كل مدعٍ ينصب له نقباء وكذابين ويقولون : أن شيخناهو صاحب العصر . وكُل ذلك مصيدة للدنيا وتأمل مدحهم لشيخهم إنما يكون دائماً عند الأمراء كبراء البلاد .

ويختتم الشعرانى هذه الرسالة بقوله : « أدب العبيد شهودهم سوء أدبهم فى جميع معاملاتهم مع الله تعالى ومع خلقه فاعلم ذلك واحذر إذا فتح الله بصيرتك وعلمت قلة أدبك وعدم استقامتك أن

تترك باب النصح والإرشاد لإخوانك وتقول الأعوج لاينبغى له أن يتصدر لإرشاد أحد فإن ذلك جهل بل انصح وارشد غيرك مع رؤيتك أنه أفضل منك » .

كما قال : « من علامة الجهل بطريق أهل الله تعالى البروز للدعوى بغير داعٍ إلهى يدعوه إلى ذلك . وقد وضعنا هذه الرسالة للتنفير عن طريق هؤلاء المغترين فإذا حصل التنفير فلينظر فى بقية رسائلنا الموضوعة لبيان الآداب المتعلقة بالخلق من الملوك والعلماء وأصحاب الحرف وغيرهم » .

ويذهب الإمام الشعرانى فى كتابه : **« الكوكب الشاهق »** فيقرر أن الأخلاق فى عصره ـ القرن العاشر الهجرى ـ قد انحدرت عما كانت عليه فى العصور السابقة ، حتى أنه يرى أن أخلاق المريدين فى الأزمنة السابقة ، أضحت هى أخلاق مشايخ عصره ، وهذا نفس ماقرره الإمام أبو حامد الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥هـ) فى كتابه : **« إحياء علوم الدين »** ، وبرغم اختلاف مشايخ عصر كل من الغزالى والشعرانى ، فإنه يبدو أن الأخلاق تنحدر باستمرار كلما بعدت عن صدر الإسلام .أى عصر الصحابة المقربين ، وقدوة السالكين ، الذين نعتهم الله تعالى

فـــى القــــرآن الكريم بأن أعينهم كانت تفيض من الدمع خشية من الله وتقشعر جلودهم إجلالاً لعظمة الله سبحانه وتعالى .

ويذهب أيضاً فى كـتابه : « **تنبيه المغترين** » فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، والذى يحتوى على دراسة مائة وستين خلقاً استخلصها الشعرانى من أخلاقيات الصوفية مما أسماهم بالسلف الصالح ، وأوضح أن هذه الأخلاق تميزهم عن غيرهم إذ هى صفات ملازمة لهم وأوصاف لأشخاصهم . ولعل هذه المشاعر النبيلة نحو الشعب هى التى دفعت الإمام الشعرانى إلى تجربة إصلاحية كان مركزها زاويته التى احتلها مسجده الآن ، حيث جمع فيها عدداً هائلاً من طلبة العلم ، ورواد الطريق ، وأقام بينهم نوعاً من الحياة التعاونية ، وأجرى عليهم مافتح الله به عليه من صالحى الأغنياء كما كانت تجرى الأرزاق على طلبة الأزهر ، ولكن بروح الصفاء والحب لابروح الصراع والقتال ، ولعل هذه المشاعر أيضاً هى التى دفعته على التفوق على الأزهر فى رعاية طلابه إذ شمل برنامجه الإصلاحى تزويج الطلاب وتجهيزهم بكل مايحتاج إليه الأزواج حتى الإقامة كانت مكفولة للطلاب وزوجاتهم فى قسم خاص من حجرات الزاوية . ولاشك أن هذا الاتجاه هو الذى أثار علماء الأزهر على الشعرانى حتى هموا بقتله ولم ينالوا منه شيئاً .

ولقد أوضحت هذه الدراسة أن الإمام الشعرانى سبق عصره بقرون عندما استخدم الطريقة العلمية فى الدراسة وهو مايعرف الآن بالأنثربولوجيا أو علم الإنسان الإجتماعى ، والتى تصب فى دراستها كل اهتمامها على دراسة المجتمعات الصغيرة والبسيطة والمحدودة دراسة تحليلية وموضوعية بقصد الوصول إلى نظرية متكاملة تفسر المجتمع المدروس .

ولقد قام الإمام الشعرانى بوضع فرض حاول امتحان صدقه من كذبه مفاده أن أخلاق المريدين فى الزمن الماضى - أى الزمن السابق على عصره - صارت أخلاق الشيوخ فى زمانه ، واعتمد الشعرانى فى جمع معلوماته عن طريق اللقاءات المستمرة بأهل الطريق مستخدماً فى ذلك الملاحظة المباشرة وغير المباشرة تلقاها كما يقول عن نحو مائة شيخ ممن أدركهم فى أوائل القرن العاشر فى مصر وقراها ، بعضها شاهده من أفعالهم ، وبعضها اقتبسه من نور أخلاقهم .

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن الإمام الشعرانى قد وقف على أحوال الصوفية فى عصره وتعرف على مشاربهم ، وتذوق مواجيدهم ، وتفهم رموزهم وإشاراتهم واصطلاحاتهم وعباراتهم ، والتمس لطائفهم ، ودقائقهم ، ورقائقهم ، وعاين مجالسهم ، فتكشف

له بذلك صادقهم من كاذبهم .

وأما السبب الرئيسى فى اهتمام الشعرانى بهذه الدراسة الفريدة والتى يورد أنه لم يجد أحداً قداعتنى بشىء منها ، يرجع إلى خوفه من أن تندرس أخلاق الصوفية باندراس تلاميذهم .

ومما يؤكد صدق ما استخلصناه من أن الإمام الشعرانى يعد بحق رائداً من رواد الأنثربولوجيا الحديثة أنه اتبع فى دراسته نفس المنهج العلمى الذى يتبعه علماء الأنثربولوجيا فى دراساتهم الحقلية والمسحية ، فهو لايألو جهداً فى فحص وتمحيص ما يسمعه ويلقاه ويشاهده أو ينقل إليه ، ويعتمد فى ذلك على موازين دقيقة فى إصدار الحكم على الأحداث والوقائع والمشاهدات ويبرهن على صحة ذلك بقوله : « وهى كالسيف القاطع لعنق كل من يدعى الصلاح فى هذا الزمان بغيرحق لأنها تغسله وتسلخه من طريق الصلاح كما تنسلخ الحية من ثوبها ، ولقدحررتها على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر بحسب فهمى ومقامى » .

ولاشك أن هذا النص للإمام الشعرانى يدل دلالة قاطعة على مدى تمسكه الشديد بالكتاب والسنة قولاً وفعلاً وعملاً وسلوكاً وتطبيقاً .

وإذا كان الإمام الشعرانى قد سبق عصره فى هذه الدراسة التى

أصبحت علماً يدرس . فكان جل اهتمامه منصباً على الدراسات المقارنة لتحليل الوقائع وكشف الأمور وتمحيصها للتعرف على الغث من السمين .

والحقيقة أن دراسة الإمام الشعرانى للمجتمع الصوفى فى عصره وما توصل إليه من نتائج تؤكد انحدار الأخلاق ، قد عززتها كتب التاريخ ، وما أرخه المؤرخون لهذا العصر الذى حكم فيه المماليك مصر ثم أذن الله مع بداية القرن العاشر الهجرى للرحيل ليستقبل العصر حكم العثمانيين ، وقد سبق ذلك الظلم والجهل والفقر والمرض والفساد وعمت الفوضى أرجاء البلاد ، واضطراب الأمن ، وجنحت أداة الحكم للانحلال ، وبدت مصر وكأنها قد اعتزلت العالم إذ وافق ماتعنيه من ضنك اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الأمر الذى زاد فى عزلتها .

ولم يكن حكم العثمانيين لمصر بأفضل من حكم المماليك لها ، فقد أفقدوهاخلافة المسلمين وضيعوا عليها زعامتها على دولهم ، وعملوا على إرهاقها بالسلب والنهب والمفاتن ، وفرض الضرائب الجائرة ، واغتصاب الخراج عنوة ، كما نقلوا خيرة صناعها إلى الآستانة ، وأهملوا الزراعة ، وأخلفوا سنة المماليك فى رعاية العلم إلى مالايكاد يتجاوز علوم الدين النقلية ففسدت الحياة واستشرى الجهل بين الناس .

وفى هذا الجو المشحـون بالظلم والفساد نشأ الإمـام عبد الوهاب الشعرانى (٨٩٨ ـ ٩٧٣هـ) . وقد صحب المماليك حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وقضى فى صحبة الحكم العثمانى خمسين عاماً طوالاً ارتبط بآلام مجتمعه وبيئته وإخوانه .

ولقد تـناول الإمام الشـعرانى قضـايا عصـره بالاهتمـام والوعى الناضج الذى يدل على علو همته ، وبراعة فكره ، فاندمج فى صفوف الشـعب يتلمس آلامـه ، ويكشف عن أمراضـه الاجـتمـاعـية ، وينقـد ويرسم الطريق للإصلاح ، حتى كان هدفهـا لسهام طائشة من العلماء وأدعيـاء التصوف كـان أخطرها الدس فى كتـبه ولاسيـما فى طبـقاته الكبرى .

ولكى نوضح مكانة الإمـام الشعرانى فى علوم الشـريعة لابد من التعرف على مدى مطابقة علوم الحقـيقة على علوم الشريعة عند الإمام الشعرانى ومـوقفه من المبتـدعة ، والزنادقة ، والباطنيـة ، الذين خرجوا عن ظـاهر الشـريعـة ، ثم موقفـه من فـقهـاء عصره . ولقـد أوضحت هـذه الدراســة بين صـفـحـاتهـا مكانة الإمـام الـشـعـرانى فى علوم الشريعة . وهذا يتضح فى مطالبته بالالتـزام بمـاجاء فى الكتاب والسنة وعدم مخالفة ماجاء فيهما .

وكما أوضح فى أحد نصوصه أن الولى لايأتى قط بشرع جديد ، وإنما يأتى بالفهم الجديد فى الكتاب والسنة .

لذلك فإن تعلم الفقه ضرورة قبل الدخول فى طريق التصوف . ومن هنا قيل : « كن فقيهاً صوفياً ولاتكن صوفياً فقيها » . أى تفقه أولاً ثم تصوف .

وتدليلاً على ذلك يقول الإمام مالك : « تفقهوا ثم اعتزلوا » .

وهذا يعنى أنه لابد من دراسة العلوم الشرعية التى تعتمد على الفكر والنظر قبل دخول طريق التصوف .

ويرى الإمام الشعرانى أن الشريعة هى السيف القاطع بحده كل بدعة وضلالة . وفى ذلك يقول : دوروا مع الشرع كيف كان ، لامع الكشف .

ويوضح ذلك بقوله أيضاً : إذا صح كشف الولى فلايكون إلاموافقاً للشريعة ومؤيداً بها .

وهذا القول للإمام الشعرانى يتضح منه أن الشريعة الثابتة عن طريق النقل والظاهره أصح مما يأخذه الولى من طريق الإلهام .

والحق سبحانه وتعالى أمر علماء الشريعة وأئمتها أن يحافظوا على ظاهر الشريعة . وهنا يقول الشعرانى : لولا علماء الشريعة لتعدى غالب الناس الحدود إذا لاح لهم بارق من علم الحقيقة فأفسدوا بذلك نظام الشريعة لكن الذى لاينبغى إغفاله أن

تسمية علماء الشريعة بأنهم علماء الظاهر فيه إجحاف بالشريعة وعلمائها إن أريد بذلك أن الشريعة وعلماءها تقف عند إصلاح ظاهر الإنسان فقط وتقتصر عن إصلاح باطنه ، فالشريعة لم تشرع لإصلاح الظاهر فحسب ، بل هى كفيلة بإصلاح ظاهر الإنسان وباطنه .

فالشريعة والحقيقة متلازمتان لاتوجد إحداهما إلا ومعها الأخرى .

وقد قال المحققون : شريعة بلا حقيقة عاطلة ، وحقيقة بلا شريعة باطلة .

وينقل الشعرانى عن شيخ الإسلام زكريا الأنصارى قوله : « قد أجمع الناس على أن كل من خرج عن الشريعة المطهرة فى شىء من أقواله أو أفعاله أو عقائده ، أو جهل شيئاً من أدلة الأمر والنهى فلايصلح للتصدر فى الطريق ، وذلك لأن الناس كلهم يصيرون ناظرين إلى أقواله وأفعاله لايقتدون به فيها » .

كما أنه لايجوز لأحد من الصوفية أن يقدم على فعل شىء أو تركه إلا بعد بيان مستنده من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة .

أو بعبارة أخرى فإن طريق الصوفية مقيد بالعمل على وفق الكتاب والسنة فمن لم يفهم معانى القرآن والحديث لايقتدى به فى الطريق .من هنا جاء تحذيرالإمام الشعرانى فى التمسك بظاهر الشريعة .

سيرة الإمام عبد الوهاب الشعرانى

تتصل سلسلة نسب الإمام عبد الوهاب الشعرانى إلى الإمام على ابن أبى طالب ﷺ ، وينحدر عن قبيلة زغلة من أعمال المغرب العربى .

أما جد الشعرانى فهو أبو عبد الله أحمد الزغلى سلطان تلمسان بالمغرب ، وقد تصوف ابنه موسى أبو عمران وآثر التصوف على السلطنة .

وأخذ الطريق على يد الإمام أبى مدين التلمسانى الذى أرسله إلى صعيد مصر لتكتمل تربيته حيث مات هناك سنة ٧٠٧هـ ، وكان ابنه أحمد والد الإمام الشعرانى بصحبته مهاجراً بعد موت والده ، إلى ساقية أبى شعرة ، وهى قرية بالمنوفية تجاه النيل وإليها ينتسب الإمام الشعرانى (١) .

ومن ترجمته قد أرخ لنفسه فى كتاب : « **لطائف المنن** » : حيث قال : « أحمد الله تعالى حيث جعلنى من أبناء الملوك ، فإنى بحمد الله تعالى : عبد الوهاب بن أحمد بن على بن محمد زوغا ابن الشيخ موسى . جدى السلطان السادس ابن السلطان أحمد ابن

(١) الزركلى ، خير الدين : الأعلام (بيروت : دار العلم للملايين ، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ج٦ ، ص : ٣٣١) .

السلطان سعيد ابن السلطان فانين ابن السلطان محيا ابن السلطان زوغا ابن السلطان ريان ابن السلطان محمد بن موسى ابن السيد محمد ابن الحنيفة بن الإمام على بن أبى طالب ﷺ . ونعرف من الترجمة أن هؤلاء السلاطين كانوا فى المغرب الأقصى [١].

أما ميلاده فقد كان عام ٨٩٨هـ بقرية قلقشنده ثم انتقل بعدأربعين يوماً إلى قرية أبيه وإليها اشتهر باسمه الشعرانى أو الشعراوى [٢].

وقد غادر قريته إلى القاهرة طلباً للعلم حيث استفاد من كثرة شيوخ القاهرة وأقام بالجامع الأزهر ملازماً شيخه وأستاذه نور الدين الشونى نحوخمس سنين .

ثم غادر الأزهر إلى الجامع الغمرى عام ٩١٩هـ ، ولبث به سبعة عشر عاماً ، ثم تحول بعدها إلى مدرسة أم خوند حيث اشتهر شهرة كبيرة [٣].

---

(١) الشعرانى : لطائف المنن ، تقديم عبد الحليم محمود (القاهرة : عالم الفكر ، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) ص : ٥ .

(٢) ورد عن المناوى أنه ولد يوم ٢٧ من رمضان سنة ٨٩٨هـ . وكذلك على مبارك ، والمستشرق شاخت . ويقول توفيق الطويل فى كتابه : « أعلام الإسلام » عن الشعرانى أنه لاصحة لماجاء في المناقب الكبرى وغيرها مما يخالف ذلك . هذا فيما يتعلق بميلاده .

(٣) توفيق الطويل : الشعرانى « أعلام الإسلام » (القاهرة : دائرة المعارف الإسلامية ، سنة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٥م ، ص : ٥ .

وفى هـذه الفتـرة اتصل بأسـاتذة العلم منـهم جـلال الدين السيـوطى ، وزكريا الأنصارى ، وناصر الدين اللقـانى ، والسمنودى ، وغيرهم كثير . حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ، والتزم القيام بالفرائض وهو ابن ثمان سنين .

ولقد وقف الإمـام الشعـرانى على أحوال الصوفـية فى عـصره ، وتعرف على مشاربهم ، وتذوق مواجيدهم ، حيث إنه تلقى العلم عن صفـوة من علماء عـصره من رجال الشـرع وأرباب التصوف . وكأنه جمع فـيضاً من المعلومات لتـرتد فيضاً من الكتب والمؤلفـات فى شتى العلوم والفنون فإنه بمثابة روح عصره .

شيوخ الإمام الشعرانى

للشعرانى شيوخ تتلمذ عليهم وأخلص فى خدمتهم وتأدب بآدابهم . ذكرهم فى الطبقات الكبرى بشىء من التمجيد والإعزاز .

١. الشيخ نور الدين الشونى (توفى سنة ٩٤٤هـ) :

يقول عنه الشعرانى فى : « الطبقات الكبرى » : هو شيخى ووالدى وقدوتى الشيخ نور الدين الشونى . وهو أطول شيوخى فى خدمته . مات سنة أربع وأربعين وتسعمائة .

٢. الشيخ على الخواص :

هو شيخ الإمام الشعرانى . ذكره الإمام الشعرانى فى معظم مؤلفاته وكان يقول عنه سيدى على الخواص ، وعندما ينقل نصاً من نصوصه يقول عنه سمعته مراراً . وهذا دليل على ملازمة الشعرانى له .لذلك نجده يقول عنه : شيخى وأستاذى وقدوتى سيدى على الخواص البرلسى رحمه الله . وكان أمياً لايقرأ ولايكتب إلا أنه كان يتكلم عن معانى القرآن الكريم والسنة المشرفة كلاماً نفيساً تحير فيه العلماء .

٣. الشيخ على نور الدين المرصفى (توفى سنة ٩٣٠هـ) :

أشار الإمام الشعرانى إليه فى كثير من كتبه ، وقد اعتبره الناس جنيد عصره . توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

٤.الشيخ محمد الشناوى (توفى سنة ٩٣٢هـ) :

أحد أكابر العارفين وأئمة المرشدين الكاملين المكملين ، أخذ منه الشعرانى العهد ولبس الخرقة على يديه ، وأجازه فى تربية المريدين . وكانت وفاته سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة .

٥.الشيخ محمد بن أخت مدين (توفى سنة ٨٨١هـ) :

هو محمد بن أحمد بن عبد الدائم الأشمونى المالكى ابن أخت الشيخ مدين الصوفى الكبير والولى الشهير . عاصره الإمام الشعرانى وقد أخذ عنه . توفى سنة واحد وثمانين وثمانمائة .

٦. الشيخ محمد بن عنان (توفى سنة ٩٢٢هـ) :

هو شيخ الإمام الشعرانى ، وهو أحد أكابر الأولياء أصحاب المقامات العالية والعرفان الكبير . توفى سنة اثنين وعشرين وتسعمائة .

٧.أبو الفضل الأحمدى (توفى سنة ٩٤٢هـ) :

هو فضل الدين أحد أفراد العارفين وأئمة الأولياء المقربين .وهو أخو الإمام الشعرانى فى الطريق ، ومتقدم عليه فى الأخذ عن سيدى على الخواص . وكانت وفاته سنة اثنين وأربعين وتسعمائة .

٨.أمين الدين بن النجار (توفى سنة ٩٢٩هـ) :

هو إمام جامع الغمرى بمصر المحروسة . كان لله من الراسخين

فى العلم وانتهت إليه الرياسة فى علو السند بـالكتب الستة وغـيرها . توفى سنة تسعة وعشرين وتسعمائة .

٩. الشيخ زكريا الأنصارى (توفى سنة ٩٢٦هـ) :

هـو شـيـخ الإسـلام وأحـد أئمـة العـلمـاء العـاملين والأوليـاء العارفين ، ومن أجل أركان الطريقين الفقه والتصوف . توفى سنة ستة وعشرين وتسعمائة عن مائة وثلاث سنوات من العمر .

حقيقة الزهد عند الإمام الشعرانى

لقد كان الإمام الشعرانى ورعاً حيث إنه ابتعد عن الناس وتقشف فى مأكله ومشربه .

ومما يروى أن الدفتر دار أحمد قدم إليه مبلغاً من المال جهراً فرفضه الشعرانى ، فبعث به مرة أخرى عن طريق أحد مماليكه خفية عن الأنظار فقال الشعرانى للمملوك : « كيف أقبله منك وقد رفضته من مولاك » . وانطلق المملوك مدهوشاً يشيد بزهد هذا الرجل الغريب من فقراء مصر (1).

وقدم المباشرون للشعرانى الذهب والفضة فى جامع الغمرى فألقاها فى صحن المسجد على مرأى منهم حتى تهافت لالتقاطها المجاورون .

ويقول الشعرانى : قمت ليلة فوجدت قساوة فى قلبى لم أعرف لها سبباً . فقيل لى فى المنام إن أردت حياة قلبك التى لاموت بعدها ، فاخرج عن الركون إلى الخلق .

---

(١) الشعراني ، عبد الوهاب بن أحمد : الكوكب الشاهق فى الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق ، تحقيق حسن محمد الشرقاوى (الإسكندرية : دار المعارف فرع الإسكندرية ، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص : ١٥) .

مؤلفات الإمام الشعرانى

تبلغ مؤلفات الإمام الشعرانى عددا ضخماً من الكتب بين مؤلفات وحواشي واختصارات بعضها مطبوع ، وبعضها مخطوط ويذكر منها صاحب : « معجم المؤلفين » :

١ ـ الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم .

ويوجد بدار الكتب المصرية تحت رقم ١ مجاميع عربى .

كما يوجد تحت رقم حفظ ٨٤ نصوص حليم عربى .

ويوجد أيضاً تحت رقم حفظ (٣٦٧٧) تصوف عربى ، ١٦٠٥ تصوف طلعت عربى ، وعدد النسخ الموجودة كما هو مسجل أربعة نسخ تحت أرقام الحفظ السابقة وهى على الترتيب: ١، ٨٤، ٣٦٧٧، ١٦٠٥

٢ ـ الدررالمنثورة فى بيان زبدة العلوم المشهورة . وهذا المخطوط بدار الكتب تحت أرقام الحفظ الآتية : ١٥٧معارف عامة عربى ، وتحت رقم حفظ ١٩١معارف عامة طلعت عربى .

كما يوجد تحت الأرقام التالية : ١١، ١٢، ١٩تصوف حليم عربى ، ٢٦٠٣ تصوف عربى ، ٨٧ ، ٨٨ معالم تيمور عربى .

وعددالنسخ الموجودة ثمان نسخ كما هو واضح بالأرقام السابقة .

٣ ـ لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار (ويعرف باسم طبقات الشعرانى الكبرى) ويوجد هذا المخطوط تحت الأرقام التالية : ١٩٢٣، ١٩٣٣، ١٩٧٠، ٢٠٦٦، ٢٠٩٦، ٢٠٩٧ ، ٢٠٩٨ تاريخ طلعت عربى ، ٢٨٤، ٢٨٥ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ١١٢٣، ١٤٢٣، ١٤٣٤، ٤٥٠٧، ٥٥٢١ تاريخ عربى ، ١٠٥ مجاميع م عربى ، ٧٦٤ ، ١٠١٢، ١٣٠١ ، ١٩٥٧تاريخ تيمور عربى ، ١٧٩تصوف حليم عربى ، ١٦مخطوطات الزكية عربى ، ٢٥٠٦١ ح عربى .

وعدد النسخ كماهو واضح من العرض السابق ثلاثة وعشرين نسخة مخطوطه تحت عنوان : « لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار» المعروف باسم الطبقات الكبرى . وهذا المخطوط مطبوع .

٤ ـ الطبقات الوسطى ويوجد هذا المخطوط تحت الأرقام التالية :

٣٠٠ ، ٨٦٨ ، ١١٩٨ تاريخ تيمور عربى .

وعدد النسخ المخطوطه ثلاثة نسخ تحت الأرقام السابقة .

٥ ـ الطبقات الصغرى : وهذا المخطوط مطبوع .

٦ ـ المقدمة النحوية فى علوم العربية .

٧ ـ شرح جمع الجوامع للسبكى فى أصول الفقه .

ويضيف الزركلى إلى تصانيفه الكثيرة :

٨ ـ أدب القضاة مخطوط .

٩ ـ إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين . وهذا المخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ الآتية : ٣٢ تصوف عربى ، ١١٤ تصوف حليم عربى ، ١١٧ تصوف تيمور عربى .

وعدد النسخ المخطوطة ثلاثة نسخ تحت الأرقام السابقة .

١٠ ـ الأنوار القدسية فى معرفة آداب العبودية . وهذا المخطوط مطبوع بهامش الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى . وموجود بدارالكتب المصرية تحت أرقام الحفظ الآتية : ٢٨ تصوف عربى ، ٧٤٠ مجاميع عربى ، ٢٨٠٣٥ب عربى ، ١٢٣ تصوف م عربى ٦٩٤ تصوف عربى ، ١٠١٦ تصوف طلعت عربى ، ٨٣٠ مجاميع طلعت عربى .

وعدد النسخ المخطوطة سبع نسخ تحت الأرقام السابقة .

١١ ـ البحر المورود فى المواثيق والعهود . وهذا المخطوط مطبوع . وموجود بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ الآتية :

٦٣٧٣٩ب عـربى ، ٤٠ ، ٥١٩ ، ٦٥٨ ، ٧٦٦ تـصـوف عـربى ، ١٣٩٨ تصوف طلعت عربى ، ٦٥ تصوف تيمور عربى .

وعدد النسخ الموجـودة سبعـة نسخ كماهو مـوضح تحت الأرقام السابقة .

١٢ـ البـدرالمنيـر . هذا المخطوط مـطبـوع . ويوجـد بدار الكتب المصـرية بهذا العنوان : « البـدر المنير فى الحـديث » تحت أرقام الحـفظ التالـية : ١٠٣حديث عـربى ، ٢٦٢٩ب عربى ، ٣٧٨٥٢ ب عـربى ، ٥٧١ حديث طلعت عربى .

وهذا المخطوط معنـون بعنوان : « البدر المنير من حـديث البشـير والنذير » تحت رقمى ٥٧٢، ٦١٤ حديث طلعت عربى .

١٣ ـ بهجة النفـوس والأسماع والأحداق فيمـا تميز به القوم من الآداب والأخلاق مخطوط بخطه . وموجود بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٣٩ تصوف عربى .

١٤ ـ تنبيه المغترين فى آداب الدين . وهذا المخطوط مطبوع .

١٥ ـ تنبيه المغتـرين فى القرن العاشر على ما خالفـوا فيه سلفهم الطاهر » .

وهذا المخطوط يوجـد بدار الكتب المصـرية . آخـذاً أرقام الحـفظ

الآتيـة : ١٣٣ ، ٢٤٢ ، ٣٣٥ ، ٥٩٩ ، ٦٩٧ تصوف عـربى ، ٩٤٩ تصوف طلعت عـربى ، ٦٦ ، ٣٦٥ تصوف تيمور عـربى ، ٨٧٢ مخطوطات الزكية عربى .

وعدد النسخ المخطوط كما هو موضح تسعة نسخ تحت الأرقام السابقة .

١٦ ـ تنبيه الأغبياء على قطرة من بحور علوم الأولياء .

١٧ ـ الجواهر والدرر الكبرى (من كلام الشيخ على الخواص) مطبوع .

وهذا المخطوط مسجل بقائمة المخطوطات بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٥٨ تصوف عـربى ، ٩٥١ ، ١٠٧١ ، ١٣٨١ ، ٢٠ مجاميع عربى ، وعدد النسخ المخطوطة خمسة نسخ تحت الأرقام السابقة .

١٨ ـ الجواهروالدرر الوسطى . هذا المخطوط مطبوع .

١٩ ـ حقوق إخوة الإسلام (فى المواعظ) . مخطوط موجود بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٩٤٧تصوف عـربى ، ١٥٢تصوف حليم عـربى ، ٩٣١ تصوف طلعت عربى ، ٧٤ مجاميع تيمور عربى .

وعدد النسخ أربعة نسخ تحت الأرقام السابقة .

٢٠ ـ درر الغواص فى فتاوى سيدى على الخواص مطبوع . ويوجد هذا المخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمى حفظ ٤٢٠١ تصوف عربى ،١٤٧ مخطوطات الزكية عربى .

٢١ ـ ذيل لواقح الأنوار (جزء صغير) ويوجد بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٤٩٣، ٥١٣، ٥٩٨ تاريخ عربى ، ٦٧٤ تاريخ تيمور عربى ، ٢٤٨ مخطوطات الزكية عربى ، ومسجل تحت عنوان : « ذيل الطبقات الكبرى » .

وعدد النسخ خمس نسخ مخطوطه تحت الأرقام السابقة .

٢٢ ـ القواعد الكشفية الموضحة لمعانى الصفات الإلهية .

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ١٣٤ ،٥٢١ تصوف عربى ، ٨٩٣ تصوف طلعت عربى .

وعدد النسخ الموجودة ثلاثة نسخ تحت الأرقام السابقة .

٢٣ـ الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر مطبوع . وهذا المخطوط موجود بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٦٠٦ ، ٣١٢٥ ، ٢٧٢تصوف عربى ، ١٤٩٤ تصوف طلعت عربى ، ١٦٤ م عربى .

وعدد النسخ المخطوطه خمسة نسخ تحت الأرقام السابقة .

٢٤ ـ كشف الغمة عن جميع الأمه . مطبوع . وهذا المخطوط يوجد بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٣٩٢، ٣٩٣، ١٧٢٢ حديث عربى .

وعدد النسخ الموجودة بقسم المخطوطات ثلاث نسخ مخطوطه .

٢٥ ـ لطائف المنن والأخلاق (ويعرف بالمنن الكبرى) ـ مطبوع.

ويوجد هذا المخطوط بدار الكتب المصرية تحت عنوان : « لطائف المنن والأخلاق فى التحدث بنعمة الله على الإطلاق » آخذاً الأرقام التالية : ١٥٠ ، ٣٢٢، ٥٢٣ ، ٦٠٧ ، ٢٦٦٣ ، ٣٧٦٦ تصوف عربى ، ٣٧٦ تاريخ عربى، ٩٢٧ ، ١٣٦٤، ١٥٢٦ , ١٥٢٧، ١٥٦٧ تصوف طلعت عربى ،١٧٠، ١٧١ تصوف م عربى .

وعدد النسخ المخطوطة أربعة عشر نسخة مخطوطة .

٢٦ـ لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية ـ مطبوع .

٢٧ـ مختصر تذكرة السويدى فى الطب ـ مطبوع .

ويوجد بدار الكتب المصرية تحت أرقام ١٩٥٧٧ ل عربى ، ١٠٤ ، ٩٠٣ طب عربى ، ٤١ طب م عربى .

وعدد النسخ المخطوطة أربعة نسخ مخطوطة .

٢٨ـ مدارج السالكين إلى رسوم طريق العارفين ـ مطبوع .

ويوجد بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ١٧٠ ، ٦٨٥ تصوف عربى ، ١٧٨ تصوف م عربى ، ٥٧٨ مخطوطات الزكية عربى .

وعدد النسخ المخطوطة أربعة نسخ مخطوطة .

٢٩ـ مشارق الأنوار ـ مطبوع . ويوجد بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ١١٤ ، ١٢١ تصوف م عربى .

وعدد النسخ المخطوطة نسختان تحت الرقمين السابقين .

٣٠ـ المنح السنية ـ مطبوع . ويوجد هذا المخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمى الحفظ ١٠١ تصوف حليم عربى ، ٣٠١٥ تصوف عربى . وعدد النسخ المخطوطة نسختان تحت الرقمين السابقين .

٣٢ـ منح المنَّة فى التمسك بالسنة ـ مطبوع .

وهذا المخطوط موجود بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٠٧ مجاميع عربى .

٣٣ـ الميزان الكبرى ـ مطبوع .

ويوجد هذا المخطوط بدار الكتب المصرية تحت عنوان :

« الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين » تحت أرقام الحفظ التالية : ٧٧ فقه المذاهب عربي ، ٢٣٩، ٣٣٤، ٣٣٥ ، ٤٠٧، ٤٠٨ ، ١٧٨٣ فقه شافعي عربي ، ٦٥٤ فقه تيمور عربي ٨١ فقه المذهب طلعت عربي ، ١، ٢ فقه شافعي ق عربي ، ٤٧ ، ٤٨ فقه شافعي م عربي ، ٣٤٨، ٣٤٩ علم كلام طلعت عربي ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ فقه المذهب طلعت عربي ، ٦٥٥ فقه تيمور عربي ، ٧٥٤ ، ٨٦٢ فقه شافعي عربي ، ٢١٦٣٥ ب عربي .

وعدد النسخ المخطوطة بدار الكتب المصرية ثلاثة وعشرين نسخة مخطوطة .

٣٤ـ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد علوم الأكابر ـ مطبوع .

وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام حفظ ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٣٥٠، ٥٢٢، ٦٠٩ ، ٣٤٩٤ تصوف عربي ، ٥٨، ١١٠ تصوف حليم عربي . ١٠٧٢، ١٠٧٣ تصوف طلعت عربي .

وعدد النسخ المخطوطة عشر نسخ تحت الأرقام السابقة .

٣٥ ـ الرسالة من مؤلفات الإمام الشعراني.

٣٦ ـ مختصر إرشاد الغافلين من الفقهاء والفقراء إلى إرشاد صحبة الأمراء وتسمى بالمنن الصغرى . وهو موجود بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٠٨٢ تصوف طلعت عربي .

٣٧ ـ سلوك المحققين .

٣٨ ـ لُباب الأعراف المانع فى اللحن فى السنة والكتاب .

وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمى حفظ ٢١٥ ، ٧١٥ نحو تيمور عربى .

وعدد النسخ المخطوطة نسختان بدار الكتب المصرية تحت الرقمين السابقين .

٣٩ ـ مختصر المدونة للإمام مالك .

٤٠ ـ التتبع والفحص على حكم الإلهام إذا خالف النص .

٤١ ـ طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بالله تعالى وبالعباد .

٤٢ ـ الميزان الخضرية الشعرانية المدخلة لجميع أقوال أئمة المذاهب وتقليدهم فى الشريعة المحمدية .

وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٦٥٩فقه شافعى عربى .

٤٣ ـ أسرار الدين من مؤلفات الإمام الشعرانى.

٤٤ ـ أسرار الشريعة من مؤلفات الإمام الشعرانى.

٤٥ ـ الفلك المشحون . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٧٤ تصوف حليم عربى .

٤٦ ـ المنهج المبين فى بيان أدلة مذاهب المجتهدين (مختصر السنن الكبرى للإمام البيهقى) .

وهو موجود بدار الكتب المصرية تحت عنوان : « مختصر عقيدة الإمام البيهقى » تحت رقم حفظ ٦٥٥ مجاميع طلعت عربى .

٤٧ـ المنن والأخلاق من مؤلفات الإمام الشعرانى.

٤٨ـ طبقات الصوفية من مؤلفات الإمام الشعرانى .

٤٩ ـ هادى الحائرين إلى رسوم أخلاق العارفين .

٥٠ ـ الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ، رسالتنا للحصول على درجة الماجستير فى الآداب .

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٢٥ ، ١٩٣ تصوف عربى ، ١١٤ تصوف م ، ٨٢١ خصوصى ويحمل رقم ٣٣٤٣٥ عمومى تصوف ، وهو الآن مؤلف منشور .

٥١ ـ الفوائد المبنية على القواعد الفقهية للزركشى . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٩١٠٠ فقه شافعى عربى .

٥٢ ـ الكشف والتبيين . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٨ مجاميع عربى .

٥٣ ـ كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان مطبوع . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٩٢ مجاميع عربى ، ٢٢٩٨٤، ٢٣٤٦٣ ب عربى ، ٢٢٨٦، ٣١٨٦ تصوف عربى ، ٣١٩، ٣٣١ ، ٣٧٤ ، ٤٠٢ مباحث إسلامية طلعت عربى ، ٨٣ غيبات تيمسور عربى ، ٦٢ تصوف خليل أغا عربى ، ٤١٢ مخطوطات الزكية عربى .

وعدد النسخ اثنتا عشر نسخة مخطوطة .

٥٤ ـ المقاصد السنية فى بيان القواعد الشرعية . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٧١٧ مجاميع عربى ، ٧ فقه شافعى حليم عربى .

٥٥ ـ مقدمة فى ذم الرأى وبيان تبرئة الأئمة المجتهدين .

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمي حفظ ١٩٩٦٠ب عربى ، ٤١٨٤ تصوف عربى .

٥٦ ـ مشارق الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٤٣٩ ب عربى .

٥٧ ـ مختصر تذكرة القرطبي . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٢٢٩٦١ب عربي ، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ١٤٢٠ تصوف عربى ، ١٢١٦ تصوف طلعت عربى .

وعدد النسخ المخطوطة ست نسخ مخطوطة .

٥٨ ـ موازين القاصدين . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٩٣ تصوف عربى .

٥٩ ـ الفتح المبين فى ذكر جملة من أسرار الدين . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٧٩٤ تصوف عربى .

٦٠ ـ رياض الصالحين . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٩٧٠ تصوف عربى .

٦١ـ الموازين الذرية المبينة لعقائد الفرق العلية . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمى حفظ ٢١٠، ٢١٧ مجاميع طلعت عربى .

٦٢ـ رسالة فى آداب الفقراء القاصدين طريق أهل الله عزوجل . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٦٤٢ مجاميع طلعت عربى .

٦٣ـ الإنسان المبصر فى معرفة الولى الكامل من المقصر . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٣٩تصوف حليم عربى .

٦٤ـ الدرر واللمع فى الصدق والورع . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمى حفظ ٣٥٨٤ تصوف عربى ، ٩٢١ تصوف طلعت عربى .

٦٥ـ منن الشيخ الشعراوى الصغرى . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٩٥٠٠ تصوف طلعت عربى .

٦٦ـ وصايا الشيخ الشعراوى فى الآداب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٠١٨ تصوف طلعت عربى .

٦٧ـ تحفة الأكياس فى حسن الظن بالناس . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٤٣٥ تصوف طلعت عربى .

٦٨ـ الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية ـ مطبوع . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمى حفظ ١٢٤ تصوف م عربى ، ١٨٢ تصوف حليم عربى .

٦٩ـ جملة رويانى عن الشيخ جلال الدين السيوطى . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٢٥ تصوف عربى .

٧٠ ـ لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام حفظ ١٤٦ تصوف م عربى ، ١٧٩ تصوف حليم عربى ، ٨٧١ مخطوطات الزكية عربى .

٧١ ـ رسالة مباركة . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤ تصوف تيمور عربى .

٧٢ـ رسالة فى تبرئة الشيخ الأكبر ابن عربى . مخطوط بدار

الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٦٧ تصوف تيمور عربى .

٧٣ ـ المريد الصادق . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٢٢٥تصوف تيمور عربى .

٧٤ ـ مواعظ الزابور . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٥ ديانات تيمور عربى .

٧٥ ـ مقدمة فى بيان أهل العقائد الزائفة المخالفة . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٤٢ عقائد تيمور عربى .

٧٦ ـ القول المختار لتنشيط الطائع وزجر الفجار . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٧٧٥ تاريخ تيمور عربى .

٧٧ ـ منهاج المتعلم . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٦٨ تعليم تيمور عربى .

٧٨ـ متن وأخلاق وسطى . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٦٩ تصوف حليم عربى .

٧٩ـ العقد الذهبى مختصر تذكرة القرطبى . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٨٣ تصوف حليم عربى .

٨٠ ـ القول المبين لدليل لبس الخرقة والتلقين . مخطوط بدار

الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٧٦٤ مخطوطات الزكية عربى .

٨١ ـ ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤١١ مجاميع عربى . موضوع تحقيقنا . وقد عثرت على نسخة واحدة من دار الكتب المصرية .

وسوف نوضح فيما بعد وصف المخطوط ، وحالته ، ونسبته للإمام الشعرانى .

منهجنا فى الدراسة والتحقيق

ينبغى أن نوضح فى البداية أنه ليس هناك إحصاء دقيق لمؤلفات الإمام الشعرانى ، لكن الكتب المنسوبة إليه والتى أفردت الفهارس المختلفة لها بعض صفحاتها تربو على ثلاثمائة وثلاثين كتاباً .

فقد أحصى « بروكلمان » كتبه فوجدها أكثر من ستين كتاباً ، وأما على مبارك فإنه يقرر أن مؤلفاته قد بلغت السبعين مؤلفاً ، وقيل : إنه خلف ثلاثمائة كتاب تناولت الطب ، والنحو ، والتفسير ، والفقه ، والتصوف ، وغيره .

من هنا أصبح الإمام الشعرانى عالماً فذاً فى مجالات متعددة من العلم والمعرفة جعلته سابقاً لعصره وأقرانه . بل إن شئت فقل يعد بحق موسوعة فى العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الحياتية . لذلك كان علامة مميزة لعصره حاز قصب السبق فكان إماماً عالماً عاملاً متحققاً سلوكاً وتطبيقاً .

وصف المخطوط :

المخطوط معنون فى صفحته الأولى بالعنوان الآتى :

« هذا الكتاب تأليف سيدنا ومولانا الشيخ الصالح العالم العلامة

الشيخ عبد الوهاب الشعراوى رحمه الله تعالى آمين » مع ملاحظة أن هذه الصفحة ليست مرقمة . فلم تأخذ مسلسلاً .

والسبب فى ذلك أن النظام المتبع هنا فى التسلسل هو نظام الورقة لا الصفحة . فالورقة مقسمة إلى قسمين أحدهما أيمن ، والآخر أيسر ، ولكنهما يأخذان فى الترقيم رقمين مسلسلين لا رقماً واحداً ، والورقة الأولى بالنسبة لهذا المخطوط تبدأ من الجانب الأيسر .

أما الجانب الأيمن من هذه الورقة فلا يوجد به شيء مكتوب إلا فى الوسط جهة اليسار مكتوب بخط الرقعة المنسق الجميل :

« دار الكتب والوثائق المصرية قسم التصوير ١٩٦٨ » .

ولعل السبب فى ذلك أن هذا المخطوط ، أو إن شئت فقل هذه الرسالة المخطوطة ضمن مجموعة رسائل . وأراد ناسخها أن يكون هناك فاصل بين هذه الرسالة والتى تسبقها من الرسائل المكتوبة . والدليل على صدق مانقول أن هذه الرسالة مدرجة ضمن الفهارس تحت رقم حفظ ٤١١ مجاميع عربى ، مصورة بالميكروفيلم ٥٣٤٣ ، رول ١٠٧٣ .

والعنوان بالورقة الأولى السالف الذكر يأخذ شكل المثلث قاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل . وذكر أن هذا الكتاب للشعراوى

ولم يقل الشعراني . وكلاهما واحد . فمن الممكن أن نقول الإمام عبد الوهاب الشعراني أو عبد الوهاب الشعراوي .

وهذا ما أوضحناه فيما تقدم عندما تحدثنا عن سيرة الإمام الشعراني أن والده أحمد هاجر بعد موت والده إلى ساقية أبي شعرة ، وهي قرية بالمنوفية تجاه النيل وإليها ينتسب الإمام الشعراني .

وهذا ما أورده الزركلي في : « الأعلام » .

وهذا العنوان أعلى الورقة الأولى حتى منتصف الورقة .

أما في منتصف الورقة جهة اليمين مكتوب :

« هذا ملك الموفق الشيخ محمد بدوي ابن الشيخ العلامة إبراهيم بدوي النحاس » آخذاً شكل المثلث قاعدته إلى أعلى ، ورأسه إلى أسفل .

وبجانب هذ العنوان كلام مطموس غير واضح على الإطلاق .

ولعل السبب في ذلك أن ناسخ المخطوط أراد ألا يظهره لنا .

أو بمعنى أدق أراد أن يلغيه بعد كتابته . وربما خطأ وقع فيه ناسخ المخطوط فأراد أن يطمسه حتى لايقع القارىء لهذا المخطوط أو الدارس له في نفس الخطأ الذي وقع فيه الناسخ .

ولاشك أن هذا أمر بديهي يعرفه القارىء المتمرس والدارس للمخطوطات .

والخط المكتوب به العنوانين السابقين عنوان المخطوط ، وحق التملك بالخط النسخ العادى باللون الأسود الغامق .

وفى منتصف الورقة إلى أسفل مكتوب بالخط النسخ العادى فى ثلاثة سطور مائلة الحكمة التالية :

« أنت فى غفلة وقلبك ساهى . ذهب العمر وانتهى . مضى الزمان وأنت فى اللذات . إلى متى وأنت فى الغفلة . كيف المنام فى الهيهات . والشيب أدركك والصبا قد فات » .

ولعل هذه الحكمة التى سجلها ناسخ المخطوط فى الورقة الأولى تنبيهاً لمن يقرأ هذه الرسالة قبل الدخول فى قراءتها . فهى بمثابة نصيحة يسدى بها لمن يطلع على هذه الرسالة لأن العمر أنفاس والواجب على المرء أن يقضى كل أنفاسه فى طاعة الله حاضراً حتى لايقع فى الغفلة بعيداً عن المعصية .

وكذلك مكتوب فى الثلث الأول من الورقة الأولى جهة اليسار الرقم ١١٣ هكذا .

أما عن الثلث الأخير من الورقة الأولى مكتوب عليه بخط الرقعة باللون الأسود الغامق : « مشترى ذو سيون حصر الأملاك

بالضبطية : ٢٣ يونية سنة ٨٣ نمرة ١٨٧٣٦ نمر ٤١١ مجاميع .

وفى أسفل الورقة فى المنتصف قبل نهايتها ختم غير واضح على شكل دائرة مسجل عليه بالخط الثلث : الكتبخانة الخديوية تصوف رقم ٢٨٧ .

أما عن نهاية الورقة الأولى فارغة حيث إن نهايتها الختم السالف الذكر .

والمخطوط عبارة عن ستة عشر ورقة . الورقة الأولى منه بدون ترقيم .أى أنها لاتأخذ رقما مسلسلاً لأننا كما ذكرنا من قبل أن هذا المخطوط ضمن مجاميع تحت رقم حفظ ٤١١ مجاميع عربى .

وهذه الورقة كما أسلفنا من قبل تبدأ من جهة اليسار .

أما عن الورقة الثانية من هذا المخطوط أو هذه الرسالة كما يسميها الإمام الشعرانى تأخذ رقمين مسلسلين هما (١ ، ٢) .

أى أن هذه الورقة تنقسم إلى صفحتين (الصفحة الأولى ، والصفحة الثانية) .

وباقى الأوراق ابتداء من الورقة الثالثة إلى الورقة السادسة عشرة تأخذ رقمين مسلسلين ينتهى فى الورقة السادسة عشرة برقم ٣١ جهة اليمين من الورقة الأخيرة .

وأما باقى الورقة الأخيرة مكتوب عليها جهة اليسار : رسالة لسيدى عبد الوهاب الشعرانى فى نتيجة العلوم . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

وهذا العنوان أعلى الصفحة الأخيرة فى المتصف مكتوب بالخط النسخ العادى باللون الأسود الغامق .

ومكتوب أيضاً فى منتصف الصفحة بخط الرقعة العادى باللون الأسود الغامق :

يامالك الملك كله لم أحد يدرك محلـه

إذا تعسر أمرى بخفى لطفك حلـه

أما بالنسبة للورق المسجل عليه المخطوط من النوع الخشن غير المصقول ولونه أبيض .

أما عن حجم الرسالة المخطوطة فتبدى الملاحظات التالية :

١) الطول ٢٧سم ، والعرض ١١,٥سم ، والسمك ٣,سم وعدد الكلمات الأفقية فى السطر الواحد تتراوح من تسع كلمات إلى اثنتى عشر كلمة . وعدد سطور الصفحة الواحدة ٢٣ سطراً .

مع ملاحظة أن العدد السابق من السطور مضروباً فى ٢ حيث إن الورقة تنقسم إلى شقين أحدهما أيمن والآخر أيسر .

ولكنها أخذت نمط الترقيم الحديث بالنسبة للكتب والمؤلفات جميعها فكانت كل ورقة من هذا المخطوط تأخذ رقمين لارقماً واحداً كماهو معهود فى المخطوطات القديمة .

٢) الخط المكتوب به المخطوط الخط العادى والحبر المستخدم أسود ، ومدون باليد بخطى النسخ والرقعة لكون ناسخ المخطوط يجمع بينهما فى كتابته . مع ملاحظة أن الناسخ يغفل الهمزة ويسقطها من كتابته .

٣) قام ناسخ المخطوط بترقيمه بخط النسخ العادى مستخدماً الحبر الأحمر الخفيف . أما بعض الكلمات التى أراد أن يظهرها فى ثنايا السطور سطرها بالحبر الأحمر الثقيل جداً لتمييزها . وكانت هذه الكلمات متداخلة ولم يقم بفصلها كفقرة جديدة .

٤) استخدم ناسخ المخطوط الياء على النبرة بدل الهمزة فى كتابته فى معظم أرجاء المخطوط . ولاشك أن هذه الطريقة تسود معظم المخطوطات جميعها عند نسخها . أو إن شئت فقل : هذه سمة مميزة لجميع أنواع المخطوطات المنسوخة . وهذا مارأيته فى معظم مخطوطات الإمام الشعرانى .

ونخلص من ذلك إلى أن هذه السمة تميز بها كل ناسخ عاش فى القرن العاشر الهجرى ومابعده .أى عصر الإمام

الشعرانى .

والمخطوط يتحدث عن : **« ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى »** .

أطلق عليه المؤلف هذا الاسم . وسماه مقالة ، وكذلك سماه رسالة . ولم يقسم هذه الرسالة إلى أبواب أوفصول .ولكن أشار ناسخ المخطوط إلى بعض العناوين المتداخلة مع المتن . ولم يستخدم هامشاً له . وهذا خلاف المعهود لدينا فى الهوامش فى الكتب والمؤلفات الحديثة .

ولعل السبب فى كون هذه المخطوط أو هذه الرسالة المخطوطة جاءت على هذا النسق ولم تقسم إلى أبواب أو فصول لصغر حجم هذه الرسالة وكون عدد أورقها لم تستوعب أبواباً ولافصولاً .

وكذلك لم يوضح ناسخ المخطوط فى صفحته الأولى تاريخ نسخه ، وكذلك الأمر بالنسبة لصفحته الأخيرة لم يوضح تاريخاً للنسخ ، ولم يوضح اسم ناسخ المخطوط . ولعل ناسخه أحد تلاميذ الإمام الشعرانى الذى سجله وراءه عندما كان يتحدث عن مدعى الولاية وتلقاه منه شفاهة .

كما تجدر الإشارة إلى أن ناسخ المخطوط يسقط منه نقط الياء ،

والتاء ، والجيم غالباً .

ولقد احتشد هذا المخطوط فى جملته بعدد كبير من المصطلحات الصوفية نوردهاعلى الترتيب التالى كما جاءت بالمخطوط من أول أوراقه إلى آخرها بين ثنايا السطور .

الحمد لله كانت بداية المخطوط بعد البسملة ، والفقر ، والتصوف ، والولاية ، والذكر ، والخلوة ، والأدب ، والمقام ، والملائكة ، والشريعة ، والحقيقة ، والطريقة ، والمعرفة ، والجوع ، والشيخ ، والمريد ، والمراد ، والبلاء ، و الإسلام ، و الكشف ، والإيمان ، والدعوى ، والذوق ، والسعادة ، والحضرة ، والتجلى ، والنَّفَس ، والنَّفْس ، والوقت ، والسر ، والقرب ، والدعوة ، والبصيرة ، والظاهر والباطن ، والمزاح ، والعزلة ، والنقيب ، والاستقامة ، والغيب ، والتوبة ، والوحى ، واليقين ، والحق والباطل ، والورع ، والبركة ، والتكبر ، والمنّة ، والزجر ، والقطب ، والدعاء ، والحال ، والغفلة ، والمثل ، والعبودية .

كانت هذه المصطلحات واردة بالمخطوط من أوله إلى منتهاه . ويدل عرض الإمام الشعرانى لهذه المصطلحات بهذا الأسلوب وهذا العمق على بصيرته المتقدة ، وثقافته الواسعة الشاملة . ومدى استفادته الغنية بالمعارف الصوفية كما بينا ذلك عند الحديث عن الكتب التى

قرأها فى التصوف وغيرها من العلوم الشرعية .

من هنا جاءت طريقتنا فى التحقيق والتعليق على النسخة الوحيدة الأصلية والموجودة تحت أيدينا . ورجعت فى هذا العمل إلى المصادر الأصلية المتعددة فى التصوف الإسلامى حول هذا الموضوع . واستعنت أيضاً بالمراجع الفرعية والحديثة التى تناولت هذا الجانب فى الحديث عن المصطلحات الصوفية . وعلقت على كل مارأيته بحاجة إلى مزيد من الإيضاح إتماماً للفائدة وحرصاً على إمداد القارىء بكل ماهو مفيد نافع حول هذا المخطوط الذى لم يتم طبعه ولم يزل بخط كاتبه وناسخه .

ـ بدأت الرسالة المخطوطة بالورقة الأولى مكتوب عليها : « هذا الكتاب تأليف سيدنا ومولانا الشيخ الصالح العالم العلامة الشيخ عبدالوهاب الشعراوى رحمه الله تعالى آمين » .

ـ بدأت الصفحة الثانية بالبسملة : وبدأ النص بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم وهو ثقتى وكفى ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والتسليم على أشرف المرسلين أجمعين وحسبى الله ونعم الوكيل .

وبعد فقد دعانى داعى الشفقة على طائفة من الفقراء فى هذا الزمان سموا أنفسهم بالصوفية وادعوا الولاية الكبرى .

- وينتهي المخطوط بقول ناسخه : « وقد وضعنا هذه الرسالة للتنفير عن طريق هؤلاء المغترين . فإذا حصل التنفير فلينظر في بقية رسائلنا الموضوعة لبيان الآداب المتعلقة بالخلق من الملوك والعلماء وأصحاب الحرف وغيرهم والحمد لله رب العالمين والصلاة والتسليم على أشرف مخلوقاتك وزين عبادك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين تمت » .

نسبة المخطوط إلى الإمام الشعرانى

بعد استعراضنا لحالة المخطوط كما أوضحنا فيما تقدم يبقى إذن أن نشير هنا إلى الأسباب التى جعلت من هذا المخطوط أن يكون منسوباً للإمام عبد الوهاب الشعرانى يمكن إجمالها فيما يلى :

أولا : أن المخطوط يبدأ فى الورقة الأولى بذكر مؤلفه أنه الإمام عبد الوهاب الشعرانى . ولاشك أن هذا هوالنظام المتبع فى كل المخطوطات المنسوخة للإمام الشعرانى .

فالناسخ ينهج نهج الناسخين للمخطوطات الأخرى فسجل اسم المؤلف على ورقته الأولى .

ثانيا : أن المتمرس فى قراءة كتب الإمام عبد الوهاب الشعرانى يوقن بلاشك أوارتياب أن مؤلفه هو الإمام الشعرانى نظراً لتمييز أسلوبه ، ووضوح خصائصه ، واستخدام تعبيرات ومصطلحات تشتمل عليها غالبية مؤلفاته .

وكذلك ذكره لشيخين من شيوخه خصهما بالذكر فى جميع مؤلفاته وهما : الشيخ على الخواص ، والشيخ على المرصفى ، فيذكرهما الشعرانى كثيراً بقوله : يقول شيخى على الخواص . ويقول

شيخى على المرصفى .

وفى عبارة أخرى يقول : سمعت شيخى عليًا الخواص ، أو سمعت شيخى عليًا المرصفى .

وفى عبارة ثالثة : يقول : سمعته مراراً للإشارة إلي كل واحد منهما . أي لشيخه على الخواص أو شيخه على المرصفى .

ثالثا : مما أكد أن المخطوط ينتسب للإمام الشعرانى أن ناسخه يقول : « هذا الكتاب تأليف سيدنا ومولانا الشيخ الصالح العالم العلامة الشيخ عبد الوهاب الشعراوى » .

رابعا : من الشواهد التى تؤكد نسبة المخطوط إلى الإمام الشعرانى أنه دأب فى مؤلفه هذا على الاستشهاد بأقوال أساتذته ومشايخه عندما كان يعرض لمسألة من المسائل فيقول : قال شيخى ويذكر اسمه . وكان شيخى يقول ويذكر اسمه .

وكذلك ذكره لبعض شيوخه الذين عاصرهم وتتلمذ على أيديهم وغيرهم من الشيوخ الذين ذكرهم أمثال : عبدالقادر الجيلانى ، وأحمد الرفاعى ، وعبد القادر الدشطوطى ، وعلى البرلس ، وأحمد البدوى ، وعبد الله البلتاجى ، وداود الأعزب ، وأبو السعود بن أبى العشائر .

وكذلك لذكره أساتذته الذين لقن عنهم العلم ، وسلك على

أيديهم الطريق ، ولبس الخرقة ، وأمر بالتربية والتعليم للمريدين ، وعاش معهم ، وتذوق مشاربهم ، وحضر مجالسهم ، ولقن عنهم الذكر ، وعرف أحوالهم ومقاماتهم .

خامساً : الواضح من أسلوب المخطوط أنه ينقل عن عصر الإمام الشعرانى (القرن العاشر الهجرى) ، ومن البيئة المصرية القاهرية التى عاش فيها ، وتوفى بها ، فضلاً عن ذكره بالتحديد للعلماء والأئمة والصالحين والأمراء ورجال الحكم الذين قابلهم ، وماتم بينه وبينهم من أحاديث ، وما وقع من الأولياء منهم من كرامات ، وما حدث لأرباب الحكم من وقائع وأحداث على يد أهل الله .

الإشارات المستخدمة فى التحقيق والدراسة :

١) استخدمنا الأرقام الحسابية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ......إلخ للتدليل على :

أ ـ الإشارة إلى الساقط من الكلمات أو الجمل فى المخطوط .

فنقول ساقطة فى الأصل .

ب ـ الإشارة إلى الكلمة المطموسة أو غير الواضحة فى النسخة المخطوطة .

ج ـ الإشارة إلى الكلمات الغريبة الواردة بالمخطوط والمختلفة مع السياق .

د ـ الإشارة إلى سقوط جملة بأكملها أو أكثر فى الأصل المنسوخ .

٢) استخدمنا القوسين عند إضافة كلمة أو جملة غير موجودة بالأصل حفظاً لسياق المعنى .

٣) استخدمنا الحروف الهجائية : أ ، ب ، جـ ، د ، هـ ، ... إلخ لتوضيح مايأتى :

أ ـ الآيات القرآنية ب ـ الأحاديث القدسية

جـ ـ الأحاديث النبوية .

٤) استخدمنا علامة (#) كى نوضح :

أ ـ شرح المصطلحات الصوفية الواردة بالمخطوط .

ب ـ ترجمة الأعلام الواردة بالمخطوط .

ـ وقد التزمنا بالنص المقروء فى تحقيق هذه الرسالة كلما أمكن ذلك .

ـ وكذلك قمنا بتخريج الآيات القرآنية والأحاديث الواردة بالمخطوط سواء كانت أحاديث قدسية أم أحاديث نبوية .

ـ احتشد المخطوط بعـدد كبير من مصطلحات الصـوفية تناولناها بالشرح والتحليل والتعليق عليها .

ـ قمنا بترجمة الأعلام الواردة بالمخطوط ترجمة كاملة وشاملة .

ـ احتـاج الأمر أن نتدخل فى بعض الأحـيان بزيادة كلمة يحـتاج السياق إليها ليستقـيم بها النص معنى ولغة فكنا نضع ذلك بين قوسين (...) ونشير إليها فى الهامش .

٥) استـخدمنا في فـهارس الكتـاب رقم الصفحـة المشار إليـها فهـرس الآية والحديث القـدسي والحديث النبـوي ، وكذلك فـهرس الشعر اللوارد بالمتن والحواشي ، وكذلك بقية الفهارس.

فكانت إشارتنا إلى الصفحة برقمـها إن كانت بالمتن فنقول مثلاً ص : ١١٧ .

وإذا أردنا أن نذكر نفس الصفحـة بالحاشية نقول ١١٧هـ. (هذا تمييز للصفحة بالمتن والحاشية)

منهج الإمام الشعرانى :

أولا : يبدأ الإمام الشعرانى رسالتـه بمنهج واضح سهل وميسور يحدثنا فـيه عن : « ردع الفقـراء عن دعوى الولاية الـكبرى » ولقـد أقـام فى رسـالتـه هذه حـواراً بين كـل من أراد أن يدعى الولاية بعدد من الاستـفهامات الاستنكارية موجهة إليهـم . ثم يقوم بالجواب عليها نفياً عليهم أن يكونوا من أصحاب الولاية لا إثباتاً لهم .

وكذلك أوضح أنه لا أساس ولا منهج ولا دعوة لكل من ادعى الولاية . لذلك ينبـهنا الشعـرانى قائلاً : « ينبـغى على كل من أراد أن ينصب نفـسه شـيخـاً أن يكون عـارفاً بأسـرار الطريق . وكذلك ملمـاً بجـميع الموارد والمصـادر فـحق الولاية عند الشعـرانى مـعرفـة العلوم اللدنية على الكشف والذوق لاعلى النقل والفهم .

ثانيا : يحذر الإمـام الشعرانى مـدعى المشيخـة ومدعى الولاية بالتعـرض لما أجمع عليـه العلماء . لذلك نراه فى هذه الرسـالة يسوق جملة من المواعظ والحكم لمن أراد التـصدر للولاية أو المشيخـة يحذره فيها من الابتداع والتقليد الأعمى وسلوك منهج الاتباع الذى هو منهج السلف الصالح .

من هنا جـاءت دعوته الإصلاحـية فى التـركيز حـول هذا المنهج

الذى عمدته الكتاب والسنة . وبعبارة أخرى يمكن القول : إن دعوة الإمام الشعرانى لأصحاب المنهج المخالف وهو منهج الابتداع بما ابتدعوه من مخالفات ومحدثات كانت واضحة لذلك نقول : الاتباع لا الابتداع .

ثالثا : استعرض الإمام الشعرانى فى رسالته هذه حواراً طويلاً بينه وبين مدعى الولاية يطالبهم فيه بل ويحذرهم أيضاً من هذا الادعاء الذى لا أساس له من الكتاب والسنة . وجاء هذا التحذير على صور متكررة بين ثنايا الرسالة من أولها إلى آخرها .

ولقد احتشدت هذه الرسالة من أولها إلى آخرها بفعل الأمر : (احذر) .

لذلك انصبت دعوته ووصاياه لكل من ادعى الولاية فى النقاط التالية :

١) الرجوع إلى الكتاب والسنة قولاً وعملاً وسلوكاً وتطبيقاً .

والأقتداء بالأكابر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

٢) يرى الإمام الشعرانى أنه لاينبغى التعمق فى علوم الصوفية إلاَّ لكل جواد فى العلوم . وهذه دعوة لمن ادعى الولاية حتى لايتعرض لطريق الصوفية بغير حق ويرجع إلى الفهم الصحيح من الكتاب والسنة ، ومعرفة العلوم الشرعية ، وقراءة كتب التفسير للقرآن الكريم

بإمعان ، ومعرفة التأويل وأسراره .

٣) التعرف على الأدلة التى استند عليها الأئمة المجتهدين سواء أكان ذلك فى الكتاب ، أو السنة ، أو القياس ، أو الإجماع .

٤) التعمق فى علوم الفقه ، والمعانى ، والبيان .

٥) معرفة ألفاظ الصوفية ومعانيها ومباشرتهم حتى يشرف على مقاصدهم .

٦) الإطلاع على ماقاله السلف والخلف فى معانى آيات الصفات وأخبارها .

٧) الإلتزام بماجاء في الكتاب والسنة وعدم مخالفته . أما الأمور المحدثة هى التى يجب مخالفتها لأنها خارجة عن السنة ، وعلى ذلك فالبدعة هى من الأمور الزائدة على الشريعة التى لم يأذن بها الله تعالى ، ومن هنا كان الإنكار على صاحبها واجب .

رابعا : يوضح الشعرانى فى رسالته العلاقة بين التابع والمتبوع فى مسألة مدعى الولاية أو المشيخة . وهنا يقول : « من رأى أحواله مستقيمة رأى أحوال غيره معوجة . ومن رأى أحواله معوجة رأى أحوال غيره مستقيمة . فمن تتلمذ لكل الخلق جعل نفسه تابعاً لامتبوعاً . ومن رأي أحواله مستقيمة تمشيخ علي الخلق وجعل نفسه متبوعاً لا تابعاً » .

لذلك جاءت دعوته إلى مخالفة النفس فيقول : « اعلم أن أعلى درجات الاستقامة شهود العبد العوج فى نفسه ، وأعلى درجات الاعوجاج شهود العبد الاستقامة فى نفسه » .

من هنا طالب أصحاب الإدعاء عدم ازدرائهم للخلق . لذلك ذكر أن من علامات الداعي إلى الله بصدق ألا يتغير عليه حال من الأحوال إذا انقلب تلميذه إلى شيخ آخر .

كما أورد فى رسالته أن تعظيم الخلق للعبد سم قاتل يؤدى به إلى الهلاك .

خامساً : ساق الشعرانى فى رسالته على لسان شيخه محذراً الذين يفضلون أنفسهم عن الخلق بأن الحمار أنفع منهم . والتحقيق هنا أن هذا لايليق بمقام أحد من البشر أن يفضل حيوان على إنسان مهما كان السبب .

ولست أدرى لماذا ذكر الإمام الشعرانى هذا القول ولعله أراد أنفع منهم فى نقل المتاع ومدى استفادة الناس به .

ولقد جاء فى هذه الرسالة نقلاً عن الإمام الشعرانى أنه ذكر عدداً من الشيوخ أمثال : عبد القادر الدشطوطى ، وعلى المرصفى ، وتاج الدين الذاكر أنهم فقراء قليلو الأدب . ولاشك أن هذا القول يتعارض كل المعارضة مع الإمام الشعرانى فى نقده لهؤلاء الشيوخ . فهم

شيوخه جميعاً وذكرهم فى معظم مؤلفاته بالتبجيل والاحترام . كما أننى أشك فى صحته . ومن المؤكد أن هذا اللفظ وقع سهواً من ناسخه وكان قصد الناسخ غيرذلك ، وأنهم مؤدبون بأدب الشريعة والحقيقة .

سادساً : ركز الإمام الشعرانى فى رسالته أن على المسلم الكامل فى هذا الزمان ـ أى زمن الإمام الشعرانى ـ أعز من الكبريت الأحمر . وأوضح صفات المسلم الكامل أن يكون سليم اللسان ، والسمع ، والبصر واليد ، والفرج ، والقلب مما حرم الله فى الظاهر والباطن . كما أوضح أن رتبة الولاية درجة عظيمة ، لاتنال إلا بالتحقق بمقامات الإسلام والإيمان ، والإحسان .

لذلك ينبهنا فى رسالته بأن ادعاء الولاية مستمر طوال الأيام والسنين إلى أن تقوم القيامة .

ويقرر أن درجة الإسلام عزيزة فى هذا الزمان لكثرة المنازعة فى بواطن المعتقدين لله تعالى فى صفات الكمال بما يستحق له من المدح ورفع المنزلة على الخلق .

كما قرر أن الإسلام هو الاستسلام والإقبال لله تعالى ظاهراً وباطناً وألا يكون عنده منازعة فى شىء من الكمالات وأن يسلم اعتقاده وإيمانه من الشكوك والأوهام المضلة عن طريق الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين .

ويذهب الشعرانى فى رسالته قائلاً : « ما أنفع مايشتغل به العبد من العلوم الكونية ما كان متعلقاً بالأدب مع الله تعالى ومع خلقه وماعدا ذلك فهو اشتغال بما لا يعنى . وجمع ذلك كله أن يشهد العبد نفسه غارقاً فى كل وصف مذموم عارياً عن كل وصف محمود .

ومن شهد هذا المشهد فقد أعطى كل ذى حق حقه وميز وصفه من وصف سيده ودخل حضرة النعيم المقيم أبد الآبدين . فهذه طريقة نفيسة سهلة .

من هنا يقرر أن الخلق لايعلمون منك إلا ظاهرك والمدار على السرائر لاعلى الظواهر . لذلك يؤكد أنه لايجب على أحد أن يقلد آخر فى عمله تقليداً أعمى كما أوضحنا من قبل .

سابعا : يحذر الإمام الشعرانى الذاكر فى ذكره لله تعالى من قصده التنزيه فإنه سبحانه وتعالى له الكمال المطلق . وهو فى ذلك متأثر بالبسطامى فى ذكره . كما ينبه بعدم المداومة على الذكر فى أوقات مخصوصة . ومن الواجب على المرء أن ينوع فى ذكره حتى لاتصيبه الغفلة .

والمراد بذكر الله تعالى كثيراً حسبما يرى الإمام الشعرانى أن يتوالى على العبد شهوده أن الله تعالى ناظر إليه وأنه فى حضرته . ولاشك أن هذه مرتبة الإحسان التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

فالإحسان هو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة ، أى رؤية الحق موصوفاً بصفاته بعين صفته ، فهو يراه يقيناً ولايراه حقيقة . ولهذا قال : « كأنك تراه » .

ثامناً : أوضح الشعرانى فى رسالته الرابطة القوية بين الشيخ والمريد . فالمريد يتأدب بأدب الشيخ . فالشيخ هو الذى سلك طريق الحق وعرف المخاوف والمهالك فيرشد المريد ويشير إليه بما ينفعه ومايقره .

تاسعاً : يدعو الشعرانى فى رسالته إلى زيارة الإخوان . ولقد أفرد رسالة خاصة بعنوان : « حقوق إخوة الإسلام » .

عاشراً : يدعو الشعرانى فى رسالته إلى الحرفة والامتهان لكسب الحلال . ويجب على الإنسان ألا يتقاعس عن العمل . لذلك ينبه على الإنسان أن يكون صاحب عمل . وهذا المسلك كان مسلك النبى صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته . وكذلك كان مسلك الصوفية السنيين .

من هنا ذكر فى رسالته عددا من أصحاب الحرف مثل الفلاحين والطباخين ، والتراسين ، وغيرهم من أصحاب الحرف ، ولاشك أن هذه دعوة إلى العمل يدعونا فيها الإمام الشعرانى للحرفة والتكسب .

كما يوضح الإمام الشعرانى فى رسالته المنهج التربوى والعملى عند الصوفية .

حادى عشر : استخدم الإمام الشعرانى فى رسالته كلمة : « دركات » فى عبارة « دركات المنازعة » ، وهى جمع دركة . كما استخدم كلمة « دركتين » فى الإشارة إلى اثنتين .

ثانى عشر : سطر الشعرانى جزءاً من رسالته هذه فى بعض مؤلفاته نذكر منها : الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ، والطبقات الكبرى . وكذلك توجد عبارات مكررة فى معظم مؤلفاته . وهذا يدل دلالة قوية على أن هذه الرسالة ضمن مؤلفات الإمام الشعرانى .

ثالث عشر : الرسالة المخطوطة تبدأ كل فقرة من فقراتها بالفعل الماضى : قال . وهذا يدل على أن ناسخ الرسالة كان يروى عن شيخه الإمام الشعرانى . لذلك نرجح أن الناسخ هو تلميذ الإمام الشعرانى وأحد مريديه الملتصقين به . كما نرجح أيضاً أن هذا المخطوط أو هذه الرسالة المخطوطة نسخت فى عصر الإمام الشعرانى .

رابع عشر : ساق الإمام الشعرانى فى رسالته عدداً من الأسئلة وكل هذه الاسئلة توضح معنى القرب عند هؤلاء المدعيين للولاية .

وقام الإمام الشعرانى بالجواب عليها بقوله : قال لهم الحق . ولعله قصد بكلمة الحق هنا . أى الحق المنطوق به الذى يدحض دعواهم فى الولاية الباطلة المزعومة .

خامس عشر : هذه الرسالة ينهج فيها الشعرانى نهجه فى مؤلفه : « تنبيه المغترين » وغيرها من المؤلفات الأخرى .

سادس عشر : حفلت هذه الرسالة بعدد كبير من مصطلحات الصوفية ورموزهم التى يستخدمونها . كما اشتملت على عدد من الأمثال والحكم التى تطالب أصحابها بعلو الهمة والترفع عن الناس .

ولقد أورد الشعرانى بعض الكلمات التى يستخدمها العامة من البشر مثل قوله : « الشحات » وهذا رمز للذى يأخذ الصدقات .

ويذكر الشعرانى فى رسالته : « وقال » : ويقصد بذلك شيخه على الخواص، أو شيخه على المرصفى . وهذا غالب عليه فى جميع مؤلفاته .

كما ذكر فى رسالته : مؤلفاً له أسماه :

« تنبيه الأغبياء على قطرة من بحور علوم الأولياء » أنه اشتمل على عشرة آلاف علم كل علم منها لايدرك له قرار .

وهذا مايذكرنا بمؤلفه : « **الأجوبة المرضية عن أئمة**

الفقهاء والصوفية » فلقد أورد فيها علوماً كثيرة ، والغالب عليها أنها علوم ذوقية . كما أوضح أن هذه العلوم غريبة على غير الصوفية لكونها علوماً وهبية لدنية .

سابع عشر : غلب على هذا المخطوط الجانب الاسترسالى فى الحديث وتميز بالأسلوب السهل الواضح . وكان الإمام الشعرانى يتحدث ويقوم أحد مريديه بالتسجيل وراءه . وكان ناسخ هذه الرسالة يقوم بكتابة السطور والفقرات متداخلة مع بعضها البعض فليس هناك فاصلٌ بين الكلمات والجمل كما هو ملاحظ فى الكتب الحديثة . لذلك سقط بعض الكلمات والجمل التى تدخلنا فيها للمحافظة على السياق والمعنى .

كما سقطت بعض أسماء الأولياء الذين لقبهم شيوخه .

وكذلك وجدت بعض الكلمات المطموسة كانت إشارتنا إليها بحالتها التى وجدت فيها بهامش صفحتها . كما وجدت بعض الكلمات غير واضحة والبعض الآخر بها خطأ إملائى قمنا بتصحيحها وإعادة صوابها .

ولقد جاءت بعض الآيات القرآنية بجزء من الآية قمنا بإكمالها .

وكتابة بعض الكلمات مثل : « قوله تعالى » لأن ناسخ الرسالة أغفلها ولم يكتبها .

كما ذكر الشعرانى فى رسالته عدداً من الأعلام جاءوا على الترتيب التالى : عبد القادر الجيلى ، وأحمد الرفاعى ، وعبد القادر الدشطوطى ، وعلى المرصفى ، وتاج الدين الذاكر ، وعلى البرلسى ، وأحمد البدوى ، وعبدالله البلتاجى ، وداود الأعزب ، وأبوالسعود ابن أبى العشائر . وكل هؤلاء لقبهم شيوخه ، منهم من تتلمذ عليهم ومنهم من أخذ عنهم ، وذكر هؤلاء الشيوخ فى:« طبقاته الكبرى» .

ثامن عشر: يقيم الإمام الشعرانى فى رسالته حواراً بين كلب السوق وكلب الصيد بيَّن فيه شرف كلب الصيد عن كلب السوق فى تعففه عن الناس .

وهذا رمز ساقه الشعرانى ليبين لك أيها المدعى كيف تتعفف عن الناس وعما فى أيديهم مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » .

اختتم الشعرانى رسالته بقوله : « هؤلاء المغترين ولم يقل هؤلاء المدعين على الرغم من أن الرسالة من أولها إلى آخرها تقول : هؤلاء المدعين . ولاشك أنه ذكر كلمة : « المغترين » فى مؤلفه :

« تنبيه المغترين » .

كما اختتم الرسالة بقوله : « وقدوضعنا هذه الرسالة . وهذا يدل على أنها رسالة وليست كتاباً كما أوضحنا ذلك فيما تقدم .

يتميز الإمام الشعرانى بأن معظم دراساته تقع فى التصوف الإسلامى وكذلك دراسات التفسير والفقه والتوحيد والحديث والنحو والطب . وهذا ما أوضحناه عندما تحدثنا عن مؤلفاته .

ينبهنا المؤلف فى ختام رسالته على العمل بالكتاب والسنة ومادرج عليه جماعة الأئمة من الزهد فى الدنيا والرغبة فى العقبى والإقبال على المقصد الأسنى ودوام الحضور مع المولى فى الحياة الدنيا والآخرة .

ولقد أوضحت هذه الدراسة أن الإمام الشعرانى عالم حر فى نطاق الشريعة السمحاء ، متزن العقل ، لايجمح مع هواه ، ولا يتعصب لمسلكه ، ولالرأيه .

ولقد أوضح الشعرانى مايرمى إليه من معانى ، ومايريد كشفه من مواقف ، وقد استطاع أن يعرض ما أراد من ذلك فى براعة وبعد عن التكلف عندما تمسك بحقيقة الشريعة .

ولقد استطاع بعرضه لرسالته فى صورة منظمة مترابطة متكاملة

مع بيان الفكرة الشاملة التى جعل منها موضوعاً واحداً للحديث عن :

« ردع الفقراء فى دعوى الولاية الكبرى » .

متنهجاً فى سبيل ذلك منهجاً علمياً منظماً ، لايقل عما هو متبع فى الدراسات الإنسانية المعاصرة بصفة عامة ، والفلسفية منها بصفة خاصة .

وفى الصفحات القادمة نستعرض معاً هذه الرسالة التى أودعها لنا الإمام الشعرانى بعنوان : « **ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى** » .

تناولناها بالتقديم الذى قدمناه ، والتحقيق والتعليق على نصوص هذه الرسالة .

والشرح الكامل المفسر لاصطلاحات الصوفية ورموزهم التى حشدت بها هذه الرسالة .

القسم الثانى

النص المحقق

(ردع الفقرا عن دعوى الولاية الكبرى)

بسم الله الرحمن الرحيم وهو ثقتى وكفى

الحمد لله (*) رب العالمين والصلاة والتسليم على أشرف المرسلين أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(*) **الحمد لله :** الحمد فى اللغة : هو الوصف الجميل على قصد التعظيم والتبجيل ، سواء تعلق بالفضائل ، وهى الأوصاف اللازمة ، أو بالفواضل ، وهى الأوصاف المتعدية والأفعال السنية ، واعلم أن حقيقة الحمد هو الثناء على المحمود بذكر نعوته الجليلة ، وأفعاله الجميلة ، واللام ، هنا تفيد الاستغراق للجنس كله ، وعليه فجميع المحامد لله سبحانه وتعالى . إما وصفاً وإما خلقاً .

الحمد لله تقدس فى أزليته وأبديته وأحديته عن النظير والشبيه ، وتنزه فى جماله وجلاله وكماله عن مقالات أهل التمويه ، الغنى عن جميع خلقه ، فلا آن يحصره ، ولا أحد ينصره ، ولا ضياء يظهره ، ولا حجاب يخفيه ، الواحد الأحد ، القدوس الصمد ، الذى لا شك فيه ، شهدت بكمال قدرته عجائب صنعته ، فكل ما سواه موجده ومدبره ومنميه ، الحى العليم القدير السميع البصير الملك الكبير ، فلا مقرب لمن يبعده ، ولا مبعد لمن يدنيه ، المتكلم بكلام أزلي ، ومن عطل أو شبه فقد وقع فى التيه ، حبب للمؤمنين إثبات صفات الكمال والعجز عن إدراك الجلال فهذا القدر يكفيه ، ومن رام الوقوف على غاية أو ظن المعرفة لها نهاية فقد تعدى طوره .

والحمد هو الثناء على الله تعالى بما يليق بجماله وجلاله . ولذلك شرع للعبد أن يقول فى سجوده :« **سبحان ربى الأعلى وبحمده** ».

والله سبحانه وتعالى هو المستحق للحمد حقيقة وكل من يحمده ويثنى عليه من الخلق فهو يرجع إلى أن الله تعالى هو =

= المحمود حقيقة لأنه الخالق للعبد وفعله.

والحمد لله المستحمد لعباده ، بلا فاقة إليهم ولا حاجة، وكل مستحمد سواه فالفاقة إلى من استحمد إليه ، فالله هو الغنى الحميد ، لا يستحق هذا الوصف غيره ، ولا يستحق ثناءً سواه.

والله سبحانه وتعالى هو الحميد بحمده لنفسه أزلا وبحمده عباده له أبداً ، ويرجع هذا الوصف إلى صفات الجلال والعلو والكمال منسوباً إلى ذكر الذاكرين له فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو الكمال .

والحميد الذى يحمد فعله لأنه لا يخلو من حكمة . فالحق سبحانه وتعالى علم عجز الخلق عن حمده فحمد نفسه بنفسه فى أزله . فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده . فقال: الحمد لله رب العالمين . أى الحمد الذى حمد نفسه بنفسه هو له لا ينبغى أن يكون لغيره .

والحمد لله المتفرد بجمال جبروته ، وجلال ملكوته ، له الآلاء والنعم ، وله الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

والحمد لله رب العالمين ، إله العالمين ، الموجود المعبود ، الذى لا إله غيره ، تنزه عن مشابهة الحوادث ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. لا آلاء إلا آلاؤه ، ولا نعماء إلا نعماؤه ، له الأسماء الحسنى والنور الأبهى والصفات العلية .

(القشيرى : شرح أسماء الله الحسنى ، ص : ٢١-٢٢).

فمقام الحمد أعلى المقامات ولهذا كان لواء محمد صلى الله عليه وآله وسلم لواء الحمد ، لأنه أثنى على ذاته سبحانه وتعالى بما تستحقه المكانة الإلهية وظهرت فى المراتب الحقية والمراتب الخلقية كما هو عليه =

= الوجود ، واختص اسم الله بالحمد ، لأن الألوهية هى الشاملة لجميع معاني الوجود ، ومراتبه ، واسم الله هوالمعطى لكل ذى حق من حقائق الوجود حقه ، وليس هذا المعنى لغير هذا الاسم فاختص هذا الاسم بالحمد . (الجيلى: الإنسان الكامل ، ج١ ص: ١٣١).

الحمد لله المنفرد بكبريائه وعظمته ، المتوحد بتعاليه وصمديته ، ولم يجعل السبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، وقصر ألسنة الفصحاء عن الثناء على جمال حضرته ، إلا بما أثنى به على نفسه ، وأحصى من اسمه وصفته . (الغزالى ، أبو حامد : المقصد الأسنى ، ص ٥).

الحمد الله ذى الجلال والإكرام لا إله إلا هو ، لا يُعلم ماهو ، ولا كيف هو ، ولا أين هو ، ولا حيث هو إلا هو ، ذى الملك والملكوت ، ذى العزة والجبروت ، التواب الوهاب ، مسبب الأسباب وفاتح الأبواب ، من إذا دعى أجاب . من لا تحويه الفكر ، ولا يدركه البصر ، ولا يخفى عليه أثر، رازق البشر ، ومقدر كل قدر ، ولمن عصى غفر .(أبو العزائم ، محمد ماضى : محكمة الصلح الكبرى ، القاهرة : دار الكتاب الصوفى ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، ص: ٣).

الحمد لله الواحد فلا يجحد ، الأحد الذى فى سرمديته توحد ، الفرد الذى في ربوبيته تفرد ، الشكور الذى لا يشكر غيره ولا يحمد ، الغفور الذى يغفر الذنوب لمن يتوب ولا يتردد ، الملك الذى أفنى الممالك والملوك وملكه سرمدى، العلى الذى يصعد إليه الكلم الطيب .

(وال) فى الحمد للاستغراق ، ليتناول كل أفراد الحمد المحققة والمقدرة.

وقيل : للجنس ومعناه : أن الحمد الكامل ثابت لله ، وهذا يقتضى =

= ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جماله ، أما من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق.

(محمد خليل هراس: شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية . القاهرة : دار الاعتصام ، الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ ، ص : ٧ـ ٨).

والحمد هو الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، والشكر هو الثناء على الله تعالى بما يكون منه من النعم .(المحاسبي : المسائل في الزهد ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، القاهرة : دار التراث الإسلامي ، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، ص : ٣٥) .

فله الحمد ، لظهور سلطانه ، وله الشكر لوفور إحسانه ، والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله ، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز إفضاله .

فحمدُه سبحانه له هو من صفات كماله ، وحمد الخلق له على إنعامه وطوله وجلاله وجماله واستحقاقه لصفات العلو ، واستجابة لنعوت العز والسمو.

(المحاسبي : البعث والنشور ، تحقيق محمد عيسى رضوان . بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م. ص: ٦).

فالحمد لله الذي يملأ المخلوقات ماوجد منها ويوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته . ومستحق للحمد كله فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولاخالق ولا حي ، وله الحمد كله واجب لذاته فلا يكون إلا محموداً كما لا يكون إلا إلهاً ورباً وقادراً .(ابن قيم الجوزية : طريق الهجرتين ، ص : ١٠٥) .

وقد قيل : الحمد كله لله ، فهذا له معنيان : =

= **أحدهما :** أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمده به المحمود التام . وإن كان بعض خلقه يحمده أيضا ـ كما يحمده رسله وأنبياؤه وأتباعهم ـ فذلك من حمده تبارك وتعالى ، بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات ، وما قالوه من الحمد فإنما قالوه بحمده فهو المحمود أولا وآخراً وظاهراً وباطناً ، كما أنه بكل شيء عليم .

المعنى الثاني : أن يقول : « لك الحمد كله » . أي الحمد التام الكامل ، فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة . والتحقيق أنه له الحمد بالمعنيين جميعاً ، فله عموم الحمد وكماله ، وهذا من خصائصه سبحانه وتعالى ، فهو المحمود على كل حال ، وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه ، كما أن له الملك التام العام فلا يملك كل شيء إلا هو وليس الملك التام الكامل إلا له.

فالحق سبحانه وتعالى له الملك وله الحمد . والمقصود أن الملك والحمد في حقه متلازمان ، لكل ما شمله ملكه وقدرته شمل حمده وحكمته ، فهو محمود في ملكه وله الملك والقدرة مع حمده . فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه يستحيل خروجها عن حمده وحكمته ، ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره ، لينبه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده ، فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية ، وحمد ثناء ومدح ، ويجمعها التبارك ، فتبارك الله يشمل ذلك كله ، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقب قوله تعالى ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ « سورة الأعراف : الآية : ٥٤ ».

فإثبات الحمد له سبحانه ، فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله ، ونعوت جلاله ، مع محبته والرضا عنه ، والخضوع له . فلا =

وبعد .. فقد دعانى داعى الشفقة على طائفة من الفقراء(*)

= يكون حامدا من جحد صفات المحمود ، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له . ولما كانت صفات المحمود أكثر كان حمده أكمل .

ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه ، لكمال صفاته وكثرتها . ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه ، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التى لا يحصيها سواه.

(*) **الفَــقْــر :** فقر وافتقر: ضد استغنى ، وافتقر إليه : احتاج فهو فقير ، والجمع فقراء . وأفقره ضد أغناه ، والفقر ضد الغنى.

(محمد إسماعيل إبراهيم ، قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ، ص: ٢٩٣).

فالفقر هنا هو الافتقار إلى الله تعالى ، كما جاء فى قول الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

« سورة فاطر: الآية : ١٥» .

لقد بين الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتى لهم لا ينفك عنهم ، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتى له ، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه ، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل هو ذاتى للفقير .

فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة ، كما أن غنى الله سبحانه لذاته لا أمر أوجب غناه.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

والفقر لى وصف ذات لازم أبداً ● كما الغنى أبداً وصف له ذاتى =

= فالفقر المطلق من كل وجه ثابت للبشر جميعاً ولذواتهم وحقائقهم من حيث هى ، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هى ، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً ، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه وتعالى إلا غنياً ، كما يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً.

(ابن قيم الجوزية:طريق الهجتين وباب السعادتين. راجعه محب الدين الخطيب. القاهرة : المكتبة السلفية ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص : ٨) . فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

ولهذا كان من دعاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، اكلأنى كلاءة الوليد، ولا تكلنى إلى أحد من خلقك ».

هذا هو حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان دائم الافتقار إلى مولاه من هنا تتضح حقيقة الفقر وهو توجه العبد بجميع أحواله إلى الله .

والفقر عند الصوفية معناه الحاجة ، والحاجة إلى الله تعالى على الحقيقة . (ابن مفلح المقدسى الحنبلى ، شمس الدين أبو عبد الله : الآداب الشرعية والمنح المرعية. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة ، سنة١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ، ص : ٢٣) .

كما أن الفقر عندهم شعار الأولياء، وليس الفقر معناه ألا يملك المريد شيئاً ، وإنما الفقر ألا يملكه شيء ، فيعيش الصوفى فى عز وهو فى فقر ، حيث لا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً ، ولا يشكو ولا يظهر أثر الفاقة، وإنما يظهر الغنى فى غير تصنع .. =

....

= هذا هو مقام الفقر الحق الذى أسس الصوفية قواعده وأهابوا بالمسلمين أن يتمسكوا بعروته .

فالفقر عندهم هو تجرد القلب عن المظاهر الكونية، وانشغاله بالله سبحانه وتعالى وحده ، وتخلى القلب عن الأملاك لأنها شواغل وقواطع لكل عبد يسكن إليها بقلبه ، ويتعلق بها ، ويفكر فيها كل وقته أو أكثره .

(الشعرانى : لطائف المنن والأخلاق ، تحقيق عبد الحليم محمود . القاهرة : عالم الفكر ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ، ص : ١٢٢) .

وهذا كله هو معنى قول الإمام الجنيد ﷺ : « ليكن بدنك حيًا عند طاعة الله تعالى ، وميتاً عند معصية الله جلّ وعلا » .

وعلامة صحة الفقر هو التجرد عن الأملاك بمعنى ألا يتغير حال الفقير بوجود الأسباب وعدمها ، لا فى القوة ولا فى الضعف ، ولا فى السكون ، ولا فى الانزعاج ، ولا تؤثر فيه المهالك ، لا يهزه وجودها ولا يستنفره عدمها ، فإن ملك كأن لم يملك . (المحاسبى: الوصايا ، تحقيق عبد القادر عطا ، القاهرة : مطبعة صبيح ، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، ص: ٥٨ ـ ٥٩).

وقد قيل: الفقر هو وقوف الحاجة على القلب ومحوها من كل أحد سوى الرب

ومما يحكى عن الإمام علىّ رضي الله تعالى عنه أنه رأى فقيراً يمشى فى سوق البصرة وهو يتبختر فى مشيه ، فقال له الإمام على رضي الله تعالى عنه : من أنت ؟ فقال فقير . فقال له الإمام : ماعلامة الفقر ؟ فقال منك يؤخذ العلم يا أبا الحسن. فقال الإمام على ﷺ للفقير اثنتا عشر علامة :

الأولى : أن يكون عارفاً بالله .

=

والثانية : أن يكون مراعياً لأوامر الله.

والثالثة : أن يكون متمسكا بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

والرابعة : أن يكون دائماً على طهارة .

والخامسة : أن يكون راضياً عن الله تعالى فى كل حال .

والسادسة : أن يكون موقناً بما عند الله تعالى .

والسابعة : أن يكون آيساً مما فى أيدى الناس .

والثامنة : أن يكون متحملاً للأذى .

والتاسعة : أن يكون مبادراً لأمر الله تعالى .

والعاشرة : أن يكون شفوقاً على الناس .

والحادية عشرة : أن يكون متواضعاً للناس .

والثانية عشرة : أن يعلم أن الشيطان عدو له .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾

« سورة فاطر : الآية : ٦).

لذلك قيل : العبادة الحقة هى ما تحقق فيها الافتقار المطلق من جانب العبد والغنى المطلق من جانب الحق ، والله وحده هو الغنى المفتقر إليه ، بل إن الافتقار إلى الأسباب افتقار فى الحقيقة إلى الله وحده .

ولهذا يقول ابن عربى فى شرح الآية : ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ « سورة فاطر : الآية : ١٥ ». الفقراء هم الذين يفتقرون إلى كل شيء من حيث أن ذلك الشيء هو مسمى الله فإن الحقيقة تأبى أن تفتقر إلى غير الله .

= وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الناس فقراء إليه على الإطلاق ، والفقر حاصل منهم ، فعلمنا أن الحق قد ظهر في كل ما نفتقر إليه .

وتتضح عبقرية الإمام الجنيد في كونه أول من فلسف معنى الفقر ، لا بمعنى العدم في ملكية الشيء، بل بمعنى الافتقار الذي هو عنده (تمام الغنى).

وقد سئل : أيهما أتمّ : الاستغناء بالله ، أم الافتقار إلى الله عز وجل ؟

فأجاب : الافتقار إلى الله عز وجل موجب للغنى بالله عز وجل ، فإذا صح الافتقار إلى الله عز وجل كمل الغنى بالله تعالى ، فلا يقال أيهما أتم ، فلا تمام لأحدهما إلا بتمام الآخر ، ومن صحح الافتقار صحح الاستغناء .

ومن هنا يتضح لنا المعنى الحقيقي للفقر عند الإمام الجنيد الذي يدل على بعد نظره ، ودقة كلامه ، وعمق فكره ، وساحة ذوقه ، عندما أوضح مصطلحي : « الغنى» و « الفقر » فهما عنده متلازمان ، فالفقر التام إلى الله غنى تام عن الخلق وحرية تامة أيضاً .

وبعبارة أخرى يمكن أن يقال : الفقر الكامل عبودية كاملة للحق وغنى به .

(محمد مصطفى : دراسات عن الجنيد البغدادي ، ص : ٢٠٩).

هذا هو الفقير المجرد عن العلائق ، المعرض عن العوائق ، لم يبق له قبلة ولامقصد إلا الله تعالى . وقد أعرض عن كل شيء سواه . وتحقق بحقيقة : « لا إله إلا الله » . (عبد الحليم محمود : أبومدين الغوث ، ص : ١٠٠) .

لذلك كان الفقر سر الله عند العبد فإذا كتمه كان أميناً وإذا أظهره سقط عنه اسم الفقر.(أبو العلا عفيفي: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ، ص :٢٢).=

كما قيل الفقير الصادق من أثر وقته ، فإن كان فيه تطلع إلى وقت ثان لم يستحق اسم الفقر . وهو الذى يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغنى ، ويستوحش من الغنى كما يستوحش الجاهل من الفقر ، وهو الذى يأخذ الشيء من جهته ويختار القليل على الكثير عند الحاجة .

ومن هنا كان للفقراء أخلاق اختصوا بها تتمثل فى السكون عند الفقر ، والاضطراب عند الوجود، والأنس بالهموم ، والوحشة عند الأفراح ، فحب الفقر شديد لا يصبر عليه إلا صديق .

لذلك قيل : من طلب الفقر استقبله الغنى ، ومن طلب الغنى استقبله الفقر ، والغنى هو الغنى بالله . (ابن عجيبة: إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص ٣١٠).

ولقد قيل فى توضيح خفايا الفقر لدقته وغموضه على أغلب الأذهان : لابد أن يخرج الفقير عن فقره بانتفاء شهود فقره ، فاعتقاده فى نفسه أنه فقير يخرجه عن شهود الفقر ، والفقير ليس وحشى الطباع ، فلابد أن يصفو قلبه لكل إنسان ويسلم صدره من كل دنس ، وتسمح نفسه بالبذل والإيثار .

(المحاسبى : الوصايا ، هامش ص : ٥٨ ـ ٥٩).

وسئل رويم عن الفقر فقال : إرسال النفس فى أحكام الله تعالى .

وكان أبو مدين المغربى يقول : حقيقة الفقر أن لا تشاهد سواه .

(الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ١٣٤).

والفقير حسبما يرى الإمام الجنيد هوالذى لا يسأل أحداً ولا يعارض وإن عورض سكت .

....

= والسؤال الآن : هل هناك علاقة بين الفقر والتصوف ؟

والجواب: الفقر أساس من أسس التصوف ؛إذ لايمكن أن يكون الصوفي صوفياً إلا بعد أن يتحقق بالفقر . فالفقر من هذه الناحية طريق من طرق الوصول إلى التصوف ، كما أنه لا يلزم من وجود الفقر وجود التصوف ، ولا أن يكون كل متحقق بالفقر صوفيا ، ولكن لابد لكل صوفى أن يكون متحققاً بالفقر.

ونتساءل أيضاً : هل هناك علاقة بين الزهد والتصوف ؟

والجواب : التصوف معنى جامع ، إذ التصوف غير الفقر وغير الزهد . ولتوضيح ذلك نقول : إن التصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد ، ولكن بزيادة أوصاف وإضافات بدونها لا يكون الصوفى صوفياً ، ولو كان زاهداً أو فقيراً .

فإذا ماتأملنا ما عرف به الجريرى التصوف وهو قوله : « التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى » .

من هنا يتبين أن التصوف هو حصول الأخلاق وتبديلها ، وأنه بهذا يكون فى مرتبة فوق مرتبة الزهد ومرتبةالفقر .

ويؤيد هذا ماقيل : من أن نهاية الفقر مع شرفه هى بداية التصوف .

وإذا ما تأملنا أيضاً ما عرف به الجنيد التصوف وهو قوله : « التصوف هو أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به » تبينا أن أخص خصائص المتحقق بالتصوف هو أن يفنى عن نفسه ، ويبقى بربه ، بحيث لا يكون قائماً فى الأشياء ولا مريداً لها أو منصرفاً عنها بإرادته هو ، بل يكون كذلك بإرادة الله. وهذا مخالف لما عليه كل من الفقير والزاهد . =

= فالفقير والزاهد إنما يقومان فى الأشياء بنفسيهما ، ويريدان لها ، أو ينصرفان عنها بإرادتهما ، ويأخذان نفسيهما بالفقر والزهد ، ويصدران عن دوافع نفسية تدفعهما إلى الفقر أو الزهد ، فى حين أن الصوفى فَانٍ عن نفسه مسقط لإرادته وتدبيره ، لا يعنيه مراد نفسه بقدر ما يعنيه مراد ربّه . ولا يصدر فى أحواله وأفعاله عن إرادته الفردية بقدر ما يصدر عن مقتضيات المشيئة الإلهية .

وهذا ما بينه السهروردى إذ عرف الصوفى بأنه من كان دائم التصفية للقلب عن شوب النفس مستعيناً على هذه التصفية بدوام افتقاره إلى الله تعالى فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه .

ومن هنا نتبين أن التصوف أرقى من الفقر والزهد ، وإن كان متطويا عليهما ، ومستنداً إليهما . ونتبين أيضاً أن الفقر والزهد بمثابة المدخل إلى أبواب التصوف أو التمهيد الذى يمهد النفس الإنسانية للتحقق بالأحوال الروحية المشرقة ، والنفحات القلبية الصادقة التى هى قوام التصوف ، وسبيل الصوفى إلى كشف الحقيقة .

(محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص: ١٠٢ ـ ١٠٣) .

لذلك كان التصوف مبنياً على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار .

(أبو العلا عفيفى : التصوف ، الثورة الروحية فى الإسلام ، ص : ٤٨)

فالفرق بين الفقر والافتقار أن الفقر هو الحال التى يكون عليها الفقير ، وهو حال يعدم فيها ما يملكه غيره ، والافتقار هو الحال التى يشعر فيها باحتياجه إلى ربه واعتماده عليه . =

= ومعنى ترك التعرض والاختيار : عدم الوقوف فى طريق الإرادة الإلهية ، وعدم نسبة الاختيار إلى الإنسان .

ومن هنا تساوى عند الفقراء الصادقين الذهب والتراب فى عدم ميل القلب إليه من غير ترجيح الذهب عليه ، لأنهم لا ملك لهم مع الله تعالى . فهم يأكلون ويلبسون من مال سيدهم ويسكنون فى ملكه فى الدارين .

والفقر هو الانشغال بالله تعالى ، لا بغيره ، فالانشغال بالله والركون إليه لم يزل ولم يتغير ، وهذا هو فقر العارفين بالله تعالى ، فإنهم يشعرون رغم ما يملكون من مال وجاه أنهم مفتقرون إلى الله سبحانه وتعالى على الدوام . ولقد سئل الجنيد عن الفقير الصادق ؟ فأجاب : هو أن لا يستغنى بشىء ، ويستغنى به كل شىء.

كما يفسر زوال الفقر عند المشاهدة إذ يقول : « إنهم استغنوا بما كان بدا ، فخرجوا عن الفاقة ». (محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، ص: ٨٦).

ويفسر كذلك صورة الفقير الراضى فى قمة العزة إذا قورن بغيره ، فقد سئل : من أعز الناس ؟ فقال : الفقير الراضى ، لأن الغنى بالله هو قمة العزة به ، مع كون القمة الفقر إليه . والفقر الكامل هوالغنى التام بالله .

لذلك يقول الإمام الجنيد : « النفس التى أعزها الله بحقيقة الفناء تزول عنها موافقات الفاقات » .

وفوق ذلك ماساقه عندما يعرض لوصف بلاء أهل الفناء ، حيث قال: « أقام لها عطشها إليه من كل مأتم مأتماً ، ورفع لها فى كل كسْوة علماً ، يذيقها طعم الفقر ، ويجدد عليها رؤية احتمال الجهد ، أى الشعور الدائم فى كل الأحوال بالفقر إلى الله .

ويقول أيضا : « إن الله كشف لعباده معايبهم فى ذكر الطين لهم ، =

= وعرف مقاديرهم بذكر النطقة ، أشهدهم على عجزهم فى تقلبهم ، ليعرفوا فاقتهم إليه فى كل حال.

وهكذا يتحول معنى الفقر إلى العبودية الكاملة التى تعنى عند الجنيد سوى العود إلى الشعور بحال مشابه لما كان عليه أثناء أخذ الميثاق ، وهى الحال التى يحلو له دائماً أن يفسر على ضوئها فكرة : « الفناء »، وهى أحد مفاتيح مذهب إن لم تكن المفتاح الأول .

والجنيد على أى حال يشير إلى الحقيقة اللازمة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

« سورة فاطر : الآية : ١٥» .

ومقام الفقر عند الصوفية شعار الأولياء ، لأن الغنى أو الملك قد يكونان حجاباً يحول بين المريد وبين اشتغاله بالله ، وليس الفقر عند الصوفية أن لا يملك المريد شيئاً وإنما الفقر ألا يملكه شىء ، فيعيش الصوفى فى غنى وهو فى فقر، حيث لا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً ، ولا يشكو ولا يظهر أثر الفاقة ، وإنما يظهر الغنى فى غير تصنع .(الطوسى: اللمع ، ص : ٥٧) .

ومن استغاثات ابن عطاء الله السكندرى رضى الله تعالى عنه التى يؤكد فيها مذهبه الشاذلى السنى فى أن الاعتداد بالفقر ذنب رغم توسله بالفقر إلى الله ، وأن المحاسن لا تظهر إلا بفضل الله ، والمساوئ لا تظهر إلا بعدل الله.

« إلهى أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى » .

ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ؟ =

فى هذا الزمان سموا أنفسهم بالصوفية (*) .

= فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسك ولا يكون لك منها شيء، بحيث تكون كلك لله ، وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر .

ونريد أن نوضح في هذا المقام أن الفقر عند الصوفية له معنيان : فقر مادي ، وفقر معنوى :

الفقر المادى : وهو الفقد أو الحاجة ، وهو ليس محبباً فى ذاته .

الفقر المعنوى: وهو الفقر الحقيقي المستحب لدى الصوفية ، وهو ليس بمعنى الفقد والحاجة ، بل هو شعور الإنسان برغم ما يملك من مال ويتمتع به من جاه ، بفقره إلى الله تعالى على الدوام ، لأنه ليس له غنى عن الله .

وعلى هذا فالإنسان الصادق حسبما يرى الشاذلى هو الذى يتحقق بأوصاف الفقر والضعف والعجز والذلة ، ويعرف أنها من أوصاف العبودية ، فيجلس عليها ناظراً لأوصافه تعالى من الغنى والقدرة والعزة ، ويعرف أنها من أوصاف الربوبية ، وبذلك يعلم حقيقة نفسه .

(*) **التصوف :** يتصل بالقلوب . وأسرار القلوب وخلجاتها أدق من أن تظهر لكل كاتب أو باحث ، ومصدر خطورته أن التصوف عمل وسلوك ومجاهدة ومكابدة ، وليس كتبا تقرأ ، أو كلاماً يحفظ ، وهو يختلف من طائفة إلى أخرى ، ومن شخص إلى آخر ، بل ربما يختلف فى الشخص نفسه من وقت لآخر حسب الواردات عليه .

ومن ثم فالكتابة فيه يجب أن تتسم بالحذر وخاصة عند سالكى الطريق حتى لا يظلموا القوم أو يظلموا أنفسهم . وإذا كان سالكوا الطريق أنفسهم يخشون ذلك فما بالك بغيرهم (أبو عبد الرحمن السلمي : أصول الملامتية ، ص : ١٣) . =

....

= والفرق بين الصوفية وغيرهم هو أن الدنيا لا تستعبدهم ، وإنما تستعبد غيرهم والصوفي في أصل منهجه « عدم التنازع » ، أي لا ينازع الآخرين الرأي ، ولا يحاول قهرهم بالجدل . والصوفي العارف لا يرى حيثما توجه إلا الله (مصطفى محمود : السر الأعظم ، ص : ١١).

كما أن التصوف ليس أخذ عن القيل والقال ،ولكن أخذ عن الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات ، ولابتداء الفقير بالعلم وابدائه بالرفق ، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه (الجيلاني ، عبد القادر : فتوح الغيب ، ص : ١٦٦)

لذلك نقول: إن التصوف ليس علماً تكفي فيه الدراسة ، ويكفي فيه البحث في الكتب ، ولكنه ممارسة ، وسلوك ، وعمل (عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ، ص: ٣٧) .

وقد قيل : أول التصوف علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة ، فالعلم يكشف عن المراد ، والعمل يعين على المطلوب ، والموهبة تبلغ غاية الأمل

(عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية ، ص ٦٦ - ٦٧) .

وهنا ينبغي أن ننبه أن بداية الصوفية إنما تكون بداية فقهية ، وتكون النهاية نهاية صوفية ، ومن لم يبلغ من الصوفية مبلغ الفقهاء وأصحاب الحديث، ولم يحط علما بما أحاطوا به يرجع فيما وقع له من المسائل إلى العاملين .

ويقول الجنيد : « التصوف هو تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدعاوى النفسية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ماهو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة ، واتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الشريعة . =

= لا شك أن هذا تعريف جامع مانع للتصوف اشتمل على أمور كثيرة كلها مبنية على الشريعة سجله لنا الإمام الجنيد عندما عرج بنا إلى ساحة الذوق عنده.

ويحدثنا الطوسي عن المتصوفين فيقول : « هم العلماء بالله وبأحكام الله بما علمهم الله ، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل ، الواجدون بما تحققوا ، الفانون بما وجدوا لأن كل واجد قد فنى بما وجد .

(الطوسي : اللمع ، ص : ٤٧).

وقال بعضهم فى التصوف ثلاثة أجوبة :

١) جواب بشرط العلم : وهو تصفية القلوب من الأكدار واستعمال الخُلُقُ مع الخليقة ، واتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى الشريعة .

٢) جواب بلسان الحقيقة : وهو عدم القلق والخروج من رق الصفات والاستغناء بخالق السموات .

٣) جواب بلسان الحق : أصفاهم بالصفاء عن صفاتهم ، وصفاهم من صفاتهم فسموا صوفية .

من هنا يمكن القول : إن العارف هو الصوفي ، لكن يجب أن نفهم أن العارف هو نهاية الصوفي ، فالصوفى يسلك حتى يصير عارفا إذا كان لديه استعداد للوصول إلى رتبة العرفان ، والمراد بأن العارف يصل فى المدة القصيرة إلى مالايصل إليه غيره فى سنين طويلة ، والمراد بالغير ، غير السالك طريق المعرفة من العباد .

والمراد بالصوفى السالك الذى يسير السالك إلى المعرفة كذلك .

(ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، هامش ص :٥٨١). = =

••

وقد قيل : التصوف بدايته تخلق ، ونهايته تحقق .

ولما سئل الشبلي : ما بدء التصوف ، وما نهايته ؟

فقال : بدؤه : معرفة الله عز وجل . ونهايته : توحيد الله.

وقد حاول بعض الباحثين صياغة تعريف واحد للتصوف تلتقى فيه كل تعريفات الصوفية فقال : إن التصوف فى أساسه وجوهره فقد ووجود ، فقد لأنية العبد ، ووجود له بالله وفي الله ، أى فناء عن الذات الشخصية وأوصافها وآثارها وبقاء فى الله .

(أبو العلا عفيفى : التصوف : الثورة الروحية ، ص : ٤١)

يربط الكتانى بين التصوف والأخلاق فيقول : التصوف خلق ،فمن زاد عليك فى الأخلاق زاد عليك فى التصوف .

هذا النص للكتانى بين فيه كيفية إقامة التصوف على أسس شرعية ، ولكون التصوف يتناول الجانب الوجدانى ربطه بالأخلاق الإسلامية . وجعل بداية الأمر أن يكون السالك إلى طريق الحق متمتعا بالأخلاق . وجعل الأخلاق المدخل الأساسي للدخول إلى باب التصوف .

كما قيل : التصوف هو التخلق بالأخلاق الإلهية .

هكذا يتضح لنا العلاقة الوثيقة بين الأخلاق والتصوف . وعليه يمكن القول أن التصوف الإسلامي مبنى على الأخلاق الإسلامية .

كما أن التصوف تدريب النفس على العبودية وردها إلى أحكام الربوبية .

أو بعبارة أخرى : طرح النفس في العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية (عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ، ص : ١١٧)

وادعوا الولاية (*) الكبرى وهم أضل من الأنعام

(*) **الولاية :** تعد الولاية من أول وأهم المراتب التى ينالها الواصل ، ومن بين الأولياء تبرز طائفة من الموهوبين ليحتلوا مراكز القطبية المختلفة .

فالولايـة هى القربة من الله تعـالى ، وهى كالنبوة تأتى من الله بالاجتباء أو التفضل إلا أن هناك اختلافا جذريا بين النبوة والولاية ، ويتمثل فى أن النبوة هى تمام الدرجة وليس هناك أفضل منها إلا المرسلين ، فالرسالة أجل من النبوة .

(الترمذى : علم الأولياء ، ص : ٥٠)

ويقول ابن عربى : مقام الولاية هو أعلى من الاجتهاد ..

(على عبد الجليل راضى : الروحية عند ابن عربى ، ص : ١٢٨)

ويتناسق سهل التسترى مع القرآن الكريم كشأنه فى اتخاذ القرآن والسنة إماماً له فيقول : « الولى من توالت أعماله على الموافقة » .

كما قال : الولى هو من أسلم قلبه لله تعالى فتولى الله جوارحه . وأعلى درجة الولاية هى درجة الصديقية .

ولقد سئل عنها سهل فقال : الصديقون هم الذين عدوا أنفاسهم بالتسبيح والتقديس ، وحفظوا الجوارح ، والحواس ، فصار قولهم وفعلهم صدقا ، وصار دخولهم فى الأشياء وخروجها عنها بالصدق ، ومرجعهم إلى مقعد صدق بقدم صدق عند مليك مقتدر .

(عبد الحليم محمود : سهل التسترى . القاهرة : دار الشعب ، سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص : ١١٨) .

فالولى من تولى الحق سبحانه وتعالى أمره ، وحفظه من العصيان ، ولم يخله عن نفسه بالخذلان حتى يلفه فى الكمال مبلغ الرجال .

....

= = (الكاشاني : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٦٩).

قال تعالى :﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾« سورة الأعراف : الآية : ١٩٦).

وقد قيل : الولي هو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان ، ومن يتوالى عليه إحسان الله وأفضاله ، والولي هو العارف بالله وصفاته بحسب مايمكن ، المواظب على الطاعات ، المجتنب المعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات .

والجدير بالذكر في هذا المقام أن فكرة الولاية لم تتأكد كنظرية إلا على يد الحكيم الترمذي الذي جعلها محور فلسفته كما تبين ذلك من أسماء كتبه وهي : « علم الأولياء » ، و « سيرة الأولياء » و « ختم الأولياء » . حيث أدى به هذا الاهتمام بالولاية إلى أن جاء تصوفه مرتكزا على نظرية متكاملة في الولاية . يمكن إيجازها فيما يلي :

(١) الولاية هي القربة من الله سبحانه وتعالى .

(٢) الأنبياء والمرسلين يحملون الولاية في باطنهم بكل خصائصها ومؤهلاتها علاوة على ما امتازوا به من الوحي والنبوة والرسالة .

ولهذا فكل نبي ولي ، وليس كل ولي نبيا .

(الترمذي : علم الأولياء وآراء الترمذي الصوفية والفلسفية ، تقديم ودراسة وتحقيق سامي نصر لطف . القاهرة : مكتبة الحرية الحديثة ، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص : ٥٠ ـ ٥٤) .

ولقد ربط الترمذي بين الولاية والمعرفة الصوفية وكأنهما وجهان لحقيقة واحدة هي الطريق الصوفي الحق .

ومن أقوال الخراز في هذا الصدد : الولي الحقيقي هو الذي يسير =

= بين الناس ، ويأكل وينام معهم ، ويشترى ويبيع فى الأسواق ، ويتزوج ، ويشترك مع الناس فى مجالسهم ولاينسى الله لحظة واحدة .

(ول ديورانت : قصة الحضارة ، عصر الأديان ، ترجمة محمد بدران . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٧٤م ، الجزء الثانى من المجلد الرابع ، ج١٣ ، ص : ٢١٧) .

ويرى أئمة الصوفية أن أخص صفات الولى وأبرزها أنه عبد فنى فى الله لوصوله إلى مقام القرب من الله بفضل قداسته وورعه وفنائه فى محبة ربه .

فالولى له علم وتجربة روحية يرقى فيها للوصول إلى الحق بنفسه متصفاً بالأوصاف الإلهية ومتخلقاً بالأخلاق الربانية ، فهو الفانى عن وجوده الباقى بالحق . (القشيرى : الرسالة ، ص : ١١٧) .

ويطلق الصوفية اسم « الولى » على الرجل الذى وصل إلى مقام الفناء عن ذاته وإرادته وبقى بالإرادة الإلهية .

ومن هنا فالولاية عبارة عن فناء العبد فى الحق والبقاء به ، ولانهاية لكمال الولاية ، فمراتب الولاية غير متناهية .

(السيد دحلان : تقريب الأصول لتسهيل الوصول ، ص : ٣١٤) .

ومن ثم نخلص إلى أن الأولياء فى فنائهم إنما فنوا فى أحوالهم ببقائهم فى مشاهدة مالكهم فتوالت عليهم أنوار الولاية ، فلم يكن لهم مع نفوسهم أخباراً ، ولامع واحد غير الله قراراً ، وهم المتحابون فى الله .

ويمكن القول : الولاية هى قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه ، وذلك بتولى الحق إياه حتى يبلغه مقام القرب والتمكين . =

= (ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبدالحى : شذرات الذهب . القاهرة : مكتبة القدسى ، سنة ١٣٠٠هـ ، ج٢ ، ص : ١٩٢) .

والولى اسم باق لله تعالى ، فهو لعبيده تخلقاً وتحققاً وتعلقاً .

وكما قلنا : إن الولى اسم من أسماء الله تعالى ، لكنه يطلق على العبد أيضا إذا اكتملت فيه صفات الولاية ووصل إلى مقامها .

(ابن عربى : فصوص الحكم ، تحقيق وتعليق أبو العلا عفيفى . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة الحلبى ، سنة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م ، ج٢، ص : ٧٣).

وللأولياء علامات يعرفون بها وهى : لطف لسانهم ، وقبول عذر من اعتذر إليهم ، وكمال الشفقة على جميع الخلق برهم وفاجرهم .

(ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٧٨).

يقول الخراز : إن الله تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره ، والوصول إلى قربه ، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم ، وأجزل نصيبهم من كل كائن . فعيش أبدانهم عيش الجنانيين (أهل الجنة) ، وعيش أرواحهم عيش الربانيين .

ومن روائع البسطامى التى سجلها أنه قال : « إن لله شراباً فى الدنيا ادخره فى مكنون ربوبيته ليسقيه أولياءه فى ميدان محبته على منابر كرامته ، فإذا شربوا طربوا ، فإذا طربوا طاشوا ، فإذا طاشوا عاشوا ، فإذا عاشوا طاروا ، فإذا طاروا وصلوا ، فإذا وصلوا اتصلوا ، فهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

(عبد الرحمن الصفورى : نزهة المجالس ومنتخب النفائس ، ج١ ، ص : ٨٠) .
=

= ولما كان الأنبياء يتفاضلون في مقاماتهم ، فكذلك الأولياء يفضل بعضهم بعضا على قدر إرثه من النبي . (ابن الصباغ : درة الأسرار ، ص : ١٣٣).

وتعد الولاية عند الشاذلية وراثة للأنبياء فى علومهم استناداً إلى الحديث الشريف : « **العلماء ورثة الأنبياء** » .

من هنا قال الشاذلي : لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته ، أو تدبير من تدبيراته ، أو اختيار من اختياراته ، فلو خلى الله تعالى عبده وذلك لم يصل إليه أبداً ، ولكن إذا أراد الله وصول عبده تولى ذلك له بأن يظهر له من صفاته العلية ونعوته القدسية ما يغيب صفات عبده ونعوته عنه .

(ابن عطاء الله السكندري : الحكم بشرح عبد الله الشرقاوي . القاهرة : مطبعة صبيح ، سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م ، ص : ٧٢).

ويقول الشاذلي في موطن آخر : « ولي يفني عن كل شيء فلا يشهد مع الله تعالى شيء ، وولي يبقى في كل شيء فيشهد الله تعالى في كل شيء . وهذا أتم . (ابن عطاء الله السكندري : لطائف المنن ، ص : ٨٩ ، ص : ٣١٥) .

فالولي في فنائه ، حسبما يرى الشاذلي لابد أن يبقى معه لطيفة علمية يترتب عليها التكليف . وتلك اللطيفة هي العقل العارف بأحكام الشريعة ، وعليه يترتب الثواب والعقاب .

ويتابع المرسي أستاذه قائلا : « لن يصل الولي إلى الله تعالى ، حتى تنقطع عنه شهرة الوصول إلى الله تعالى» .

(عبدالحليم محمود : أبو العباس المرسي . القاهرة : دار الشعب ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، ص : ٤٧) . =

= ويفسر ذلك الشعرانى فيقول : أى انقطاع أدب لاانقطاع ملل لغلبة التفويض على قلبه .

ومن وصايا إبراهيم بن أدهم أنه قال لرجل : أتحب أن تكون وليا لله ؟ فقال: نعم ، فقال : لاترغب في شيء من الدنيا والآخرة ، وفرغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك . فالولى عبد مشغول بالله حتى يتولاه من فضله ولطفه .

فالولى حسبما يرى الجيلانى : يرفع عنه الحجب ويدخل دار الفردانية وينكشف عنه الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقي بلا هو فانياً عن نفسه وعن صفاته، وعن حوله وقوته وحركته ودنياه وأخراه فيصير كإناء مملوء صافيا . يقصد أن يصبح الولى مشتاقا قابلا للكشف .

(الجيلانى ، عبد القادر : الغنية لطالبى طريق الحق . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م ، ج١ ، ص : ١٦١).

ولما كانت الولاية مرتبطة بفضل الله تعالى وتوفيقه ، فإن الأصل أنها لله ، الذى يوالى أويولى ، فالولاية لله .

أما عن أقسام الولاية قال أحد العارفين : ولاية الرحمة للعوام ، وولاية النصرة للخواص ، وولاية المحبة لخواص الخواص ؛ فبولاية الرحمة للعوام فى الحياة الدنيا يوفقهم لإقامة الشريعة وفى الآخرة يجازيهم بالجنة ، وبولاية النصرة للخواص فى الحياة الدنيا يسلطهم على أعدى عدوهم ، وهو نفسهم الأمارة بالسوء ، ليجعلوها مزكاة من أخلاقها الذميمة وأوصافها الدنيئة ، وفى الآخرة يجذبه : ﴿ ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ « سورة الفجر: الآية : ٢٨ » . =

= وبولاية المحبة لخواص الخواص ، فى الحياة الدنيا يفتح عليهم أبواب المشاهدات والمكاشفات ، وفى الآخرة يجعلهم من أهل القربات والمعاينات .

(السيد دحلان : تقريب الأصول ، ص : ٣٠٦) .

ومن الممكن جمع مختلف طوائف الواصلين من الصوفية فى مرتبتين شاملتين هما : « الولاية والقطبية » .

والولاية تنقسم إلى ولاية صغرى وينالها أصحاب الترقى .

والأخرى : ولاية كبرى وينالها أصحاب الجذب .

وكلتا الولايتين هما مقام الإحسان .

والولاية إنما تتم فى الدرجة الثالثة للسيار : الدرجة الأولى : التلوين ، والدرجة الثانية التمكين ، والدرجة الثالثة :التكوين .

أو نقول : الدرجة الأولى : العلم ، ثم الحالة ، ثم الفناء عن الحالة فى المحول .

أو نقول الدرجة الأولى : مشاهدة الصور ، ثم مشاهدة المعانى ، ثم الفناء عن المعانى فى معنى المعانى .

أو نقول : التجريد ، ثم التفريد ، ثم التوحيد .

أو نقول : علم اليقين ، ثم حق اليقين ، ثم عين اليقين .

فعلم اليقين : مكتسب ، وحق اليقين : حالة ، وعين اليقين : فناء .

أو نقول : العبادة ، ثم العبودية ، ثم العبودة .

أو نقول : طلب العبد ، ثم قبول الحق للعبد ، ثم الفناء فى الحق . =

= أونقول : كما قال الحلاج : قطع العلائق ، ثم الاتصاف بالحقائق ، ثم الفناء عن الحقائق فى حق الحقائق .

أو نقول : التعبد ، ثم العبودية ، ثم الحرية .

أو نقول : التذكر ، ثم الذكر ، ثم الاستغراق فى المذكور .

أو نقول : عبارة ، ثم إشارة ، ثم غيب .

أونقول : حضور ، ثم غيبة ، ثم إحضار .

أونقول : شهود ، ثم غيبة ، ثم إشهاد .

أو نقول : التخلى ، ثم التجلى ، ثم التولى .

ويتفاوت الأولياء فى درجاتهم تبعا لمقدرتهم فى الاستمداد من المعارف الربانية فأهل الولاية العامة هم الذين سكروا من رؤية الكأس ، وتبعتهم الطائفة الثانية الذين رشفوا رشفة أو رشفتين ، أما الكمل من أولياء الله تعالى فإنهم فتح الله لهم باب الفهم عنه ، والعلم به ، والأخذ منه ، فتمكنوا من خزائن العلوم ، وكشف لهم عن حقيقة كل ناطق وموهوم فصاروا يأخذون عن الله ويفهمون عن الله بالله .

(محمد وفا الشاذلي : نفائس العرفان من أنفاس الرحمن . القاهرة : مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٩٣ ، تصوف طلعت ، رقم (ب) ، ص : ٢) .

وعلى هذا النحو فكلما منح الولى القدرة على النهل من العلم الإلهى كلما قرب من الله وأخذ من معين القرب .

ولما كانت الولاية هي هبة ربانية اختص بها الحق سبحانه وتعالى بعض عباده ، فيسر لهم السبيل إليها ، لذلك نرى ابن عجيبة يقسم الخلق =

كما سيتضح لكل ناظر فى هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .

= إلى قسمين بشأنها وهما :

(١) قسم اختصه الله تعالى بمحبته ، وجعلهم من أهل ولايته ، لذلك فتح لهم الباب إلى ما قدره لهم ، وكشف لهم الحجاب فأشهدهم أسرار ذاته ، ولم يحجبهم عنه بأسرار قدرته ، وهؤلاء هم أهل الولاية والعرفان الذين يصلون إلى الشهود والعيان .

(٢) أما القسم الآخر من الخلق فقد أقامهم الحق تعالى لخدمته ، وجعلهم من أهل حكمته حيث أسدل عليهم حجاب الوهم ، وغيب عنهم نور العلم والفهم ، ومن ثم فقد وقفوا مع ظواهر القشور ، ولم يشهدوا بواطن النور ، رغم شدة ظهوره لاعتمادهم على الدليل والبرهان .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ٢٧) .

وتبعا لهذين القسمين من الخلق نرى ابن عجيبة يميز بين نوعين من الولاية هما :

١ـ الولاية غير الدائمة : وهى التى تأتى من جهة الفرق وتتعلق بالأمور الدنيوية .

٢ـ الولاية الدائمة : وهى التى تأتى من جهة الجمع ، وهى العز والغنى بالله ، ومعرفته تعالى ، والغيبة عن سواه .

ولاشك أن هذه الولاية لاتنقطع ، فهى شرف لاينفذ ، وعز لايبيد ، وهى مايجب أن يسعى الإنسان من أجله .

ولابد لكى ينال السالك تلك الولاية الدائمة أن يكون قد اتصف ببعض السمات التى تؤهله لها ومنها :

١ـ تمام التوكل على الله ، وإسقاط التدبير معه تعالى بعدم التعلق =

فصار كل من أذن له شيخه القاصر بأن يستفتح الذكر (*) بجماعة أو أذن له أن يلقن الناس أولم يأذن له .

= بحظوظ النفس لأن من أوصاف الولى الكامل أن لايكون محتاجا إلا على الحال الذى يقيمه الحق تعالى فيه فى الوقت ، بمعنى أن لايكون له مراد إلا مايبرز عن عنصر القدرة الإلهية ولاتشتهى نفسه غير ذلك .

٢ـ أن تكون الحقوق والحظوظ كلها عنده سواء ، لأنه بالله فيما يأخذ ويترك وهو فى ذلك مختلف عن الذى يعمل لله رجاء الثواب ، فالعمل بالله صاحبه داخل الحجاب فى مشاهدة الأحباب ، أما العمل لله فإنه يحب الثواب من وراء الباب .

ويدلل ابن عجيبة على ذلك بقول الشاذلى :
« إذا أكرم الله عبدا فى حركاته وسكناته نصب له العبودية لله ، وستر عنه حظوظ نفسه وجعله يتقلب فى عبوديته ، والحظوظ عنه مستورة ، مع جرى ما قدر له ، ولايلتفت إليها كأنه فى معزل عنها ، وإذا أهان الله عبدا فى حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه وستر عنه عبوديته ، فهو يتقلب فى شهواته ، وعبوديته لله عنه بمعزل .

وهكذا فإنه يجب على الإنسان أن يعمل تحققا بعبوديته لايطلب حظاً لنفسه أو مثوبة ، بل تأدية لما خلقه الله ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ « سورة الصافات : الآية ٥٦ » .

(*) **الذكر:** هو العمدة فى الطريق ، ولايصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر.

(عبد الحليم محمود : فاذكرونى أذكركم : القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩) ، ص ٦١) .

فما من وقت إلا والعبد مطالب فيه بالذكر إما وجوباً وإما ندباً =

= بخلاف غيره من الطاعات . (الرندى ، ابن عباد النفرى : غيث المواهب العلية فى شرح الحكم العطائية ، ج ١ ، ص : ١٥٧) .

وهنا يقول ابن عباس ٪ : إن هذه الكلمة القرآنية لها وجهين :

أحدهما : أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه .
والآخر : أن ذكر الله تعالى أعظم من كل شيء سواه .

والواقع أن الإنسان إذا تدبر فى الآيات القرآنية الواردة فى الذكر فإنه يجدها تستغرق الأوقات والحالات . فأينما كان الإنسان وكيفما كان فالواجب عليه دائما أن يكون ذاكراً لله سبحانه وتعالى .

فالذكر يطمئن القلب ، ويرفع الغفلة ، ويذهب الرين ، ويدعو للاستغفار عن ماضى الذنوب وينهى عن الفحشاء والمنكر .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ « سورة الكهف : الآية : ٢٨ » .

والفرق بين الغفلة والنسيان أن الغفلة ترك باختيار العاقل ، والنسيان ترك بغير اختياره . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ « سورة الأعراف : الآية ٢٠٥ » .

وتأكيداً لصحة ما نقول يذهب الكلاباذى فى « التعرف » متحدثاً عن حقيقة الذكر فيقول : « هو نسيان كل شيء ، وذكر شيء واحد هو الله » وهذا يتم على مرحلتين :

الأولى : نسيان ما سوى الله . =

= **الثانية** : التخلص من هذا النسيان .

ويستدل على ذلك بالآية الكريمة : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ « سورة الكهف : الآية ٢٤ » حيث أنها تدل على أنك إذا نسيت كل ما سوى الله فقد ذكرته تعالى . وبذلك فالذكر عنده طرد الغفلة . فإذا ارتفعت الغفلة فأنت ذاكر لله تعالى وإن سكت .

ولعل هذا القول السابق للكلاباذي يتفق مع ما قرره أبو عبد الله الأنصارى فلقد فسر الآية القرآنية : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ . أى إذا نسيت غيره ، ثم نسيت ذكرك فى ذكره ، ثم نسيت فى ذكر الخلق إياك كل ذكر . فلو اشتغل الذاكر بذكر الله على الدوام . وفنى عن غيره على التمام لانصقلت مرآة قلبه ، فالقلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، ولايجليها إلا ذكر الله ، وإذا ما انجلت القلوب وصقلت تجلت فيها حقائق الأشياء سواء الماضية منها أو الآتية ، وهذا الذاكر الذى يفيد فى صفاء القلوب لابد أن يكون ذاكراً واحداً بقلب واحد وهم واحد وإلا فلن يجد شيئاً .

(عبد البارى داود : السياحة فى الإسلام ، ص : ٣٩)

ولقد سئل ابن الصلاح عن القدر الذى يصير به العبد من الذاكرين لله كثيراً ، فقال : إذا واظب العبد على الذكر المأثور صباحا ومساءً ، فى الأوقات المختلفة ، فهو من الذاكرين الله كثيراً .

(محمود على قراعة : الفرار إلى الله ، القاهرة : دار مصر للطباعة ، سنة ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩م) ص : ١٩٢ .

وقد قيل : استراح مع الله ، ولاتسترح عن الله ، فإن من استراح مع الله نجا ، ومن استراح عن الله هلك . والاستراحة مع الله تروح القلوب بذكره ، =

= والاستراحة عن الله مداومة الغفلة . (أبو نعيم : الحليه ، ح١ ، ص : ٣٦)

وسئل النبى صلى الله عليه وآله وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ قال : أن تموت يوم أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى .

(رواه الطبرانى من حديث معاذ بن جبل)

فإذا أراد الله تعالى أن يوالى عبداً من عباده فتح له باب الذكر ، فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجاب وأدخله دار الفردانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا نظر الجلال والعظمة بقي بلاهو ، فيصير فانياً بارئاً عن دعاوى نفسه محفوظاً بالله .

(عبد الرحمن الصفورى : نزهة المجالس ، ص : ١٥٠)

فكل من فني في ذكر الله فإن روحه شهدت جمال الحضرة ، أو تفكرت فى جمال المذكور وبهائه ، أوفى حسن ثوابه وجزائه .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ، ص : ٤٣)

وقد قيل : من قام بحقيقة الذكر والحمد والشكر سخر له الأكوان . ومن لازم لذكر الله قطعه عن كل شيء سواه .

فالذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع الحق .

فالمتكلم ذاكر ، والمتفكر في عظمة الله وجلاله وجبروته وآياته وسمواته ذاكر ، والممتثل ماأمر الله به والمنتهي عما نهى الله عنه ذاكر ، والذكر قد يكون باللسان وقد يكون بالجنان ، وقد يكون بأعضاء الإنسان ، وقد يكون بالإعلان والاجهار والجامع لذلك كله ذاكر كامل . =

••

= ويحدثنا ابن عطاء الله من ساحة ذوقه فيقول : « اعلم أن كل ذكر شعر به قلبك تسمعه الحفظة فإن شعورهم يقارن شعورك وفيه سر حتى إذا غاب ذكرك عن شعورك بذهابك فى المذكور بالكلية يغيب ذكرك عن شعور الحفظه». (ابن عطاء الله السكندرى : مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح ، ص: ٧ـ ٨)

وكان الشاذلى يقول : اقرع باب الذكر باللجأ والافتقار إلى الله بملازمة الصمت عن الأمثال والأجناس ، ومراعاة السر عن محادثة النفس فى جميع الأنفاس إن أردت الغنى .

(ابن عياد الشافعي : المفاخر العليه فى المآثر الشاذليه ، ص : ٧٥)

كما قال : هن ثلاث : فرغ لسانك للذكر ، وقلبك للتفكر ، وبدنك لمتابعة الأمر وأنت إذا من الصالحين .

وقد قيل : من اختلى اجتلى . والمعنى أنه خلا بذكر الله وانقطع عن الناس فإذا فعل ذلك انجلت مرآة قلبه .

وكان الفضيل بن عياض يقول : إن لله عباداً إذا ذكروا عظمة الله تقطعت قلوبهم فى بطونهم ، ثم تندمل ، ثم تنقطع ، ثم تندمل أبداً ما عاشوا.

ويقول الكتانى : « الغافلون يعيشون فى حلم الله ، والذاكرون يعيشون فى رحمة الله ، والعافون يعيشون فى لطف الله ، والصادقون يعيشون فى قرب الله » .

فذكر الله إذ ينقل المؤمن من عالم ماقبله إلى عالم ما بعده .. من عالم حلم الله عنك ، إلى عالم رحمته ولطفه ، وحبه وقربه .. من عالم الغفلة إلى عالم الذكر ، فالمعرفة ، فالصدق .

(خالد محمد خالد : الله والموعد ، ص : ١٩١) .

أوسمع فى خلوته (*) هاتفاً من جنى أو شيطان يظن أنه ولى لله عزوجل فيجمع له جماعة من العوام من أهل الصنائع وغيرهم فتارة يجلس فى بلده ، وتارة يطوف البلاد ويكلف العباد فى هذه الأيام الكدرة النكدة على الخاص.

(*) **الخلوة** : المقصود بالخلوة مكان يعتكف فيه الولى . فالخلوة أعلى المقامات وهو المنزل الذى يعمره الإنسان ويملؤه بذاته فلا يسعه معه غيره .. أصل الخلوة من العالم الخلاء الذى ملأه العالم .. فأول ما يكشف لصاحب الخلوة آيات العالم قبل آيات نفسه .

وتعتبر الخلوة من المستلزمات الروحية التى يؤديها المريد فى الطريق إلى الله والتى يهتم بها مشايخ الطرق لتربية النفوس وتزكية قلوب مريديهم . ويعتقد العلماء أن الخلوة هى تدعيم للتوبة وتثبيت للإخلاص . وسير فى طريق الله عزوجل . وهى أفضل لحظات يقضيها الإنسان وربه وهى عزلة عن الناس وقربة إلى الله، وفيها يستغفر الإنسان من ذنبه ، وينظر إلى نفسه فيصلح عيوبها ، ويداوى ما اعوج من أمرها . ويتوب عما اقترف من ذنوب وآثام .

وقد قيل فى فائدة الخلوة فى الحصول على العلوم الإلهية : « فإن المتأهب إذا لزم الخلوة والذكر وفرغ المحل من الفكر وقعد فقيراً لاشىء له عند باب ربه حينئذ يمن الله تعالى عليه من العلم والأسرار الإلهية والمعارف الربانية .

والمقصود بالخلوة ليس المكان وإنما حالة فيض النور الإلهى على الشخص . ثم إنه لما انطبع بالنور كان فى خلوة بربه وبقى فى تلك الخلوة إلى الأبد فالعارف إذا ماذكرناه عرف أنه فى خلوة بربه لابنفسه . =

= وقد اختار يوسف عليه السلام السجن ، لأن فيه لذة الخلوة مع الله تعالى ، وحلاوة المشاهدة والمناجاة .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن الخلوة مع الله تعالى تكون فى حالة الظهور مع الخلق ومعاملتهم .

ونسترشد هنا برأى الجنيد البغدادى إذ يقول : « لى ثلاثون سنة أخاطب الله والناس يرون أنى أخاطبهم » .

(المحاسبى : المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا . القاهرة : دار التراث الإسلامى ، سنة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م ، هامش ص : ٨٧) .

وفى عبارة أخرى لما قيل له : بم نلت مانلت ؟ فقال : بجلوسى تحت تلك الدرجة ثلاثين سنة وأومأ إلى درجة فى بيته .

ويلزم الخلوة الصمت والجوع والسهر ، بذلك فهى تشتمل أيضاً على العزلة التى نبه عليها ابن عطاء الله بقوله : « ما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان الفكرة » . فالعزلة تحفظ الإنسان من المعاصى الناتجة عن اختلاطه بالناس ، والتعرض للخصومات والفتن وما ينكبون عليه من الشواغل الدنيوية ، من هنا ينبغى أن نفرق بين العزلة والخلوة ، فالعزلة تختلف عن الخلوة فى كونها انقطاع معنوى لا حقيقى عن الخلق . فالمعتزل يساكن الناس ويعاملهم بشرط أن يحفظ قلبه من النظر إليهم والإقبال عليهم ، فلا يجعل قلبه ولا أذنه وعاء لما يأتون به من فضول الكلام ، بل يحتفظ بقلبه وجوارحه .

(ابن عطاء الله : مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخ ، ص : ٥٢) . =

= أما الخلوة فتكون بالبعد عن الخلق فى مكان مخصوص لذلك ، وغايتها محادثة السر مع الحق بحيث لايرى غيره ، وذلك بالانقطاع عما هو غير الله وتفريغ القلب مما سواه حتى لايبقى به ربانية لغيره .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقصد الخلوة فى بداية أمره .

وقد قيل في الخلوة : إنها رياض المحبين ، وبستان العارفين المتفكرين ، وربيع سوائم الذاكرين .

كما قيل : من غلب عليه الأنس لم يكن همه إلا الانفراد والخلوة .

وقال الشاعر :

ألا خلوة أشكو إليك صبابة ● لها بين لحمي والعظام دبيب

وتتضمن الخلوة الصمت إلا عن ذكر المحبوب ، والإعراض عن غير المحبوب ، وكفى بها مزية على غيرها ، ولذلك ما كانت إلا أم الرياضة ، إذا زوجت بالذكر ، ولدت حسن المشاهدة .

ومما رواه عيسى عليه السلام أنه قال : « يا معشر الحواريين كلموا الله عزوجل كثيراً ، وكلموا الناس قليلاً . قالوا : كيف نكلم الله كثيراً ؟ قال : ادخلوا بمناجاته ، ادخلوا بدعائه .

(ابن رجب الحنبلى : جامع العلوم والحكم ، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور : القاهرة : دار الكتاب الجديد ، سنة ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩م . ج١ ، ص : ٨٣)

وقد قيل : الخلوة أصل ، والخلطة عارض ، فليلزم الأصل ولايخالط العارض إلا بقدر الحاجة وإذا خالط يلزم الصمت فإنه أصل .

(الغزالى : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ضمن رسائل الإمام =

الغـزالي . القـاهرة : دار الطبـاعـة المحـمـدية ، مـكتبـة الجندى ، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، ص : ٢٤)

كما قيل : الخلوة يكون العبد فيها مستغرقا بكليته مع الحق تعالى ، معكوفاً قلبه عليه ، مشغوفاً به ، والهاً إليه ، متحققاً كأنه بين يديه .

وقـيل : الخلوة هي مـحادثـة السر مع الحق بـحيث لايرى غـيـره . هذا عن حقيقة الخلوة ومعناها . وأمـا صورتها فهي ما يتوسل به إلى هذا المعنى من التبتل إلى الله تعالى والانقطاع عن الغير .

(الكاشاني : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١٧٥)

ويضع ابن عـطاء الله السكندري بعـض الشـروط التـي ينبـغي عـلى المريد مـراعـاتها في خلـوته حتى تـظهر فـيـه أنوار المنة الإلهـيـة ، ومن أهم تلك الشروط :

أولا : أن يتطهر ولايعلم بخلوته أحد من الناس .

ثانيا : أن يتحمل قسطاً من الجوع بلا إفراط فيه ، ولايشبع عند الأكل .

ثالثا : أن يداوم على السهر ولاينام إلا عن غلبة .

رابعا : أن يحفظ ذهنه من التفكير في مراكب الكون .

ويعـد هذا من أهم الشروط فـي الخلوة لأنه يجعل المـريد يكف عن جمـيع الأفكار المتعلقـة بالعالم الخـارجي أيا كان نوعهـا ، ويستبـقي فكرة واحدة فقط ، هي الفناء في الله مما يحقق الجمع عليه تعالى .

هكذا يصـبح التفـرغ للخلوة والأساس منهـا هو الذكر . وهذا مـانراه عند الشـاذليـة في كون الخلوة هي الـتفـرغ للذكـر عندهم .

ولقد أورد ابن عجيبة للخلوة عـشرة فوائد نجملها كالآتي : =

....

= **أولا :** السلامة من آفات اللسان ، فإن كل من كان وحده لايجد من يتكلم معه .

ثانيا : حفظ البصر والسلامة من آفات النظر ، وبذلك يمنع المريد نفسه من التطلع أو الاستشراف إلى ما ينكب عليه الناس من أمور الدنيا .

ثالثا : حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض ، ويلاحظ أن تلك الفائدة من أهم الفوائد التى نبه عليها معظم العلماء والحكماء .

رابعا : حصول الزهد فى الدنيا والقناعة فيها ، وفى ذلك شرف للعبد وكماله ، وسبب لمحبته عند الحق تعالى لتعلقه به سبحانه ، وهذا ناتج عن المبدأ الأساسى الذى اعتمده الشاذلية للمجاهدة وهو : « الجمع على الله » . الذى يعنى التقرب إلى الله بطاعته وعدم معصيته .

خامسا : السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأراذل .

سادسا : التفرغ للعبادة والذكر ، والعزم على التقوى ، ويعد هذا من أهم الشروط التى يجب أن يراعيها السالك فى خلوته .

سابعا : يجد السالك فى خلوته حلاوة الطاعات والتمكن من لذيذ المناجاة . فالمتخلى لن يجد أمامه حسيا وقلبيا سوى الحق تعالى ، وبذلك تساعده الخلوة على طاعته لربه .

ثامنا : راحة القلب والبدن مما يحدث من جراء مخالطة الناس ، وما يؤدى بالقلب إلى التعب من الاهتمام بأمور الناس . والبدن أيضا إلى الاجتهاد من السعى فى أغراضهم ، وبذلك يستطيع السالك تكريس كل وقته ومجهوده فى سبيل الحصول على مراده . =

تاسعا : صيانة النفس والبدن من التعرض للشرور والخصومات التي توجبها الخلطة .

عاشرا : التمكن من العبادة والتفكر والاعتبار لعدم وجود ما يشغل المختلي عن ذلك .

وهكذا نرى كيف اعتنى ابن عجيبة بإيضاح أمر العزلة والخلوة بالنسبة للسالك طريق الحق . فالخلوة إنما تعني أن يختلي المريد نفسه منفردا في مكان خاص ، فلا يختلط بالناس ولايعاملهم حتى يتفرغ تماما للعبادة والذكر من أجل الطاعة الخالصة لله سبحانه وتعالى . بينما العزلة لاتقتضي الانفراد بل يخالط السالك الناس ويعاملهم ، ولكنه في هذه الحالة يعاملهم بصورته الجسمية ، أما قلبه وباطنه فإنه يكون تعلقاً بالحق تعالى فلا يلتفت إلى ماسواه .

وهذا هو المقصود من دخول المريد الخلوة أول عهده بالطريق ، حتى يتدرب على العزلة ، فإذا ما تحقق بذلك ، وأصبحت العزلة طبعا راسخا في قلبه ، اختلط بالمجتمع والناس : لا ضير عليه في ذلك ، لأن شواغلهم لن تجد لها باباً إلى قلبه المتعلق بالله .

فالخلوة من الأغيار ، والعزلة من النفس وماتدعو إليه وتشغل عن الله .

وما أجمل ولا أروع ما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لاترَى ولاترُى ، كما قال ابن المبارك : ما أحسن حال من انقطع إلى الله تعالى .

وقيل للفضيل : إن عليا ابنك يقول : لوددت أني في مكان أرى الناس ولايروني . فبكى الفضيل وقال ياويح عليّ أفلا أتمها فقال : لا أراهم ولايروني .

وهو مع هذا يدعى أنه قائم فى الخلق مكان نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وكفى بذلك كفرا وجهلاً وسوء أدب (*).

= فإذا اعتزلت الناس فاحذر من قصدهم إليك وإقبالهم عليك . فإنه من اعتزل عن الناس ، لم يفتح بابه ، لقصد الناس إليه ، فإن المراد من العزلة ترك الناس ومعاشرتهم . وليس المراد من ترك الناس ترك صورهم . وإنما المراد أن لايكون قلبك ولا أذنك وعاءاً لما يأتون به من فضول الكلام .

(نور الدين على بن محمد القارى : المعدن العدنى فى فضل أويس القرنى ، دراسة وتحقيق وتخريج إبراهيم بن عبد الله الحازمى (بيروت : دار الفكر المعاصر ، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ص : ١٤٧) .

(*) **الأدب** : الأدب عبارة عن معرفة أشياء يتجنب بواسطتها كل أنواع الخطايا . ويقصد به أحيانا أدب الشريعة ، وأحيانا أدب الخدمة ، وتارة أدب الحق .

ويقصد من أدب الشريعة الوقوف عند رسوم الشرع ، وأدب الخدمة الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها أو أن تعرف مالك وماله منك . أى تكون عالما بحقك وحقه .

وقد قيل : جمال الأدب بالخدمة . كما قيل : من تأدب بآداب الصالحين فإنه يصلح لبساط الكرامة ، وبآداب الأولياء لبساط القربة ، وبآداب الصديقين لبساط المشاهدة ، وبآداب الأنبياء لبساط الأنس والانبساط .

فمن لم يعرف الله عزوجل لم يقبل عليه ، ومن لم يتأدب بأمره ونهيه كان الأدب عنه فى عزلة .

فالأدب المقصود هنا ليس فقط الأدب الظاهرى ، لأن الأدب الظاهرى =

= ربما يكون رياءً ونفاقاً، أو مجاملة واسترضاءً، أو استعطافا بشكل أو بآخر، لكن الأدب المقصود هنا هو الأدب الباطني، يرجى منه كنس القلب من جميع الآفات، إذ أن الشيء المؤلم حقا هو ما يحوم حول القلب من علامات الاعتراض، وذلك بما يحوى القلب من شهوات ورغبات وآفات، ولكن عندما ظهر على الشعور فإنها تظهر عند كثير من الناس في شكل سلوك طيب وحسنات وإحسان ومكارم أخلاق، وذلك بعكس ما في الباطن من آلام وضيق وانحرافات وشرور.

فالذى يؤلم من الظاهر هو فقدان الأدب فى أشكال وصور، ولاعبرة بالشكل والصورة ما دام القلب سليما وليس معارضا لآداب الله.

فالمريض الحقيقى عندأصحاب الشرع هو مريض القلب الذى تطغى عليه شهوة الغضب والأنانية وحب الذات وطلب الشهوات، كما أن الصحيح حقا هو طاهر القلب. فالصحة فى التخلية من أمراض الشره والحسد والكراهية والبغضاء والتعالى والاستعلاء والتكبر وغير ذلك من الآفات، وعلى ذلك فإن أهل الصدق هم أصحاب القلوب وأطهار النفوس، تدور حياتهم على سلامة أحوالهم فى باطنهم وظاهرهم، فلايدخل فى قلوبهم غل ولاحقد ولاحسد، بل إن كل همهم الحب والود و القرب والطهارة والرحمة والتسامح والتآخى، وذلك فى سبيل الله وبالله وإلى الله ومن الله ولقد نصح الإمام مالك لله الشافعي بقوله: « يامحمد اجعل علمك ملحا وأدبك دقيقاً.

(الشعرانى : الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية . القاهرة : دار جوامع الكلم، بدون تاريخ، ص ٤٥). =

....

= وقد قيل : الأدب ثلاثة : أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة .

والثاني : أدب الخدمة وهو التشمر عن العلاقات والتجرد عن الملاحظات .

والثالث : أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة .

وقد قيل : آداب الحضرة ثلاثة : دوام النظر ، وإلقاء السمع ، والتوطين لما يرد من الحكم .

ويقول الشاذلي : أربعة آداب إذا خلى الفقير المتجرد منها فاجعله والتراب سواء . الرحمة للأصاغر ، والحرمة للأكابر ، والإنصاف من النفس ، وترك الانتصاف لها .

وأربعة آداب أخرى إذا خلي الفقير منها فلا تعبأن به وإن كان أحدهم أعلم البرية : مجانبة الظلمة ، وإيثار أهل الآخرة ، ومواساة ذوى الفاقة ، ومواظبة الخمس فى الجماعة .

(ابن عباد الشافعي : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية ، ص : ٧٩) .

وينبغي أن نوضح في هذا الصدد أن الأدب مرتبط بالنفس ، وعليه يمكن القول إن الذى يتأدب هو نفس الإنسان.

ومن تمام حسن الأدب ترك التعريض للصاحب بما يكره عند المخاطبة ومقابلته بما يستثقل عند الكتابة وإن كان حقاً وقصداً وصدقاً ، فإن ذلك أبقى للوداد وأدعى لمداومة الاصطحاب والاعتقاد ، وربما أحدث التعريض فى النفس تأثيراً لايعفو أثره ، وأوردت تغييراً لايصفو كدره .

(ابن عبد الله الباهلي الأشبيلي : الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، ص : ١٦٤) .
=

وأين المقام من المقام (*) ؟

= وقد قيل : الأدب صورة العقل ، فحسن صورة عقلك كيف شئت .

وقال ابن المقفع : كما أن الأدب لايكمل إلا بالعقل ، فكذلك لايكمل العقل إلا بالأدب .

وقال حكيم : احرص على أن لايكون أدبك أغزر من عقلك ، فإن من زاد أدبه على عقله كان كالراعى الضعيف فى الغنم الكثيرة .

وقال عبد الملك بن مروان : لاعب ولدك سبعاً ، وأدبه سبعاً ، واستصحبه سبعاً ، فإن أفلح فألق حبله على غاربه .

وقد قيل : أربعة يسود بها المرء : الأدب ، والعلم ، والعفة ، والأمانة .

وكان السرى السقطى يقول : أقوى القوة أن تغلب نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز .

كما قال : من علامة الاستدراج للعبد عماه عن عيبه واطلاعه على عيوب الناس .

(*) **المقام :** هو الذي يقوم به العبد فى الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف المجاهدات ، التى أقيم العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه ، حتى ينتقل منه إلى غيره .

وقد قيل : المقام هو ثبات الطالب على أداء حقوق المطلوب بشدة الاجتهاد وصحة النية .

ويذكر الله سبحانه وتعالى أصحاب المقامات فى كتابه العزيز بمعان متفرقة منها قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا ﴾ « سورة مريم : الآية: ٧٣ » =

....

= وقوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾

« سورة الإسراء : الآية ٧٩ »

ويقول الله عن نفسه : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

« سورة إبراهيم : الآية ١٤ »

ويطلق المقام اصطلاحاً على ما يتحقق به العبد من الآداب .

هذا عن المعنى اللغوى والاصطلاحي للمقام .

وهنا ينبغي أن ننبه أن المقام ماسمي مقاماً إلا لإقامة صاحبه فيه .

أما عند السالكين فالمقام هو الوصف الذى يثبت على العبد ويقيم فيه ، فإن لم يثبت سمي حالاً . وهو مقام العبد بين يدى الله تعالى فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع لله تعالى .

وقد ورد ذكر المقامات بأنها المنازل الروحية التى يمر بها السالك إلى الله تعالى.

وهذه المنازل لابد لها من جهاد وتزكية . ولذلك يقولون عنها : إنها مكتسبة أى أنها اجتهاد فى الطاعة ، ومواصلة فى التسامى فى تحقيق العبودية لله سبحانه !

(الغزالى : المنقذ من الضلال ، عبد الحليم محمود ، ص : ٤٨)

فالمقامات هى التى يتدرج فيها الصوفى فى معراجه إلى الله ، يتدرج فيها من مقام إلى مقام حتى يصل من التوبة الصادقة إلى القرب من الله تعالى .

(عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ، ص : ٣٧)

وعلى ذلك لايصح الانتقال من مقام إلى مقام حتى يتحقق السالك تماماً بما قبله من مقامات . (ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية ، ص : ١٠١) . =

= وقال آخرون : « لايكمل المقام الذى فيه السالك إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه ، ينظر من مقامه العالى إلى مادونه من المقامات فيحكم أمر مقامه .

(السيد المنوفى : التصوف الإسلامى الخالص ، ص : ٩٩)

ويجدر بنا أن نوضح أن لكل حال علماً وذوقاً ، ولكل مقام منهجاً

وقد قيل : إن المقامات هى المراحل فى الطريق إلى الله تعالى وفيها تظهر حقائق السالكين والمريدين كل على حسب مقدرته وعزيمته وقوة صبره فى الجهاد .

وعلى هذا فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب .

ويختلف الصوفية فى تحديد المقامات والأحوال على حسب أذواقهم ومشاربهم ، فإذا كانت الأحوال تأتى من عين الجود فإن المقامات تحصل ببذل المجهود . وصاحب المقام يمكن فى حاله ، وصاحب الحال مترق عن حاله.

كما قيل : إذا كمل العبد فى معانيه فقد تمكن من المكان وعبر المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان . فالمكان هو الأصل للكمال والتمكين والنهاية .

والمقام عند الصوفية هو درجة أو رتبة يكون فيها العبد بين يدى الله عزوجل بشأن ما يقوم فى داخله هو من رياضة ومجاهدة وعبادة وانقطاع إلى الله عز وجل . أما الحال فهو ما يحل فى القلب من صفاء الأذكار بدون مجاهدة أو تفكير.

وفى هذا الصدد يقول ابن خلدون : « ولايزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهى إلى التوحيد والمعرفة التى هى الغاية المطلوبة للسعادة .=

....

= (أحمد محمود صبحي : الفلسفة الأخلاقية ، ص : ٢٠٢ ـ ٢٠٣)

كذلك ينبغي أن نوضح أنه جميع مقامات القوم التي أولها التوبة ، وآخرها نهاية المعرفة بالله تعالى . هذا بالنسبة للعبد ومعرفته ، وإلا فلا نهاية لمعرفة الله من حيث هو سبحانه ، فنهاية معرفة كل إنسان هي منتهى سيره ، وكل سائر ينتهي به السير إلى حيث قسم به ، ولم يصل السائرون جميعا ولن يصلوا إلى معرفة الذات . وعلى هذا إجماع العارفين والمتقين .

(الشعراني : أسرار أركان الإسلام ، تحقيق عبد القادر عطا ، (القاهرة : دار التراث العربي ، سنة ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠) هامش ص : ١٠٢)

وعلى ذلك فقد أجمع الصوفية على الربط بين الأعمال والأحوال والمقامات في نظام دائم ومتصل لارتباط المقامات وترتيبها على بعضها البعض .

والمعروف في المصطلح الصوفي أن الحال والمقام مظهران للشعور الصوفي يتغاير معه من حال عارضة إلى مقام ثابت .

(عبد القادر محمود : دراسات في الفلسفة الدينية والصوفية والعلمية ، ص : ٣٣٩)

ولعل أوضح تعريف للمقام والحال والفرق بينهما ما أورده الهجويري بقوله :

« إن الحال معنى يرد من الحق إلى القلب دون أن يستطيع العبد دفعه عن نفسه لكسبه حين يرد ، أو جذبه بالتكلف حين يذهب ، والمقام عبارة عن طريق الطالب وضعه في محل الاجتهاد ، وتكون درجته بمقدار اكتسابه في حضرة الحق تعالى . =

ولقد روى عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه أقوال لها دلالة صوفية ، منها : قوله :

« وجدت الخير مجموعاً فى أربعة : **أولها** : التحبب إلى الله تعالى . **والثانى** : الصبر على أحكام الله تعالى . **والثالث** : الرضا بقضاء الله عزوجل . **والرابع** : الحياء من الله عزوجل

(أبو الوفا التفتازانى : محاضرات فى التصوف الإسلامى ص : ٣٥) .

فكأنه يتحدث هنا عن مقامات أربعة من مقامات أهل السلوك وهى : المحبه ، و الصبر ، والرضا ، والحياء من الله تعالى .

والحكاية المنقولة عن سيدنا على رضى الله تعالى عنه أنه قال : « سلونى عن طرق السموات فإنى أعرف بها من طرق الأرض » .

ولعل هذا القول للإمام على رضى الله تعالى عنه أشار فيه إلى الأحوال والمقامات .

ويشهد لهذا أيضاً ماروى عن الإمام على رضى الله تعالى عنه عندما سأله رجل عن معنى الإيمان ؟ فقال له : الإيمان على أربع دعائم : الصبر ، واليقين ، والعدل ، والجهاد . ثم شرع يتحدث عن كل مقام من هذه المقامات .

وهنا يعلق الطوسى قائلاً : « إذا صح ذلك فهو أول من تكلم فى الأحوال والمقامات » . (الطوسي : اللمع ، ص : ٣٦) .

ويحدثنا الجنيد البغدادى عن بعض المقامات على التعيين ، كمقام « المنقطعين » ، وعلامتهم قطع العلائق ، و« المتصلين » وعلامتهم وصل الحقائق ، و « المستخلصين » وعلامتهم الحب والإحاطة بالكلاءة والرعاية ، و « الصديقين » الذين يليهم الأنبياء ارتفاعاً ، و « المصطفين » وعلامتهم البقاء بعد الفناء ، وهو المقام الذى ذكر فيه الطوسى الاختلاف : هل هو خاص بالأنبياء أم هو أيضا للأولياء .

....

= (محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، ص : ١٧)

وكذلك السراج الطوسى يجعلها سبعة مقامات ، وعشرة أحوال .

أما القشيرى صاحب : « الرسالة » فإنه يتكلم عن أعداد كبيرة من المقامات والأحوال .

ونجد السهروردى يلخص المقامات فى ثلاث هى : التوبة ، والزهد ، والعبودية . وأهم الأحوال عنده هو حال المحبة .

ولقد بيَّن الغزالى أن للتصوف مقامات تسمى أحوالاً ، ويضبطها قانون ، وهو القول أنها مؤلفة من علم وعمل . فالعلم هو المبدأ الذى يولد فى الحال ، وثمرة العلم العمل . مثال ذلك : أن العلم فى مقام الشكر ومعرفة النعمة والمنعم .

أما الحال فهو الفرج الحاصل بإنعامه ، وأما العمل فهو القيام بماهو مقصود المنعم محبوبه . (جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ، ص : ٣٨٦)

ويقول ابن عجيبة : لكل مقام علم وحال وعمل . فأول **المقام علم وهو** عبارة عن الوارد الإلهى الحائز على سلوك الطريق ، ثم العمل وهو ما يقوم به السالك من رياضة ومجاهدة ، ثم تأتى الأحوال التى تعده لنوال المقام ، ويستمر السالك فى التدرج فى طريق هذا الإطار الثلاثى حتى يصل إلى مقام المعرفة لينعم باليقين والمشاهدة .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ، ص : ٣١٩)

ولعل من ذلك يتضح مدى عمق ابن عجيبة فى إثبات كيفية ارتباط المقامات والأحوال والأعمال ، فلكل مقام ـ حسبما يرى ـ علم وحال وعمل . وهذا هو نفس المعنى الذى ذهب إليه الغزالى فى ضوء ما تقدم .

ومما يروى عن ابن عجيبة أيضا : الأعمال حركة الجسم بالمشاهدة ،

= والأحوال حركة القلب بالمكابدة ، والمقامات سكون القلب بالطمأنينة .

فمقام الزهد مثلاً : فإنه يكون أولاً عمله مجاهدة بترك الدنيا وأسبابها ثم يكون مكابدة بالصبر على العمل حتى يصير حالاً ، ثم يسكن القلب ويذوق حلاوته فيصير مقاماً .

فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب : يعني أن الأحوال مواهب من الله تعالى جزاءً لثواب الأعمال ، فإذا دام العمل واتصل الحال صار مقاماً ، فالأحوال تتحول فتذهب وتجيء ، فإذا سكن القلب في ذلك المعنى صار مقاماً وهو مكتسب من دوام العمل . (المصدر السابق ، ص : ٩٩-١٠٠)

ونوجه الانتباه هنا إلى أن ترتيب المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثاني . كمنازل السير الحسي . هذا محال .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ج١ ، ص : ١٠٣)

و يوضح هذا قول ابن قيم الجوزية : (ألا ترى أن « اليقظة » مع السالك في كل مقام لاتفارقه وكذلك « البصيرة » و« الإرادة » ، و« العزم ») . وكذلك التوبة لكونها أول المقامات فهي آخرها أيضا .

بل هي في كل مقام مستصحبة . ولهذا جعلها الله تعالى آخر المقامات ، كما لايمكن أن يقال : يوجد مقام أعلى من مقام إلا للمقام نفسه ، فوصول الإنسان إلى مقام ، ثم ترقيه إلى مقام آخر . أصبح الإنسان في ترق بين المقامات (هذا بالنسبة للفرد الواحد في ترقيه بين المقامات) .

أما الشيخ زروق فقد جعل الأعمال والأحوال والمقامات يقرب بعضها على بعض ، فالأعمال عبارة عن الحركات الجسمانية ، والأحوال عبارة عن الحركات القلبية ، أما المقامات فهي عبارة عما ينزل إلى القلب من =

وأين الملائكة (*) من الشياطين ؟

= المعارف ونحوها ، ولذلك فمن كانت معرفته أتم كان حاله أحكم ، ومن كان حاله أحكم كان عمله أكمل . (عبد الفتاح بركة : الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ، ج ١ ، ص : ٢٥٤)

ومن هنا قال ابن عطاء الله : حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال .

ولقد حدد الشعرانى فى : « اليواقيت والجواهر » : عدداً من المقامات التى يجب على السالك اجتيازها حتى يصل إلى مقام المنفردين بـ ٢٤٩٩٩٩ درجة ووحدة ، وعلى المريد الصادق أن يجتازها جميعا بالمجاهدة ، والصبر ، والطاعة ، والإخلاص لله تعالى ، وهذه المقامات لايحصل عليها إلا بالمنة الإلهية والهبة الربانية ، فليس من المحتم مهما اجتهد السالك أن يظفر بها وقل من يصل إليها .

(حسن الشرقاوي : ألفاظ الصوفية ومعانيها ، ص : ١٣٤)

ويترتب على ذلك فى ضوء ما أسلفنا أن ترتيب المقامات لايشكل اختلافاً فى الفكر والسلوك داخل المدرسة الصوفية الواحدة ، وذلك لأن المقامات . كما سبق القول ـ إنما تتوالى على السالك وفق ما وهبه الله من استعداد ، ووفق ما يمن به الله تعالى على عبده ، ولذلك تختلف المقامات من سالك إلى آخر داخل المدرسة الواحدة ، بالرغم من وحدة الأفكار والأساليب التى تقوم عليها التربية داخل المدرسة الواحدة . فالسالك يتقدم فى مقامات خلال طريق يهدف فى نهايته إلى الفناء فى الحق ثم البقاء به ، وبذلك يتحقق بالتوحيد المطلق بالوصول إلى عين اليقين .

(*) **الملائكة** : الملائكة جمع ملاك ، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله ، ثم حذفت الألف تخفيفاً فصارت ملكاً ، وهو مشتق من كلمة =

....

= الألوكة التى هى الرسالة . والجمع ملائك وملائكة ، والملأ الأعلى ، أو الملائكة عالم لطيف غيبى غير محسوس ، ليس لهم وجود جسمانى يدرك بالحواس ، وهم من عوالم ما وراء الطبيعة ، أو غير المنظورة التى لايعلم حقيقتها إلا الله . وهم مطهرون من الشهوات الجنسية والحيوانية ، ومبرءون من الميول النفسية ومنزهون عن الآثام والخطايا ... والملائكة ليسوا كالبشر يأكلون ، ويشربون ، وينامون ، ويتصفون بشيء مما يتصف به البشر من الحالات المادية ، ولهم قدرة على أن يتمثلوا بصورة البشر ، وغيرها من الصور الحسية .

والملائكة خلقهم الله من نور كما خلق آدم من طين، وكما خلق الجان من نار.

ودليل ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

وخلقهم متقدم على خلق البشر .

والملائكة يتفاضلون فى القرب من الله سبحانه وتعالى وعلو المنزلة كالبشر أو أكبر تفاضلاً فإن منهم الملائكة المقربين لقوله تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

« سورة النساء : الآية : ١٧٢ » .

ومنهم حملة العرش لقوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ . « سورة الحاقة : الآية ١٧ » .

ومنهم غير ذلك وأفضلهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، =

= وعزرائيل ملك الموت .

والملائكة يتفاوتون فى الخلق ، كما يتفاوتون فى الأقدار تفاوتاً لايعلمه إلاالله تعالى .

قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ « سورة فاطر : الآية : ١ » .

أى أن الله سبحانه وتعالى جعل للملائكة أجنحة فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من يزيد على ذلك ، وهذا مظهر التفاوت فى الأقدار عند الله والقدرة على الانتقال .

وروى مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح .

وكثرة الأجنحة دليل القدرة على السرعة فى تنفيذأوامر الله وتبليغ الرسالة.

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾« سورة الصافات : الآيات ١٦٤ـ ١٦٦»

قال ابن كثير وما من ملك إلا له موضوع مخصوص فى السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولايتعداه .

وقال ابن عساكر فى ترجمته لمحب بن خالد بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه وكان ممن بايع يوم الفتح ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوما لجلسائه : « أطئت السماء وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكعا أو ساجداً ثم قرأ :

﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ « سورة الصافات : الآية ١٦٤ : ١٦٦ » .

وطبيعة الملائكة الطاعة التامة لله تعالى والخضوع لجبروته والقيام بأوامره ، وهم يتصرفون فى شئون العالم بإرادة الله ومشيئته ، وهو سبحانه يدبر بهم ملكه . وهم لايقدمون على شىء من تلقاء أنفسهم .

قال تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

« سورة النحل : الآية ٥٠ » .

والملائكة عالم غيبى مخلوقين من نور عابدين لله سبحانه وتعالى ، وليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شىء ، ﴿ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ « سورة الأنبياء : الآيتان ١٩ ـ ٢٠ »

والملائكة خلق عظيم وعددهم كثير لايأتى عليه العد ولا يحصيه من دون الله تعالى أحد .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أنس رضى الله تعالى عنه فى قصة المعراج أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم رفع له البيت المعمور فى السماء يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخرما عليهم.

إن الملائكة بذواتهم وصفاتهم من الغيب المحض ، الذى دل الدليل العقلى ، والشرعى على وجودهم ، وعلى وجوب الإيمان بهم ، والتصديق بأعمالهم ، وأحوالهم .

ولم يأت فى النصوص أسماء من أسماء الملائكة إلا القليل كجبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، ومالك ، وعزرائيل ، ورضوان .

= وللملائكة أعمال : عمل فى عالم الأرواح ، وعمل فى عالم الطبيعة ، ولهم صلة خاصة بالإنسان .

عملهم الروحى :

١ـ التسبيح والخضوع التام لله . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ .

« سورة الأعراف : الآية ٢٠٦ » .

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ . « سورة الزمر : الآية ٧٥ » .

٢ـ حمل العرش : قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ « سورة غافر : الآية ٧ » .

وقال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ .

« سورة الحاقة : الآية ١٧ » .

٣ـ التسليم على أهل الجنة : قال تعالى : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾

« سورة الرعد : الآيتان : ٢٣ ـ ٢٤ » .

٤ـ تعذيب أهل النار : قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ « سورة التحريم: الآية: ٦ »=

= وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً ﴾ . « سورة المدثر : الآيات : ٢٧ ـ ٣١ » .

٥ ـ النزول بالوحى . ملك الوحى هو جبريل عليه السلام .

علمهم فى الطبيعة ومع الإنسان :

وللملائكة أعمال فى تدبير أمور الكون : منها إرسال الرياح والهواء ، ومنها سوق السحب وإنزال المطر ، ومنها إنبات النبات ، ونحو ذلك من الأعمال الخافية على الأنظار التى لاتقع تحت الحواس .

ـ تنشيط القوى الروحية الكائنة فى الإنسان بإلهام الحق والخير :

عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى عليه وآله وسلم قال : إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله وليحمد الله . ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان . ثم قرأ : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٢٦٨ » .

٦ ـ دعاء الملائكة للمؤمنين : قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ . « سورة غافر : الآية: ٧ ». =

= **٧ـ تأمينهم مع المصلين :** والملائكة تؤمن مع المصلين ، فعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا قال الإمام : غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . فقولوا : آمين فإن الملائكة يقولون : آمين . وإن الإمام يقول : آمين . فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه . (رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى) .

٨ـ حضورهم صلاة الفجر والعصر من كل يوم : روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: « فضل صلاة الجماعة على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر . يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ . «سورة الإسراء : الآية ٧٨ ».

٩ـ نزولهم عند قراءة القرآن : والدليل على ذلك قصة أسيد بن حضير كما رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما .

١٠ـ حضورهم مجالس الذكر : وهم يلتمسون حلقات الذكر لإمدادهم بالقوى الروحية .

١١ـ صلاتهم علي المؤمنين وخاصة أهل العلم منهم : قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ . « سورة الأحزاب : الآية ٤٣ » .

وعن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض ليصلون على معلم الناس الخير » .

(رواه الترمذى وقال حديث حسن) . =

....

١٢ـ تبــريكهم أهل العلم وتواضعــهم لهم : عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » . (رواه أبو داود ، والترمذي)

١٣ـ حملهم البشريات .

١٤ـ إعلانهم عمن يحبه الله وعمن يبغضه : يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : « إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء فيقول : إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض . وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء إن الله أبغض فلاناً فأبغضوه ثم يوضع له البغضاء في الأرض . (رواه مسلم في صحيحه) .

١٥ـ كتابتهم الأعمال : وهم يكتبون أعمال الإنسان ويحصون عليه حسناته وسيئاته . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . « سورة ق : الآية ١٦ : ١٨ » .

١٦ـ تثبيت المؤمنين : قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « سورة الأنفال : الآية ١٢ » .

١٧ـ موكلون بقبض الأرواح : قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ ﴾ « سورة الأنعام : الآية ٦١» . =

....

= وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

« سورة السجدة : الآية ١١ » .

١٧ ـ التبشير بالجنة : قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ « سورة فصلت : الآية ٣٠ » .

وبعض صفات الملائكة :

١ـ حياء الملائكة : إن الملائكة تستحي استحياء يليق بحالها ، إذ قد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة . يعني بذلك الرجل عثمان بن عفان ﷺ ، ففي هذا الخبر الصادق الصحيح دليل على صفة الحياء للملائكة .

٢ـ تأذيهم : إن الملائكة تتأذى من المكروه كما يتأذى منه الإنسان لحديث مسلم : « من أكل من الثوم ، والبصل ، والكرات فلايقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » .

٣ـ تنزيههم عن الأغراض البشرية : إن الملائكة منزهون عن الأغراض البشرية كالجوع والمرض ، والأكل ، والنوم ، والتعب ، وما إلى ذلك ، فقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على ذلك بدلالة الالتزام إذ أخبر تعالى عنهم : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾

« سورة الأنبياء : الآية ٢٠ » .

٤ ـ خوفهم من الرب تبارك وتعالى : إن الملائكة يخافون من الله تعالى أخبر بذلك القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم

ولو كان من يدعى المشيخة من هؤلاء المدعين يزن الخراج خمسة أضعافه ويتكلف مثل ذلك على الكشاف والقصاد ومشايخ العرب وقطاع الطريق . ثم بعد ذلك هاف قمحه وزرعه ولم يجد شيئاً يأكله هو وعياله .

(ولما لم يجد ملجأ يلتجئ إليه) [1] **سكت ولم يتكلم . ولم يصر**[2] **له قلب يتكلم لا بحقيقة ولابشريعة** [*] **لكنه غره تهيئة**

مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ « سورة النحل : ٤٩ ـ ٥٠ » .

قال تعالى : ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ « سورة الأنبياء : الآية ٢٨ » .

٥ ـ **حبهم من يحب ربهم** : وهذا ما أوضحناه فيما تقدم .

٦ ـ **طاعتهم لله سبحانه وتعالى** : إن الملائكة يطيعون الله تعالى ، لايعصون الله بحال من الأحوال ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ « سورة التحريم : الآية ٦ » .

٧ ـ **دعاؤهم ولعنهم أعداء الله** : إن الملائكة ليدعون ربهم ويسألونه . وإنهم ليلعنون من لعنه الله .

٨ ـ **عظم خلقهم وتفاوتهم** : إن خلق الملائكة لعظيم ، وهم يتفاوتون فيه تفاوتا كبيرا . ولقد أوضحنا ذلك بالشرح والتحليل فيما تقدم .

(١) زيادة أضفناها ليستقيم المعنى .

(٢) فى الأصل : يصير .

(*) **الشريعة** : الشريعة فى اللغة شريعة الله لعباده من الدين .

=

الناس له ما يأكل وما يشرب هو وجماعتـه على السالـم من غير

= وهذا المعنى وارد في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ « سورة الجاثية : الآية: ١٨ » .

أما الحقيقة فمن الحق ، والحق ضد الباطل ، والحق واحد غير متعدد . وقد ورد لفظ الحق في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ١٢١ » .

كما ورد لفظ الحق والباطل في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٤٢ » .

ولاشك أن الشريعة الإسلامية بجوانبها المختلفة وأبعادها المتكاملة هي بمثابة الرسم النهائي الواضح لكل فروع التشريع من فقه وأحكام ومعاملات ، وعلى المسلم أن يحقق ما جاءت به الشريعة الإسلامية ، ويطبقه دون نقصان أو زيادة .

كما على المسلم أن يحاول أن يفهم الباعث والقصد والغاية من التشريع الإلهي ويقتضي هذا الأمر الدراسة والبحث والتمحيص حتى يقوى علمه ، وبالتالي يطبق ما تعلم ، وهنا يزداد إيمانا ورشداً .

(حسن محمد الشرقاوي : الشريعة والحقيقة ، ص : ٧) .

فالشريعة بهذا المعنى هي الخريطة والدليل . وإذا ما سار المسلم سالكاً ومطبقاً ماجاءت به من تعاليم ، فإنه قد اهتدى إلى الغاية من الشريعة الإسلامية ، وذلك يعين المرء على أن يلهم بالمعاني إلهاماً . بل ويفاض عليه من نعم الله ويكشف له ما تعذر عليه فهمه .

فإذا كانت الشريعة هي الرسم والخريطة والدليل فإن الحقيقة بلا شريعة =

= باطلة ، فإذا كان التطبيق واعياً وصادقاً اكتمل إيمان المسلم ، وكلما ازداد وعياً وصدقاً ازداد إيماناً ، حتى يصل إلى درجة يكون فيها السلوك والعمل واحداً ، وتكون شريعته حقيقته ، ويكون ظاهره باطنه ، ويكون قلبه وعقله شيئاً واحداً .

وهنا يصل العالم السالك إلى درجة الحكمة العليا كما قال الإمام الترمذي . أو العرفانية كما يرى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، أو الصديقية كما هي عند الإمام الغزالي ، أو القطبانية كما هي عند الأئمة من الصوفية .

وكلها ترمز لمعنى واحد ، وشيء واحد ، وهي البقاء في الله ، ومع الله ، ولله ، ومن الله .

إذن فالشريعة والحقيقة ليس بينهما انفصال ، وإنما غايتهما الاتصال والتكامل ، هما شكل ومضمون ، ظاهر وباطن ، رسم وتنفيذ ، أرض وبناء ، إسلام واستسلام ، إناء وماء ، جسم وروح ، فإذا ما وصل المسلم بمجاهداته إلى الله تعالى أصبح مؤمناً بإذن الله تعالى .

فالإيمان يسبق الإسلام ، والإسلام يتبعه بالسلوك الأخلاقي إيمان . فإذا تحقق ذلك قيل : إن هذا المسلم من الواصلين أو المؤمنين أو الصالحين . والرابطة لالتحام الشريعة بالحقيقة هي النية ، وهي العزم على الفعل ، أو هي معرفة وتحديد العمل المراد القيام به .

فالنية إذن تصور الأفعال وتوجهها إلى معرفة الله عز وجل .

والشريعة تتفق بذلك مع الحقيقة وتؤكدها . فالشريعة معلومة للمسلم في مظهرها الخارجي ، بمعنى أن العقائد والتكاليف والفرائض الشرعية =

....

= كالصلاة والزكاة والصوم والحج والتوحيد ، هى معالم الدين الإسلامى ، وهى فروض واجبة التطبيق والتنفيذ ، وهى أركان الدين والعلامات المضيئة للطريق الإسلامى . فإذا تركها المسلم بدون سبب قوى يمنعه من تأديتها ، دل ذلك على أنه لايسير فى طريق الدين . إذ أن إغفاله هذه الفرائض بمثابة الحكم عليه أنه لايسير فى طريق الدين ويتهم بالخروج عنه .

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن الصوفية يربطون بين الشريعة والحقيقة . وهذا الرباط جد وثيق حتى إنهم يرون أنه لاشريعة بلا حقيقة ، ولاحقيقة بلا شريعة ، وكل من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ، وكل من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده .

ويرى ابن عربى أن كل علم يأتى عن طريق الكشف والإلهام فيه حقيقة تخالف شريعة متواترة ، فإن هذا العلم لايعول عليه ، أما إذا وافق شريعته فهو صحيح . فإذا ردّته الشريعة فلا يعول عليه .

(ابن عربى : كتاب مالايعول عليه ، ضمن رسائل ابن عربى . القاهرة : عالم الفكر ، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص : ٢١) .

لذلك يرى أئمة الصوفية أن الشريعة إجمال والحقيقة تفصيل . فالشريعة والحقيقة متلازمتان ، لاتوجد إحداهما إلا ومعها الأخرى ، وأن الحقيقة هى الإخبار عن الأمور على ماهى عليه فى نفسها ، وذلك هوعين الشريعة المطهرة .

(الشعرانى : الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الباري محمد داود ، القاهرة : مكتبة أم القري ، الطبعة الأولي ، سنة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، ص : ٢٠٦)

فمن نظر إلي كون الحقيقة تخالف الشريعة أو عكسه فهو أعور حسبما =

••

= يرى الإمام الشعراني وذلك لكون الشريعة هي الأساس . أو إن شئت فقل هي أساس علم الحقيقة التى يترقى السالك منها إلي درج الحقيقة ، فلايصح طلب الحقيقة من غير معرفة الشريعة ، لأنه لايدخل إلي الحقيقة إلا من باب الشريعة . ومن ظن أن الحقيقة تخالف الشريعة أو عكسه حسبما تقدم فقد جهل لأنه ليس عند المحققين شريعة تخالف حقيقة أبدا . وكل حقيقة خالفت الشريعة فهى زندقة كما مر بنا آنفاً .

(ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص : ٧٧) .

قال تعالي : ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ « سورة البقرة : الآية ١٨٩ » .

إذن فلا دخول للحقيقة إلاَّ من باب الشريعة .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ص : ٢١٢) .

فعلم الشريعة مفتاح لعلم الحقيقة ، ومن أتي الباب بلا مفتاح لايطمع في دخوله . (ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية ، ص : ٧٧)

والشريعة خطاب الله سبحانه وتعالي لعباده ، وكلامه الذي أوصله إلي خلقه ، بأمره ونهيه ، ليوضح به الحجة ، ويقيم المحجة . والحقيقة تصريفه فى خلقه ، وإرادته ومشيئته التى يختص بها من اختاره من أحبابه ، ويبعد بها من أبعده عن بابه .

وقد جمع الحق تبارك وتعالي بين الشريعة والحقيقة في آيات كثيرة منها : قوله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ **فهذه شريعة** .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

« سورة التكوير : الآية ٢٩ » . **فهذه حقيقة** . =

= أما الطريقة فهى السلوك العملى والمنهج التربوى عند الصوفية فى سلوكهم وترقيهم من الشريعة إلى الحقيقة .

ويصوغ القنائى تعبيراً هندسياً يوضح فيه العلاقة بين الشريعة والحقيقة فيقول : « الشريعة كالدائرة ، والحقيقة منها بمثابة المركز ، وابن الطريق هو ما يبدأ من أى نقطة على الدائرة حتى يصل فى النهاية إلى المركز ، والمركز بالنسبة لجميع الخطوط واحد .

ما أروعه من تعبير عندالقنائى يدل على علو همته ليدعونا إلى الدخول فى ساحة ذوقه وعلمه .

وإذا كانت الشريعة قائمة على العبادة ومراعاة الأوامر والنواهى ، فإن الطريقة قائمة على الحضور مع الله تعالى فى كل الأحوال . وبهذا فأول شيء وجب على الطالب هو الشريعة . والمراد منها أوامر الله ورسوله ، **أما** الطريقة فهى الأخذ بالتقوى ، وما يقرب المريد إلى الله زُلفى من قطع المنازل والمقامات ، وهى تنتهى بالحقيقة التى هى الوصول إلى المقصود ومشاهدة نور التجلى .

(الشافعى ، أحمد بن عياد : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية . القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الأخيرة ، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ، ص : ١٣٢) .

وعلى ضوء ماتقدم يتبين لنا أن الطريقة هى الحلقة الواصلة بين الشريعة والحقيقة ، فالحقيقة نتيجة للطريقة ، والطريقة نتيجه للشريعة ، ومعنى ذلك أن المريد إذا عمل بالشريعة بماهو أقرب إلى الورع ، فإنه يكون سالك للطريقة ، فإذا انفتحت له الطريقة بتمكنه منها ظهرت له حينئذ أسرار الحقيقة .

غرامة فكثر كلامه وصار يقول للناس لابد لكل إنسان يريد الطريق (*) إلى الله من أستاذ فيأكل من لحمهم وخبزهم بهذه المصيدة الخبيثة .

(*) **الطريق** أو الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله سبحانه وتعالى من قطع المنازل والترقى فى المقامات .

(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٧٧) .

وهذا يعنى أن الطريقة هى السلوك بالشريعة إلى الحقيقة .

(ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٤٤٧) .

وبعبارة آخرى نرمز للطريق الصوفى بالمثلث الذى يمثل ضلعيه كلاً من الشيخ والمريد ، كما تمثل قاعدته المجاهدة المتبعة فيه . فإن الشريعة والطريقة والحقيقة هى بمثابة الزوايا التى يقوم عليها التناسق والانسجام بين أضلاع المثلث ، لأنه بمقدار الاتساق بين تلك الزوايا يتم التناسق والترابط فى شكل المثلث بأكمله .

وإذا كانت الشريعة قائمة على العبادة ومراعاة الأوامر والنواهى حتى يكون حال المرء قائما على التسليم المطلق لله وحده فيكون متبعاً لامبتدعاً . فإن الطريقة قائمة على الحضور مع الله تعالى فى كل الأحوال .

وبهذا فإن أول شيء واجب على طالب الشريعة هو الأخذ بها ، والمراد منها أوامر الله ورسوله ، أما الطريقة فهى الأخذ بالتقوى وما يقرب المريد إلى الله زُلفى من قطع المنازل والمقامات ، وهى تنتهى بالحقيقة التى هى الوصول إلى المقصود ، ومشاهدة نور التجلى .

(ابن عياد الشافعى : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية ، ص : ١٣٣) . =

••

= وعلى هذا يتبين أن الطريقة هى الحلقة الواصلة بين الشريعة والحقيقة ، فالحقيقة نتيجة للطريقة ، والطريقة نتيجة للشريعة ، ومعنى ذلك أن المريد إذا عمل بالشريعة مما هو أقرب إلى الورع ، فإنه سيكون سالكاً للطريقة ، فإذا انفتحت له عين الطريقة بتمكنه منها ظهرت له أسرار الحقيقة . ويتضح من ذلك أن قوام الطريقة هو أن يكون المريد مع الله دائماً ذاكراً له تعالى فى كل أوقاته ، متحققاً بأوامره ونواهيه .

من هنا قال الصوفية : لله طرائق بقدر عدد الخلائق .

وقد قيل : الطريق إلى الله تعالى أربعة أشياء ، فمن حازها فهو من المحققين ، ومن حاز ثلاثاً فهو من الأولياء المقربين ، ومن حاز اثنين فهو من الشهداء الموقنين ، ومن حاز منها واحدة فهو من عباد الله الصالحين .

أولها : الذكر ، وبساطه العمل الصالح ، وثمرته النور .

وثانيها : التفكر ، وبساطه الصبر ، وثمرته العلم .

وثالثها : الفقر ، وبساطه الشكر ، وثمرته المزيد منه .

رابعها : الحب ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها ، وثمرته الوصول إلى المحبوب .

(عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ، ص : ١٢٢ ـ ١٢٣) .

وفى هذا المقام يبيِّن ابن عربى الدواعى أو البواعث التى تجعل المريد يتحرك فى الطريق كالآتى :

أولاً : الدواعى وهى خمسة بواعث :

الهاجس النفسى « نقر الخاطر » ، والإرادة ، والعزم ، والهمة ، والنية . = =

ثانيها : البواعث ولها ثلاثة أنواع :

١ ـ **الرغبة** : وهي إما رغبة المجاورة في المعاينة ، أو رغبة فيما عنده ، أو رغبة فيه .

٢ـ **الرهبة** : وهي إما رهبة من العذاب ، أو رهبة من الحجاب .

٣ـ **التعظيم** : وهو إفراد الحق عنك أو جمعك به .

ثالثاً : الأخلاق : وقد قسمها إلى ثلاثة أنواع :

١ ـ **خلق متعد** : ويفترض فيه أن تكون العلاقة ذات طرفين ، كعلاقة شخص بشخص آخر ، أو أشخاص آخرين يتعدى إليهم الفعل سواء منفعة أو مضرة ، ولاتقوم به النفس تلقائياً ، بل إنه يستدعى سبباً خارجياً لقيامه .

٢ ـ **خلق غير متعد** : وهو لايتعلق بغير صاحبه كالتوكل مثلاً ، فهذا الخلق يمكن أن تقوم به النفس دون إثارة أو حاجة من الغير .

٣ ـ **خلق مشترك** : وتكون فيه العلاقة مشتركة بين جماعة وجماعة أخرى ، أي يشترك فيها أكثر من شخص سواء لطلب منفعة أو دفع مضرة .

رابعا : الحقائق : ويقسمها إلى أربعة أنواع :

١ ـ حقائق ترجع إلى الذات المقدسة .

٢ـ حقائق ترجع إلى الصفات المنزهة ومثالها النسب .

٣ـ حقائق ترجع إلى الأفعال وهى « كن » وأخواتها .

٤ ـ حقائق ترجع إلى المفعولات وهى الأكوان والمكونات .

ويجعل نفسه أستاذاً عارفاً (*) بالله تعالى وهو جاهل به . ومن هو جاهل كيف يدعو الخلق إلى من لايعرفه كما سيأتى إيضاحه .

= ويرى الإمام أبو العزائم أنه لابد للمريد قبل الدخول في الطريق من أن يتأدب بآداب الشريعة العامة ، ويتلقى العقيدة الحقة من أهلها ، ويتعلم أحكام العبادة والمعاملة .

(أبو العزائم ، محمد ماضى : دستور آداب السلوك ، ص : ١٠) .

ولقد قيل : أصول الطريق هو إقبالك على الحق وإدبارك عن الخلق .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ٦٩) .

كما قيل : أول الطريق التوبة وآخره اتباع أحسن ما أنزل الله .

(عبد الحليم محمود : القرآن والنبى . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ص : ١٦١) .

فالطريق إلى الله هى آثاره التى تدل عليه ، وهو طريق وحيد ، والعقل والفكر والعلم شروط أساسية لسالك هذا الطريق .

(*) **المعرفة :** المعرفة فى اللغة إنما تعنى : العلم . أى معرفة المعلوم على ماهو عليه ، فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم . وكل عالم بالله عارف ، وكل عارف بالله عالم .

وقد قيل : كمال المعرفة أن تعرف من أنت فلا تتعدى قدرك .

(أبو العزائم ، محمد ماضى : شراب الأرواح ، ص ١٧) .

ولقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولخواص الصحابة والتابعين علوم إلهية قدسية ومعارف ربانية وحكم أشرقت على قلوبهم =

= من متابعة النور المحمدى ، والعقيدة المحمدية، والروح المحمدى، وما تحتويه من علوم ومعارف قلبية باطنية كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لايبدى بها إلا لأهلها أو شرعية ظاهرة وهى لعموم المسلمين . ويقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

ومن مأثور حكمه : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع » .

ومن أقوال جعفر الصادق : لامعرفة إلا بعمل . فمن عرف دلته المعرفة على العمل . ومن لم يعمل فلا معرفة له .

وقال الإمام الكاظم : « إن الله تعالى أكمل للناس الحجة بالعقول . وقد جعل العقل دليلاً على معرفته .

وقال معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه : « تعلموا العلم فإن تعلم العلم خشيه ، وطلبه عباده ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قربه . وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقرين عند الرفقاء ، ومنار سبل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة هداة ، لأن العلم حياة القلوب ، ونور الأبصار ، وقوة الأبدان ، يبلغ به العبد منازل الأبرار ، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء» .

وقوله تعالى:﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ « سورة آل عمران : الآية: ٧ » .

ويرى الشيخ محيى الدين بن عربى أن العلم بالله أعظم من المعرفة بالله ، ويستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

« سورة آل عمران : الآية: ١٨ ».

بينما يرى الإمام القشيرى أن المعرفة تتعدى بنفس لفظها ، بخلاف العلم . وقد قيل فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

« سورة الزمر : الآية: ٦٧ ، سورة الأنعام : الآيخ: ٩١ » .

أى ما عرفوه حق معرفته .

لذلك نقـول :« إن كل من لايعرف الله فـى الدنيا لايراه فى الآخـرة ، وكل من لايجد لذة المعرفة فى الدنيا لايـجد لذة النظر فى الآخرة ... ولايحصد أحد إلا مازرع ، ولايحشر المرء إلا على مـا مات عليه ، إن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفـته ، فأصل السعادة هى المعرفة التى عبر عنها الشارع بالإيمان » .

(محمود بن الشريف : الحب فى القرآن ، ص : ٢٧) .

وهنا ينبـغى أن نوضح نصـيب الإنسان من المعـرفـة ، يحصل الإنسـان من اللذة المعنوية بمعرفة العلوم والحـقائق التى بموجبها يتـرقى إلى لذائذ المعرفة بربه مالايشاركه فى ذلك غيره وبالقدر الذى شاء الله تعالى له . فترسخ فيه محبة ربه ذوقاً وتحقيقاً حتى يصل إلى مقامات القرب فى الحياة الدنيا وعند لقاء مولاه .

(الجيـلى ، عبـد الكريم : الـكهف والرقـيم فى شـرح بسم الله الرحـمن الرحيم ، ص : ٣٥) .

والمحبة ثمرة المعرفة . من هنا قال الحسن البصرى :« من عرف الله أحبه ، =

....

= ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ، ولايحب ربه الذى به قوام نفسه »

(محمود بن الشريف : الحب فى القرآن ، ص : ٢٧)

ولما سئل النورى عن أول فرض فرضه الله سبحانه وتعالى على عباده ؟ فأجاب: المعرفة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ « سورة الذاريات : الآية: ٥٦ » .

كما سئل أيضا : بم عرفت الله تعالى ؟ فقال : بالله . قيل : فما بال العقل ؟ قال : العقل عاجز لايدل إلا على عاجز مثله . ثم قال : « لما خلق الله العقل قال له : من أنا ، فسكت ، فكمله بنور الوحدانية ، فقال : أنت الله ، فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله .

ولقد سئل الثورى : بم عرفت ربك ؟ فأجاب : بفسخ العزم ، ونقض الهمة . يبينّ الثورى فى هذا النص حقيقة هامة وهى أن الإنسان لايقوم وحده دون مهيمن ومسيطر ، بل متحكم . ولو قام وحده لسار فى طريق دون فسخ للعزم ، أو نقض للهمة ، ولكنه يشاهد طيلة حياته ، أنه يعزم أحياناً فينفسخ عزمه فتنتقض همته ، لابسبب منه ، وإنما السبب من مدبر قهار ، لايعلو على سلطانه سلطان ، ولايسمو على تدبيره تدبير ، هو الله سبحانه وتعالى .

(عبد الحليم محمود : سفيان الثورى . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ، ص : ٤٣) .

هذا النص السابق يكشف لنا جانباً هاماً من جوانب شخصية الثورى عندما حدثنا بمنطق العقل الذى يتشابك مع منطق النقل فى هذا التحليل =

= السابق وبهذا الميزان الشرعي نستطيع أن نحكم بأن الثورى قدم جواباً للسائل لايستطيع بعده أن يقدم سؤالاً آخر . وهذا يدل على علو همة الثورى فى استخدامه المنهج العقلى القرآنى .

ومما يحكى أن رجلاً قال لبعض العارفين : كيف الطريق إلى الله ؟ فقال : لو عرفته عرفت الطريق إليه ، فقال : أترانى أعبد من لاأعرفه ، فقال المسئول : أو تعصى من تعرفه .

وقيل لبعض العارفين : ما علامة أنك تعرفه ؟ فقال : لا أهِمُّ بمخالفته إلا نادانى من قلبى منادٍ أستحى منه .

وقيل لآخر : متى عرفته ؟ فقال : ما عصيته منذ عرفته .

(القشيرى : شرح أسماء الله الحسنى ، ص : ١٠٢) .

لذلك ننبه فى هذا الصدد أنه لايصح لعبد مقام المعرفة بالله وهو يجهل حكماً واحداً من شرائع الأنبياء ، فمن ادعى المعرفة واستشكل حكماً واحداً فى الشريعة المحمدية أو غيرها فهو كاذب .

(عبد الحفيظ فرغلى على القرنى : ابن عربى ، ص : ١٣٠ ـ ١٣١) .

وقد قيل : بمقدار ما يعرف العبد من ربه يكون إنكاره لنفسه .

وننبه هنا إلى أن ذا النون المصرى هو الذى خطا بالمعرفة خطوة هامة عندما فرق بين معرفة العالم بالله ، وبين العلم بالله عن طريق العقل والبرهان ، فقرن المعرفة الأولى بالمحبة . وفى هذا يقول : « إن المعرفة الحقيقية بالله ليست العلم بوحدانيته التى يؤمن بها المؤمنون جميعاً ، كما أنها ليست من علوم البرهان والنظر التى هى من علوم الحكماء والمتكلمين والبلغاء ، ولكنها معرفة صفات الوحدانية التى هي لأولياء الله خاصة، لأنهم هم =

= الذين يشاهدون الله بقلوبهم ، فيكشف لهم مالا يكشفه لغيرهم من عباده .

ولقد أضاف فقال : المعرفة الحقيقية بالله تعالى هى أن ينير الله قلبك بنور المعرفة الخالص . كالشمس لاترى إلا بنورها . ولذا كانت حيرة العبد فى الله على قدر معرفته به .

ويحدثنا الحلاج من ساحة ذوقه فيقول : « من عرفه ما وصفه ، ومن وصفه ما عرفه ، عنت الوجوه لعظمته وكبريائه فى أرضه وسمائه ، وأنست قلوب أوليائه بشهود جلاله وجماله وبهائه ، وكلت الألسن عن شكر آلائه وأفضاله ونعمائه ، وقصرت المعارف عن ذاته وصفاته وأسمائه ، وحارت العقول فى نزوله وارتفاعه واستوائه !!! » .

(طه عبد الباقى سرور : الحلاج ، ص : ٧٥)

هكذا تأتى المعرفة إلى القلب ، وهى تأتى من وجهين : من عين الجود ، ومن بذل المجهود .

وقال أحد الحكماء : العارفون يعرفون بالأبصار ما تعرفه الناس بالبصائر ، ويعرفون بالبصائر مالايدركه أحد غيرهم ، ومع ذلك فهم لايأمنون على نفوسهم من نفوسهم .

(الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج٢ ، ص : ١٤٣) .

وقيل للإمام على رضى الله تعالى عنه : بم عرفت ربك ؟ فقال : بما عرفنى به نفسه ، لاتشبهه صورة ، ولايدرك بالحواس ، ولايقاس بالناس ، قريب فى بعده ، بعيد فى قربه ، أمام كل شىء ولايقال شىء أمامه ، داخل فى الأشياء لاكشىء ، ولا من شىء ، ولا فى شىء ، ولابشىء ، سبحان من هو هكذا ولاهكذا غيره .

(الطوسى : اللمع ، ص : ١٧٩) . =

= فالقصد هنا هو معرفة المعتقد الإسلامى . والمعرفة الإلهية فى الفكر الإسلامى غير المقيد بالقوالب الفقهية ، والمقدمات الإستدلالية الكلامية .

ومانسب للإمام علي إنما هو تصوير للوحدانية المطلقة ، كما هو تصوير دقيق للذات المحيطة بكل شيء ، دون اتصال بشيء .

وإنه ـ كما قال الإمام جعفر الصادق ـ من زعم أن الله في شيء ، أو من شيء ، أو على شيء ، فقد أشرك ، إذلو كان على شيء لكان محمولاً ، ولوكان في شيء لكان محصوراً ، ولوكان من شيء لكان محدثاً .

ومع هذا فهو عالم بكل شيء ، لأن المعرفة جوهره ، وهو القدير لأن القوة جوهره ، وهو المحب لأن الحب جوهره أيضاً . ليس لأن هذه الصفات تبتعد عن جوهره . إن شروط الزمان والمكان لاتنطبق كلية عليه .

وهو نفس ماذهب إليه المعتزلة من أن الله « عليم بذاته » ، و« قادر بذاته » و« حي بذاته » ، دون تباين بين الذات والصفات ، فلايعني وجود معرفة وقوة وحياة فيه أنها جزء من جوهره ، وإلا فإن حسبان هذه الصفات صفات خالدة ومنفصلة ، يمكن الجنوح بها إلى تعدد ذاتية الخالق سبحانه وتعالى .

(كامل سعفان : سبحان الله ، ص : ٥٧ ـ ٥٨) .

ومما قاله البسطامي : عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله .

هكذا ينبغي أن يتفطن أصحاب العقول إلى أن المعرفة لاتنال بالنظر الفكرى ، ولابضرورات العقول ، فلم يبق إلا أن يكون حصولها عن تجل إلهي في حضرة غيبية بمظهر من المظاهر .

فكل دليل تستدل به على معرفة الله تعالى أنت أظهر منه ، لأن كل ما كان=

= له باب مفتوح في صدره ـ كما يقول جلال الدين الرومي ـ يرى في كل ذرة شمساً .

فليس العلم بكثرة الرواية ـ كما يقول الإمام مالك ـ إنما هو نور يضعه الله تعالى في القلب .

وقد قيل : « إن اللسان مرآة القلب ، والقلب مرآة الروح ، والروح مرآة الحقيقة الإنسانية ، والحقيقة الإنسانية مرآة الحق سبحانه وتعالى ، والحقائق الغيبية تصل إلى اللسان من غيب الذات بقطع هذه المسافة البعيدة » .

وعلى هذا يمكن تفسير قول الصديق رضي الله تعالى عنه : « سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته » .

فالمعرفة اللائقة به سبحانه وتعالى رهن بقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ « سورة الأنعام : الآية ١٠٣ »

فمادامت الأبصار لاتدركه ، ومادام « لطيفاً » فكل المحاولات لن تصل إلى الحقيقة الكاملة ، وإن حققت برد اليقين .

هذا هو مقام المعرفة بالله تعالى لايصل أحد فيه إلى حدّ يعرف الله تعالى كما يعرف نفسه لأن الحق يستأثر عن عباده بعلم آخر لايذوقه ملك مقرب ولانبي مرسل . إذلو علم العبد ربه كما يعلم تعالى نفسه لساوى ربه في العلم به ولاقائل بذلك فلابد من الجهل به تعالى ولو بوجه من الوجوه .

قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾

« سورة البقرة : الآية ٢٥٥ » .

ولم يبلغنا حصول هذا المقام لأحد . تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً . =

= ومن هنا قال العارفون : سبحان من كان عين العلم به عين الجهل به ، وعين الجهل به عين العلم به ، وسبحان من لايعرف إلا بأنه لايعرف . أى أنه يعرف المعرفة الممكنة للخلق فقط دون المعرفة غير الممكنة .

(الشعراني :كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان ، ص : ٣٣).

ولقد نهانا الله عن التفكير فى ذاته بقوله تعالى :﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ « سورة آل عمران : الآية: ٢٨ » .

أي لاتتفكروا فيها فإن العقول ليست لها فى معرفة كنه ذات الله قدم .

من هنا ذهب أهل الحق إلي أن معرفة الله وطاعته واجبة بإيجاب الله وشرعه لابالعقل فقد أسكنتهم خشية الله وعجزت عن التعريف بذاته ألسنتهم .

(السيد المنوفى : التصوف الإسلامى الخالص ، ص : ١٩).

وسئل الإمام على رضى الله تعالى عنه : فقيل يأمير المؤمنين أتعبد من ترى أو من لاترى ؟ فقال : لا ، بل أعبد من أرى لارؤية العيان ولكن رؤية القلب .

كما قيل للإمام جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه : هل رأيت الله عزوجل ؟ فقال : لم أكن لأعبد رباً لم أره . قيل : وكيف رأيته وهو الذى لاتدركه الأبصار ؟ قال : لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان . لايدرك بالحواس ولايقاس بالناس .

وسئل بعض العارفين عن حقيقة المعرفة ؟فقال : تخلية السر عن كل إرادة وترك ما عليه العادة ، وسكون القلب إلى الله تعالى بلا علاقة ، وترك الالتفات منه إلى ما سواه ، ولايمكن معرفة كنه ذاته ولامعرفة كنه صفاته عزو جل ، ولايعرف من هو إلا هو تبارك وتعالى والمجد لله وحده . =

= كما قال ذو النون : حقيقة المعرفة اطلاع الحق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار .

وسئل بعض العارفين أيضا : متى يعرف العبد أنه على تحقيق المعرفة ؟

فقال : إذا لم يجد فى قلبه مكاناً لغير ربه .

وقال بعضهم : حقيقة المعرفة مشاهدة الحق بلا واسطة ولاكيف ولاشبهة .

(الغزالى : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ص : ٤٤ ـ ٤٥) .

فإن قيل : فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى ؟

فالجواب : نهاية معرفتهم هو أن ينكشف لهم استحالة معرفة حقيقة ذات الله تعالى لغير الله تعالى . وإنما اتساع معرفة العارفين بالله تعالى إنما يكون فى معرفة أسمائه وصفاته ، فبقدر ما ينكشف لهم من معلوماته وعجائب مقدوراته وبدائع آياته فى الدنيا والآخرة يكون تفاوتهم فى معرفته سبحانه وتعالى .

(الغزالى : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، مصدر سابق ، ص : ٧٤).

هذه هى المعرفة اليقينية بالله تعالى هى معرفة صفاته تعالى المشتقة من اسمه ، وذلك كما يستدل بالكتابة على وجود الكاتب رغم أنه لم ير الكاتب نفسه ، ولايعرف شخصه ، فالعارف مهما بلغ من اتساع المعرفة ومهما تقدم فى طريق الكشف والمعاينة لن ينكشف له إلا صفات الله وأفعاله ، وليس ماهيته أو جوهره .

والمعرفة التى تتم فى حال الفناء عند العارفين إنما هى إدراك مباشر يتميز بالصدق والوضوح وتنأى عن كل ماهو مادى ، أو ما يتعلق بموضوعات عالم الحس ،كما أن الحواس العادية لاتلعب أى دور مهما كان صغيراً =

= فى إدراك موضوعات هذا النوع من المعارف السامية . ولاتتأتى هذه المعرفة ولايتم هذا الكشف إلا عندما يغيب السالك عن أمور الدنيا ويضعف العالم المحيط أهميته بالنسبة له حال فنائه بحيث يبدو الطريق ممهداً إلى ما يبدو حكمة أسمى وعلماً لدنياً يأتى من الخالق هبة ومنحة وليس كسباً للسالك بأى معنى .

فهناك إذن صلة وثيقة بين المعرفة والفناء حيث يزيل الفناء الستار الموجود على النفس فتظهر الأشياء على حقيقتها .

(محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض والحب الإلهى . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ، ص : ٢٤٥) .

وننبه هنا إلى أن الفناء يكون فناء فى العرفان لافى الأعيان .

(عبد البارى محمد داود : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى ، ص : ١٧٦) .

والعارفون بالله ، فهم يتحركون بحركة الله ، وينطقون عن الله بما يجرى على ألسنتهم ، وينظرون بنور الله فى أبصارهم .

ويقول القشيرى فى هذا المعنى : أفناه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق ، ثم فناؤه عن صفات الخلق بشهود الحق ، ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق .

(القشيرى : الرسالة ، ص : ٣٧) .

فالمعرفة رؤية لاعلم ، وعين لاخبر ، ومشاهدة لاوصف ، وكشف لاحجاب .

(ابن عطاء الله السكندرى : الله . القصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد ، ص : ٨٦- طبعة دار جوامع الكلم) . =

****

= والعارفون بالله تعالى - حسبما يرى ذو النون المصرى - فانون عن أنفسهم لاقوام لهم بذواتهم ، وإنما قوامهم من حيث ذواتهم بالله .

ويتضح من هذا القول أن العارفين بالله لايتحركون ، ولا يسكنون ، ولاينطقون ، ولايبصرون إلا عن الله ، وبالله ، ومع الله. لأن قمة المعرفة عندهم التوحيد والعرفان .

فإن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت فشاهدوه فى كل شىء ، وشاهدوا كل الكائنات به ، فكانت مشاهدتهم له به ولهم به ، فكانوا غائبين حاضرين ، وحاضرين غائبين ، على انفراد الحق بالغيبة والحضور ، فشاهدوه ظاهراً وباطناً ، وباطناً وظاهراً ، وآخراً وأولاً .

وقد قال بعض العارفين : « أبى المحققون أن يشهدوا غيرالله لما حققهم به من شهود القيومية وإحاطة الديمومية » .

ويؤيد ذلك قول الخراز لأصحاب الفراسة من العارفين : « للعارفين قرائن أودعوها علوماً غريبة ، وأنباء عجيبة ، يتكلمون بها بلسان الأحدية ، ويخبرون عنها بعبارة الأزلية .

ويقول ابن عطاء الله السكندرى : « من عرف الحق شهده فى كل شىء ، ومن فنى به غاب عن كل شىء ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئاً » .

وتحليل هذا النص يوضح : من عرف الحق : أى من تحقق فى مقام المعرفة بالله تعالى . وفى قوله : شهده فى كل شىء : أى رآه ظاهراً فى أعيان الموجودات ، فلايستوحش من شىء ، يأنس به فى كل شىء ، لأن العارف إذا كان فى مقام البقاء يرى الخلق ، ويرى الحق ظاهراً فى كل الأشياء ، وقائماً بها ، مع عدم غيبته عن نفسه وحسه . =

....

= وفى قوله : ومن فنى به : أى من تحقق فى مقام الفناء ، غاب عن كل شىء ، فلا يرى فى الوجود ظاهراً إلا الله تعالى ، ويغيب عن كل شىء سواه جلّ وعلا ، حتى عن نفسه وحسه ، فلا يشاهد لنفسه وجوداً أو تحققاً فلايكون منه على الأشياء اعتماد ، ولاله إليها استناد .

وفى قوله : ومن أحبه : أى من أحب الله تعالى لم يؤثر عليه شيئاً : لم يقدم عليه شيئاً من مراداته ، وشهواته ، فضلاً عن غيرهما من الخلق ، لأن حقيقة المحبة أخذ جمال المحبوب حتى لايدعه لغيره فى حال من الأحوال .

ويعود ابن عطاء الله فيقول : « إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ماليس لك حتى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك » .

والعارفون بالله كما يصفهم ابن عجيبة : « يشهدون ما من الله إلى الله ، يعنى أنهم غائبون عن أنفسهم لايرون إلا تصريفاً فى مظاهر أنواره .

فالعارف لايعرف إلا وجوداً واحداً هو الله تعالى على نحو ما نراه فى جانب وحدة الشهود عند ابن الفارض . حيث أوضح أن المعرفة ذوقية كشفية وليست عقلية نقلية .

والعارف هو من استطاع التحقق بالجمع بين الشريعة والحقيقة فوصل عن طريق ذلك إلى المعرفة بالله التى تتجلى للسالك فى أعلى مراتب الطريق .

ومن سمات العارف الواصل أن يكون جامعاً بين طاعة الله فى جوارحه عن طريق الالتزام برسوم الشريعة ، والغنى بالله فى باطنه بتخلية قلبه عما سواه .

(ابن عجيبة . إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ١٠٥) . ==

ومن شأن ذلك العارف المتحقق أيضاً أن تصير الشريعة عنده هي عين الحقيقة، والحقيقة عنده هي عين الشريعة ، ومن ثم يصيرعلمه كله بالله ولله.

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ، مصدر سابق ، ص : ٤٨) .

ومن علامات المعرفة أن يرى العبد نفسه فى قبضة العزة ، وتجرى عليه تصاريف القدرة ، ومن علامات المعرفة المحبة لأن من عرفه أحبه .

فالمعنى العرفاني للفناء يعنى : أن ترى الخلق بعين الفناء فيسقط عنك رؤيتهم والتزين لهم ، فهذا من جليل مقامهم . ويصبح المنهج العرفانى هو المنهج القائم على المعرفة الذوقية فى الوحدة الشهودية بما أجمله صاحب الحلية لأبى الحسين النورى . فقد قال : « أعلى مقامات أهل الحقائق انقطاعهم عن الخلائق ، وسبيل المحبين التلذذ بمحبوبهم ، وسبيل الراجين التأمل بمأمولهم ، وسبيل الفانيين الفناء فى محبوبهم ومأمولهم ، وسبيل الباقين البقاء ببقائه » .

وقد قيل : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه . وحقيقة المعرفة المحبة له بالقلب ، والذكر له باللسان ، وقطع الهمة عن كل شيء سواه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾

« سورة الذاريات : الآية: ٦٧ » .

قال ابن عباس فى تفسيره:« إلا ليعبدون» : إلا ليعرفون .

فمعرفة الله سبحانه وتعالى نور تشرق به القلوب وهي إنما تحصل لمن توجه إلى الله بكليته وانقطع بهمته وعكف عليه بقلبه ، فمن اشتغل بالأكوان وتوغل فيها أظلم قلبه لأنها قاطعة له عن نور المعرفة وحائلة بينه وبين =

....

= الحق فهى للبصيرة بمنزلة السحاب للشمس ، فوجب على المريد المتوجه الانقطاع عنها ، لأنه طالب للنور ، وإنما يتوصل إليه بالتخلى عن ضده وذلك بالتوبة والمجاهدة واللجؤ إلى الله تعالى .

(السيد دحلان : تقريب الأصول لتسهيل الوصول ، ص : ٢٠٠) .

وسئل الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنه عن المعرفة بالله تعالى هل هى كسب أم ضرورة ؟

فقال : رأيت الأشياء تدرك بشيئين ، فما كان منها حاضراً فبالحس وما كان منها غائباً فبالدليل . ولما كان الحق تعالى غير باد لحواسنا كانت معرفته بالدليل والفحص ، إذكنا لانعلم الغيب والغائبَ إلا بالدليل ، ولانعلم الحاضر إلا بالحس .

(الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ٧٣) .

ويهتف الشاذلى رضى الله تعالى عنه فيقول : كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف ؟! أم كيف يعرف بشىء من سبق وجوده كل شىء ؟!

(ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ، ص : ٤٢) .

والطريق إلى معرفة الله تعالى وصفاته الفكر والاعتبار بحكمه وآياته ولاسبيل للألباب إلى معرفة كنه ذاته .

وقد قيل : لوتناهت الحكم الإلهية فى حد العقول وانحصرت القدرة الربانية فى درك العلوم لكان ذلك تقصيراً فى الحكمة ونقصاً فى القدرة ، ولكن احتجبت أسرار الأزل عن العقول كما استترت سبحات الجلال عن الأبصار ، فقد رجع معنى الوصف فى الوصف وعمى الفهم عن الدرك ، ودار الملك فى الملك ، وانتهى المخلوق إلى مثله ، واشتد الطلب إلى شكله ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا .

(الشعرانى :الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ١٣٠) . =

= والمعرفة فيما يرى أبو يزيد البسطامى أقسام : معرفة العوام ، ومعرفة الخواص ، ومعرفة خواص الخواص .

(عبد الحليم محمود : أبو يزيد البسطامى . القاهرة : دار التراث العربى ، سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ، ص : ١٠١) .

فمعرفة العوام : معرفة العبودية ، ومعرفة الربوبية ، ومعرفة الطاعة ، ومعرفة المعصية ، ومعرفة العدو والنفس .

ومعرفة الخواص : معرفة الإجلال والعظمة ، ومعرفة الإحسان والمنة ، ومعرفة التوفيق .

ومعرفة خواص الخواص : معرفة الأنس والمناجاة ، ومعرفة اللطف والتلطف ، ثم معرفة القلب ، ثم معرفة السر تتناهى فى كل واحدة من هذه الأنواع مع الأخرى ولاتتعارض معها وجميعها ضرورية للسالك والعارف.

ولقد قيل : العارفون يعتبرون بالأسباب ويعجبون من التسبب ، فيزدادون بذلك هدىً وإيماناً بشهودهم المعطى المانع واحداً فى العطاء والمنع ، ولمعرفتهم بجريان الحكمة فيما جاءت به الشريعة .

ويقول الإمام على رضى الله تعالى عنه : « من عرف نفسه فقد عرف ربه ».

فالمعرفة اللدنية : هى معرفة خاصة يحظى بها الإنسان ولاينالها إلا أصحاب الورع والأتقياء السائرين فى طريق الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ « سورة الكهف : الآية ٦٥ » .

والمعرفة اللدنية غير العلوم الكسبية والعقلية ، إذ هى نور يقذفه الله =

....

= فى قلب عبده المؤمن المخلص ، فيصبح مشرقا بها ، بل يصبح علماً وعالماً ومعلوماً جميعاً ، فينال بقدر علمه وعمله بعضاً من الأسرار الإلهية ، أو العلوم الربانية التى لايمكن أن يحظى بمعرفتها فى أزمنة متطاولة عن طريق النظر أو الفكر .. لأنها فوق حدود العقل ، فلا يقدر العقل ـ مهما كان سليماً ـ على استيعابها أو الحكم عليها فهى تتعدى حدوده ومقاييسه وأحكامه ومنطقه .

وقد ذكر الإمام الغزالى : أن هناك أموراً تخفى على العقل بصفة عامة ، وأن ما يخفى عليه منها نوعان :

نوع قد تدركه بعض العقول ولكنه يبقى خفياً ومحجباً بالأسرار بالنسبة إلى معظم البشر .

ونوع آخر لايتسنى إدراكه لأى عقل إنسانى مهما بلغت حدته وقوة نفاذه ، وهو ذلك العظيم المطلق الذى جاوز جميع حدود العقل حتى لم تتصور الإحاطة بكنهه .

(الغزالى ، أبو حامد : المقصد الأسنى ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا . القاهرة : دار الطباعة المحمدية مكتبة الجندى ، سنة ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧٠ م ، ص : ١٧) .

إذن فالعقل الذى يوجب المعرفة بالله عند المعتزلة لايستطيع فى نظر الغزالى أن يؤدي دوره لأن مجال العقل هو عالم الشهادة وليس للعقل أى عمل فيما هو فوق مجاله . أى فى عالم الملكوت .

(الغزالى : مشكاة الأنوار ، تحقيق أبو العلا عفيفى . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ، ص : ٦٦) . =

ولعمرى أن الفلاحين وأهل الصنائع أحسن حالاً وأقرب إلى الله من هؤلاء المدعين لأنهم طول عمرهم فى أعمال شاقة فى نفع الخلق . وهؤلاء المدعون طول عمرهم ساعون فى ضرر الخلق لأنهم يقصدون بخلوتهم وريا ضتهم وذكرهم فى بعض الأوقات التمييز على الخلق والتمهيد لطريقتهم التى يطلبون أن يكونوا داعين إليها فيجوع أحدهم جوعاً مفرطاً حتى ينحرف مزاجه فينظر شموساً ونجوماً من شدة الجوع (*).

= (*) **الجوع** : الجوع ضد الشبع ، وهو اسم من جاع يجوع جوعاً .

(معجم ألفاظ القرآن ، مجمع اللغة العربية ، ج١ ، ص : ٢٢٥) .

وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ « سورة البقرة : الآية ١٥٥ » .

ولقد كان الجوع مسلكاً رئيسياً للأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . إذ كان وجودهم فى حال التجرد عن الدنيا ومشاغلها أمراً لابد منه لتحقيق السعادة الأبدية متفقين على استحسان الزهد فى الدنيا والتباعد عنها .

(إبراهيم على أبو خشب : يارسول الله . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص : ٢٤) .

وحال الأنبياء السابقين أعظم شاهد على ذلك :

لقد كان الخليل إبراهيم عليه السلام أزهد الناس فى الدنيا ، وكذلك =

فيظنون أن ذلك من علامات الطريق وأن من رأى سالك إلى الله تعالى وأن ذلك خبط فى ظلام . وما أمروا الخلق إلا بتعليم الآداب المتعلقة بمعاملة الله تعالى ومعاملة خلقه لا بأن ينظروا جبالاً وأودية وشموساً وأقماراً متوهمة يتخيلها المزاج عند الخرافة .

= ولده إسماعيل عليه السلام أوحى الله تعالى إليه اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم . قال : ومن هم ؟ قال : الفقراء الصادقون .

(الغزالى ، أبو حامد : الأربعين فى أصول الدين ، ص : ٢١٣) .

ومما روى عن نبى الله داود عليه السلام أنه قال : صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت وفر من الناس كفرارك من الأسد » .

(الغزالى : منهاج العابدين ، ص : ٤٧) .

ولقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ياموسى استعد للقائى ، وعليك بمدارع الجوع فتقمصها ، وظمأ الهواجر فتجرعها . ياموسى : الجوع مفاتيح طاعتى ، وسبب الوصول إلىّ . ياموسى : جالس أهل الظمأ تدم عليك نعمتى ، وجالس أهل المجاعة فهم الذين كشفت عنهم الظلام وأذقتهم طعم محبتى . ياموسى : الجوع لذة النفوس الخيرة ، ومصباح القلوب النيرة . ياموسى : عليك بالصيام فنعم الصاحب ، وقم فى غسق الدجى إذا رقد كل هاجع . ياموسى : الصوم نور قذفته فى قلوب المطيعين ، ولباس ألبسته أفئدة الورعين وهو مفتاح لأهل خدمتى وأهل عبادتى .

(عبد العزيز الديرينى : طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ، ص : ١٢٠) . =

ولعمرى إذا فرضنا أن أحدهم رأى من منتهى العرش إلى منتهى التخوم وأحاط علماً بجميع ما بينهما هل ذلك مقربٌ له إلى الله تعالى ؟ وهل يستحق على ذلك جزاء من الجنة أو غيرها ؟ فتأمل ذلك واعرف زمانك واخف مكانك والزم شأنك فمثال من يعمل شيخاً فى هذا الزمان مثل فقيه فتح المكتب قبيل الغروب وقف ينظر الأطفال ليقربهم وكل الأطفال انصرفوا من العصر .

= ويقول عيسى عليه السلام لأصحابه : معاشر الحواريين ، جوعوا لعل قلوبكم ترى ربكم ، وتنوير القلب بالجوع من روائع التجربة .

(ابن الخطيب :روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٤٧٠) .

ولقد كان الجوع حالاً من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فمما يروى عنه أنه ما شبع من خبز ولا شعير قط ، وأنه كان يربط الحجر على بطنه من الجوع ، وكان أكثر أيامه صائماً ، وكان يواصل فى صيامه ويتردد فى ذهابه إلى غار حراء للخلوة بثمرات يسيرة لأيام كثيرة .

(ابن هشام : السيرة النبوية . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، سنة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م ، ج ١ ، ص : ٣١٣) .

من هنا نرى أن نعمة التقلل من الدنيا أكبر من نعمة الإكثار منها لأنها طريق الأنبياء والأصفياء ، وأن التقلل أفضل وأكثرا أجراً . فشىء اختاره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه ولأهل بيته لاأكمل منه .

(النبهانى ، يوسف بن اسماعيل : الشرف المؤبد لآل محمد . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة الحلبى ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، ص : ٧٤) .
=

= ويؤيد هذا الحديث الذي رواه الديلمى فى مسند الفردوس عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « البسوا الصوف ، واشربوا ، وكلوا فى أنصاف البطون .. تدخلوا فى ملكوت السماء » .

وفى ضوء هذا التحليل السابق للجوع عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يظهر لنا جلياً أن العابد لله حق عبادته لابدله من التسلح بسلاح الجوع ولا يلتفت إلى الشبع ، لأن الجوع يرقق القلب ، ويصبح المرء خاشعاً وخاضعاً لله سبحانه وتعالى .

من هنا نجد صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتخذوه قدوة لهم إذكان الجوع عندهم وسيلة للقرب من الله وتربية للنفس والتسامى بها عن حظوظها حتى تنقاد إلى طريق الحق ، وتتأدب بآداب الله تعالى . ومن هنا كرهوا البطنة .

ولقد كان الجوع خلقاً من أخلاق الصوفية وصفة من صفاتهم ، وهو أحد أركان المجاهدة ، ولقد اعتادوا الجوع والإمساك عن الطعام فوجدوا ينابيع الحكمة فى الجوع لكونه رياضة فى مجاهدة النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال .

(ابن عربى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١٧) .

لذلك كان الجوع من أجلّ خصال المؤمن وأكثرها تعباً ، إذا صح له فيه النية الخالصة لله تعالى .

(أبو طالب المكى : علم القلوب ، تحقيق عبدالقادر عطا . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون تاريخ ، ص : ٢١٤) .

ويحذرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من البطنه فى قوله : =

....

= ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

(رواه الترمذى من حديث المقدام » .

ولقد جاء في وصف أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن أحدهم كان يأكل الأكلة فيتمنى لو بقيت في جوفه كما تبقى الآجرة فى الماء فتكون زاده من الدنيا .

فهذا هو الصديق يقول : « ما شبعت منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة ربى ، وما رويت منذ أسلمت اشتياقاً إلى لقاء ربى ، لأن فى كثرة الأكلة قلة فى العبادة » .

(الغزالى : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ص : ١٤) .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : إياكم والبطنة فإنه ثقل فى الحياة ونتن فى الممات .

(الشعرانى : تنبيه المغترين ، ص : ١٣٠) .

والجوع عند الصوفية تطهير وتزكية للنفس ، وتأديب روحي ، وتعليم ربانى ، يعالج الشر من منبعه ، ويداوى الداء من مصدره ، فيستأصله ، هو وسيلة العابدين ، وروضة المخلصين ، وأحسن صلة بين العبد ورب العالمين

لذلك كان على العاقل أن يتسلح بالجوع ويتخذه طريقاً لعبادة الحق سبحانه وتعالى . ومن هنا أيضاً تتحقق عبوديته لله عزوجل بالكمالات الروحية وتخليه عن الأوصاف النفسانية وتسليمه الأمور جميعها إلى الله سبحانه وتعالى اعترافاً منه بملكه وثقة فيه بعدله . =

= (صالح الجعفرى : أسرار الصيام للخواص والعوام ، ص : ١٥) .

فالجوع عند الصوفية مخالفة للنفس وتربيتها ، كما أنه رياضة من الرياضات البدنية يجعل النفس تسير فى طريق الاستقامة والهداية والطاعة لله سبحانه وتعالى . ومن هنا يأتيها الفتح وتكون فى معية الحق .

لذلك كان الخير كله فى معاداة النفس من حاجتها جملة فى الأحوال كلها، لأن مخالفة النفس ومفارقة أهوائها يجعل الإنسان قلبه مع الله. ولن يتم ذلك إلا بالجوع .

(ابن عبد الله الباهلى الأشبيلى : الذخائر والأعلاق ، ص : ١٩) .

فالنفس خلقت جاهلة ظالمة فهى لجهلها تظن أن شفاءها فى إشباع هواها ، وإنما فيه تلفها وعطبها ، فالهوى أكبر أدوائها ومخالفة النفس بالجوع أعظم أدويتها .

(ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص : ١٨٥) .

وعلى ذلك يصبح الجوع ذلاً للنفس بكسر شهواتها حتى لاتقع فى الغفلة عن الله تعالى .

وبعبارة أخرى : سجن النفس فى الجوع حتى لاتقع فى المعاصى .

هكذا يصبح للجوع منزلة عالية عند الصوفية يمكن إجمالها فى النقاط التالية :

١ ـ صفاء القلب ونفاذ البصيرة فإن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب .

٢ـ رقة القلب وصفاؤه الذى يتهيأ لإدراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر .

وفى ذلك يقول أحد الصوفية : الجوع آلة العبادة ، فإن المعدة إذا امتلأت قعدت الأعضاء عن العبادة .

=

= كما قال أبو سليمان الداراني : أحلى ما تكون العبادة إذا لصق ظهرى ببطني . وعلى ذلك يؤدى الجوع إلى لذة المناجاة مع الله وحلاوة التعبد .

٣ ـ ذل النفس وزوال البطر والانكسار .

٤ ـ يتذكر المرء بالجوع ألم البلاء وعذابه .

٥ ـ كسر شهوات المعاصي والاستيلاء على النفس ، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات .

٦ ـ رفع النوم ودوام السهر ، فإن شبع شرب كثيراً ، من كثر شربه كثر نومه .

ولذلك قال بعض الصوفية : معاشر المريدين لاتأكلوا كثيراً وترقدوا كثيراً فتخسروا كثيراً .

٧ ـ تيسير المواظبة على العبادة ، فالأكل يمنع من كثرة العبادة ، فمن كثر أكله كثر تردده إلى الخلاء .

٨ ـ صحة البدن ودفع الأمراض فإن سبب الأمراض كثرة الأكل .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « المعدة بيت الداء »

(رواه الترمذى) .

وفى الخبر المشهور : « صوموا تصحوا » .

رواه أبو نعيم فى الحلية ، والطبراني ، عن أبى هريرة .

٩ ـ خفة المؤنة . فإن من تعود قله الأكل كفاه من المال القدر اليسير .

١٠ ـ التمكن من الإيثار والتصدق .

ولعمرى من شرط الشيخ (*) أن يعطيه الله القوة .

(*) **الشيخ :** فى اصطلاح المتأخرين من الصوفية أن الشيخ هو من كملت صفاته فى مراحل الطريق ويستطيع إرشاد المريدين وإعانتهم .

(قاسم غنى : تاريخ التصوف الإسلامى ، ترجمة صادق نشأت ، مراجعة أحمد ناجى القيسى ، ومحمد مصطفى حلمى . القاهرة : دار النهضة المصرية ، سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، ص : ٣١٧) .

وهنا نوضح أن الشيخ لكونه عارفاً مدققاً لابد وأن يكون عنده دين الأنبياء ، وتدبير الأطباء ، وسياسة الملوك ، وحينئذ يقال له أستاذ .

(عبد الحفيظ على القرنى : ابن عربى ، القاهرة : دار الكتاب العربى ، سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م ، ص : ١١٢) .

كما قيل : الشيخ هو من أزاح عنك كل حجبك ، وأمات نفسك قبل أن تموت ، وأجال بروحك فى عالم اللاهوت .

(ابن عربى : اصطلاحات الصوفية . القاهرة : عالم الفكر ، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص : ١٧) .

ويكاد يجمع الصوفية على ضرورة الشيخ لسلوك الطريق ، وإن تفاوتت عباراتهم فى ضرورته بين متطرف كالبسطامى يقول : « من ليس له شيخ فشيخه الشيطان » . وبين معتدل كالدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير أن تمارس فإنها تروق ولكنها لا تثمر . كذلك المريد أن لم يكن له أستاذ .

(أحمد محمود صبحى : الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ، ص : ٢٤٨) . =

فيدفع عن مريده (*) كل عارض فإذا صار الشيخ نفسه لايقدر أن يدفع عن نفسه عارضاً .

= والقول السابق للبسطامى يدل على شطحه وغيبته ولاينسجم مع مفهوم الشريعة الإسلامية .

ومن هنا ابن عطاء الله : « ليس شيخك من سمعت منه ، وإنما شيخك من أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك الذى سارت فيك إشارته ، وليس شيخك من دعاك إلى الباب إنما شيخك الذى رفع بينك وبينه الحجاب ، وليس شيخك الذى واجهك مقاله وإنما شيخك الذى نهض بك حاله » .

(*) **المريد** : المريد عند الصوفية هو الذى صح له الابتلاء ودخل فى جملة المنقطعين إلى الله عزوجل . أما المراد فهو العارف الذى لم يبق له إرادة وقد وصل إلى النهاية وعبر الأحوال والمقامات . فالمريد إذن هو طالب الحقيقة ، والمراد هو مطلوب من الحق .

المريد مجاهد يجاهد ، والمراد موهوب ، المريد موجود ، والمراد فان ، المريد يعمل ، والمراد لايرى العمل ، بل يرى التوفيق والمنة ، المريد يكابد بسلوك الصراط المستقيم ، والمراد قائم على مجمع كل سبيل ، المريد ينظر بنور الله ، والمراد يخالف هواه ، المريد يتقرب إلى الله ، والمراد يتبرأ من روحه ومناه ، وهكذا فإن المراد مقرب من الله فينعم عليه بالأسرر الإلهية والتجليات الربانية ، والفتوحات الرحمانية ، والفيوضات القدسية ، فيكون شريعته حقيقته ، وحقيقته شريعته ، فلا شريعة بلا حقيقة ، ولا حقيقة بلا شريعة .

(حسن محمد الشرقاوى : الشريعة والحقيقة ، ص : ١٨١) . =

والبــلاء (*) نازل عليــه كــالمطر فكيف يقــدر أن يـدفع عن تلميذه ؟

= (*) **البلاء أو الابتلاء :** يعبر لغوياً عن البـلاء والابتلاء بمعنى الامتحان والاختبار . ويكون إما بالخير ، وإما بالشر ، أو إما بالنعمة ، وإما بالنقمة .

وفى قولـه تعالى : ﴿ ولنبلونكم ... ﴾ بمعنى : ولنختـبرنكم ، وهى من بلا يبلو.

(محـمود شكرى : شـرح وتفسيـر كلمات القرآن الكـريم . القاهرة : دار التراث الإسلامى ، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، ص : ٢٠) .

أما عن تعريف الابتـلاء الاصطلاحى فهو امتـحان واختبار من الله سـبحانه وتعالى لعبده الصادق ليعرف مدى صدقه وإخلاصه فى محبته .

وبذلك يكون الابتلاء تجربة واخـتباراً وأنه مفتاح دار السـعادة أودار الشقاء فى الدنيا والآخرة على السواء . والله سبحانـه وتعالى يختبر عبده المخلص ليظهر كيف حاله بعد البلاء .

وهذا وارد فى قوله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا ﴾

« سورة الأنفال : الآية: ١٧ » .

وقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴾

« سورة الأحزاب : الآية : ١١ » .

وهذا الابتـلاء أيضا يعنى اخـتبـار الله تعالى للمـؤمنين ، حتى يظـهر صدقـهم وإخلاصهم وتوكلهم على الله فى كلِ الأمور ، كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٤٩ »

والأصل فى الابتلاء والفتنة أنه الاختبار والامتحان . والإنسان لايمتحن =

= إنساناً إلاّ إذا جهل قواه ومواهبه العلمية أو الخلقية أو الفنية أو العقلية ، فالامتحان هو الوسيلة العلمية للوقوف على مبلغ معرفة الإنسان ونصيبه من العلم أو الجهل ، فهو أحد الموازين التى تكشف قوى الإنسان ، أو أحد المقاييس التى تظهر ما استتر أمره على الناس .

أو الممتحن (بكسر الحاء) ، ولكن هذا المعنى مستحيل بالنسبة لله عزوجل لأنه عليم بذات الصدور ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وقد أحاط بكل شىء علماً .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ « سورة ق : الآية : ١٦ » .

وفى بعض المسانيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرفوعاً :

« إذا أراد الله بعبد خيراً صب عليه البلاء صباً »

وقال كعب الأحبار : أجد مكتوباً ، فى التوراة لولا أن يحزن عبدى المؤمن لعصبت الكافر بعصابة عن حديد لايصدع أبداً .

وذكر ابن أبى الدنيا أن رجلاً قال يارسول الله : ما الأسقام ؟

قال : أو ما سقمت قط ؟ قال : لا . فقال : قم عنا فلست مؤمناً .

من هنا يتضح أن البلاء موكل بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكذلك لايخلو العلماء والأولياء عن الابتلاء . ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب الإيذاء وأنواع البلاء .

فالدنيا دار ابتلاء وعمل . والإنسان هو المقصود منها . وهو موضع الامتحان أو الاختبار . =

....

= والبلاء إنما يكون على قدر الرجال . فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودنيا ، فالمؤمن الكامل الإيمان لايختلج فى قلبه اعتراض ، ولايساكن نفسه فيما يجرى من وسوسة ، كلما اشتد البلاء عليه زاد إيمانه وقوى تسليمه .

هكذا يتضح أن الابتلاء يكون على قدر الرجال من حيث تفاوتهم فى درجته . وهنا يظهر قدر قوة الإيمان . فالناس يستوون فى العافية ، فإذا نزل البلاء تباينوا .

كما أن الابتلاء بمعنى البلاء الحسن ، أى النصر من عند الله تعالى .

فالله يختبر عبده المخلص ليظهر كيف يكون حاله بعد البلاء ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا ﴾

« سورة الأنفال : الآية: ١٧ »

أى الابتلاء بمعنى النعمة والمنة الإلهية والعطايا الربانية . هذا وارد فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾

« سورة الإنسان : الآية: ٢ » .

ويجوز أن يكون البلاء من الله مالايغدق على أحدهم ، كما يجوز أن يكون نقصاً فى المال ، أو الولده ، أو جوعاً ، أو خوفاً ، وذلك وارد فى قوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

« سورة الأنبياء : الآية: ٣٥ » .

فإذا ابتلى الإنسان بالشر ولم يكن صابراً مجاهداً راضياً ، اعترض على ابتلاء الله وخرج عن طريق الطاعة والإخلاص ، فسقط وانتكس وأصبح = =

من الخاسرين ، فلو صبر على ما ابتلاه الله به ورضي بما قسم الله له لأنعم الله عليه بنعمة من عنده ورحمة ورضوان ، ووصل إلى منتهى غاية السالكين .

وهناك الابتلاء في العقيدة ، وهو أقوى أنواع الفتن وأشدها ، وكذلك الابتلاء بالمرض في الأبدان ، والابتلاء يكون بزيادة المال والولد .

قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

« سورة الأنفال : الآية: ٢٨ » .

وكذلك يكون الابتلاء برفع درجات بعض الناس عن بعض .

قال تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ « سورة الأنعام : الآية ١٥٦ »

وهكذا يتضح أن الابتلاءات متعددة فمنها ما يتصل بالخير أو الشر ، ومنها ما يتصل بالنعمة أو النقمة ، ومنها ما يتصل بالصحة والمرض ، ومنها ما يتصل بالغنى أوالفقر .. إلى غير ذلك من أنواع الابتلاءات التى يبتلى بها الحق تبارك وتعالى عبده ليجربه فيكون من الشاكرين أم من الناكرين ؟!

وكذلك يتعرف على معدن صدقه ، وحقيقة طاعته ، وإخلاصه فى دعواه عن حاله الذى هو فيه .

ويمتحن الحق سبحانه وتعالى عبده لأسباب عديدة نذكر منها :

أولا : استحضار عظمة الله سبحانه وتعالى فى قلبه مع التدبر فيكون العبد ذاكراً لله راجعاً عن غيه ، مستفيقاً من غفلته .

ولذلك يتجنب العبد المعاصي والآفات مبتعداً عن هوى نفسه .. مقبلاً على

••

طريق ربه ، متواضعاً لله بعد أن أعصاه غروره وأفسده تجبره وتكبره . =
= (حسن محمد الشرقاوي : نحو علم نفس إسلامي ، ص : ٥٥ » .

ثانياً : يتعرض العبد للابتلاء في دار الدنيا إما بالخير وإما بالشر . وهنا يظهر العبد الصادق من غير الصادق . فالمؤمن الصادق يسلم أمره إلى الله . ويرضى بما قسم الله له . ويصبر على ماأتاه من اختبارات وامتحانات .. أما المنافق فيظهر سخطاً وتبرماً وافتراءً على الله وكذباً .

(عبد القادر الجيلاني : فتوح الغيب ، ص : ١٢٠) .

والعبد الصادق يحذر في الابتلاء من الاعتراض على الله أو الرضا عن نفسه خوفاً من الوقوع في الضلالات والانتكاس لأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى يجرب عباده المخلصين وغير المخلصين ، والصابرين وغير الصابرين ، والمجاهدين وغير المجاهدين تأييداً . لقوله تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾

« سورة محمد : الآية : ٣١ » .

والابتلاء بهذا المعنى تجربة للحكم على الصابرين والصادقين والمجاهدين والعاملين .

ولقد سلك الصوفية مسلكاً شرعياً عندما تعرضوا للبلاء ، وها هو الإمام الجنيد يقسم الناس إلى طبقات فيقول : البلاء سراج العارفين ، ويقظة المريدين ، وصلاح المؤمنين ، وهلاك الغافلين » .

(الغزالي : مكاشفة القلوب . القاهرة : دار الزهراء ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص : ٢٥) .

ولقد سئل المحاسبى عن البلاء من الله للمؤمنين كيف سببه ؟

فأجاب : البلاء على ثلاث جهات : الأولى : على المخالطين نقم وعقوبات ، والثانية : على المستأنفين تمحيص الخبايات . والثالثة : على العارفين من طريق الاختبارات .

فقيل له : صف تعبدهم فيما تعبدوا به ؟ فقال : أما المخالطون فذهب الجزع بقلوبهم وأسرتهم الغفلة فوقعوا فى السخط ، وأما المستأنفون فأقاموا لله بالصبر فى مواطن البلاء حتى تخلصوا ونجوا منه بعد مكابدة ومؤنة ، وأما العارفون فتلقوا البلاء بالرضا عن الله عزوجل فيما قضى .

(أبو نعيم : حلية الأولياء ، ج ١ ، ص : ٩٢) .

وقال الجنيد : سألت سريا السقطى ، هل يجد المحب ألم البلاء ؟

فقال : لا ، قلت : وإن ضرب بالسيف . قال : نعم ، وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة على ضربة .

(الغزالى : المحبة والشوق والأنس والرضا ، ص : ١٠٧) .

كما قال : إن أهل البلاء لما اتصلوا بحادث الحق فيهم ، وجارى حكمه عليهم ، تغربت أسرارهم ، وتاهت أرواحهم عمر الأبد ، لاتأويها المواطن ، ولاتجنها الأماكن ، تحن إلى مبتليها حنيناً ، وتئن بفناء النائى عنها أنيناً ، قد شجاها فقدانها ، وذلها وجدانها ، أسوفة عليه ، موجعة لديه ، متشوقة فى الوجد إليه ، أعقبها بها ظمأ ، ويزيد الظمأ فى أحشائها نماءً ، فهى القلقة بمعرفتها ، السخية بفقدانها .

وقال أيضاً : الفقر بحر البلاء ، وبلاؤه كله عز .

= وينتقل بنا الإمام الجنيد إلى ساحة ذوقه فيقول : « وإنما جرت سنة البلاء على أهل البلاء من هاهنا جاذبوا وأقاموا ولم ينخدعوا » .

ويشير هذا النص إلى حال الفناء الذى لاوعى فيه بالآثار ، ولايمكن الاحساس بالشفاء إلاَّ بالأمرين ، أو بالثنائية ، ولاوجود لها فى الشعور .

كذلك نستطيع أن نفهم قول الجنيد ، ومعه جمع من الصوفية بأن الإنسان حجاب نفسه هو حجر الزاوية فى هذا الفناء والبلاء الخاص به ، فإن الإنسان إذا انتبه إلى نفسه ذهب كل حال سام .

وفى هذا ما يفسر قوله : « وهبنيه ثم استتربه عنى ، فأنا أضر الأشياء علىّ ، الويل لى منى » .

ويفسر قوله : « فطلبوا له ، فى استيلائه عليهم بساط البلاء على صفاتهم ، لأن لذة الأشياء فيهم ، ففى هذه الحالة قدر من الثنائية يتيح الشعور واستحالة انعدام الثنائية لتباين حقائق الحق والخلق ، هو ما دعاه للقول بأنهم : « لايجدون بعدالموت فرجاً ، ولا لهم قبل الموت ، من فرط البلاء مخرج » .

وعلى هذا النحو أرجع الإمام الجيند كل أسباب البلاء إلى الإنسان ، لعدم الفناء المحقق إذ يقول :

وكل بلاء علىّ منى ● ياليتنى قد أخذتنى عنى

ومن عبارات الصوفية الغامضة فى هذا الصدد : « بلاء البلاء » .

وهنا نستطيع أن نثير جملة من التساؤلات :

هل بلاء البلاء على طريقة فناء الفناء كلما ذهب بلاء جاء بعده بلاء . أى القمم العالية فيه ؟

=

فإن ادعى الشيخ المذكور وقال : أنا عاجز ولا أشهد نفسى إلا من العوام . قلنا له عقلك يكذب دعواك ، فهل رأيت فلاحاً أو سائلاً من العوام ادعى الولاية والمشيخة وطاف البلاد ينادى على نفسه هلموا إلى الله تعالى واتبعونى فتأمل .

وقد أوضحنا حالهم ودعاويهم الباطلة فى : « رسالة الأنوار » فراجعها فإن أفعالهم تكذب دعاويهم فى جميع ما يتقلبون فيه .

ولعمرى الكامل فى هذا الزمان من جد وصف الإسلام فقط من غير زيادة فإن سلب الإسلام (*) قد كثر فى هذا الزمان . وهو سنة ثلاثة وثلاثين وتسعمائة .

= أم هو ما يعرض له من الآفات التى تطرحه عن كونه مبتغياً به وجه الحق خالصاً من الإعجاب بشدة تحمل النفس وصبرهم ؟

أو هو خاص بالتعارض بين الفناء والوجود ؟

وعندما ننظر إلى مثل قول الإمام الجنيد : « ثم أحضرهم فى فنائهم ، وأشهدهم الوجود فى وجودهم ، فكان ما أحضرهم منهم وأشهدهم من أنفسهم خفياً وحجاباً لطيفاً أدركوا به غمضة الفقد » .

(محمد مصطفى : دراسات عن الجنيد البغدادى ، ص : ٣٦٠) .

(*) **الإسلام** : الإسلام هو دين الأنبياء كما أخبر الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

« سورة آل عمران : الآية : ٨٥ » . =

وقد اطلع أهل الكشف (*) من أولياء هذا الزمان على أنه مات فى هذا الزمان من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مائة وخمسين ألفاً فوجدوا منهم عشرة آلاف نفس ماتوا على الإسلام والباقى على الكفر نسأل الله العافية .

= فالدين عند الله سبحانه وتعالى الإسلام فى كل زمان ومكان ، وهذا الدين هو الذى بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل ، ولايقبل منا ديناً غيره

وللمزيد انظر الآيات : (يونس : ٧١ ـ ٧٢) ، و (البقرة : ١٣٠ ـ ١٣٢) و (يوسف : ١٠١) ، و (الأعراف : ٢٦) ، و (النمل : ٤٤) ، و(المائدة : ٤٤) ، و(آل عمران : ٥٢ ـ ٥٣) ، و(الشورى : ٢١) ، و(الأنعام : ١١٢ ـ ١١٥) ، و الفرقان : ٢٧ ـ ٣٠) ، وكثيراً من الآيات التى توضح عظمة الدين الإسلامى .

ولقد امتدح أحد المستشرقين الإسلام فقال : « إن الإسلام دين يستحق كل احترام وإجلال ، لأنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات ، وأنه خالد خلود الأبد ، وإنى أرى كثيراً من بنى قومى العلماء قد دخلوا هذا الدين على بينة من أمرهم .

(أحمد شلبى : مقارنة الأديان . الإسلام . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م ، ص : ٢٩٠) .

(*) **الكشف** : الكشف فى اللغة : إنما يعنى كشف الحجاب ، وفى الاصطلاح : هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعانى الغيبية ، والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً .

وقد ذكر الطوسى فى : « اللمع » : أن الكشف بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عن العبد كأنه رأى العين .

(الطوسى : اللمع ، ص : ٣٤٦) .

=

= ولقد أبان ابن خلدون أن الكشف يعرض لأصحاب المجاهدة وقد صفت نفوسهم عن شوائب الحس فيدركون به من حقائق الوجود مالايدرك سواهم ، وبانكشاف حجاب الحس يتلقى الصوفى المواهب الربانية والعلوم اللدنية .

ويذهب ابن خلدون فى موقف آخر فيقول : إن المعارف الكشفية من قبيل الوجدانيات التى لاعمل للدليل أو البرهان معها .

وقد قيل : المكاشف هو الذى استولى غيبه وشهادته فى اللطائف .

(ابن عربى : الحكم الحاتمية ، ص : ٢١) .

إذن فالكشف لاتراه العقول ولاتفهمه وإنما هو من حظ الأرواح عند القبول .

(مصطفى محمود : السر الأعظم . القاهرة : دار المعارف ، الطبعة السادسة ، سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ص : ٧٥ ـ ٧٦) .

فأهل الكشف هم أصحاب الذوق يرون الله فى كل شيء ، ويعبدونه فى كل مجلى ، وتتسع قلوبهم لكل صورة من صوره .

(ابن عربى : فصوص الحكم ، تعليق وتحقيق أبو العلا عفيفى . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م ، ص : ٧٨) .

وهنا يقول ابن عربى : إذا زال هواك : يكشف لك باب الحقيقة فتفنى إرادتك فيكشف لك عن الوحدانية ، فتتحقق ، أنه هو : لا أنت .

كما أوضح أن الكشف درجات رتبها كالآتى :

١ ـ الكشف النظرى أو العقلى وفيه تنكشف معانى المعقولات . =

....

= ٢ ـ الكشف القلبي وفيه تنكشف الحقائق للقلب فيشاهدها .

٣ ـ الكشف السرى أو الإلهامي وفيه تنكشف أسرار المخلوقات وتتضح للسالك حكمة خلق المخلوقات .

٤ ـ الكشف الروحي وفيه تنكشف للسالك عرض الجنات والجحيم والمعارج ورؤية الملائكة .

٥ ـ الكشف الخفي وفيه ينكشف للسالك الحق سبحانه وتعالى بصفات الجلال والجمال على حسب مقامه .

(آسين بلاثيوس : ابن عربي حياته ومذهبه ، ترجمة عبد الرحمن بدوى . الكويت : وكالة المطبوعات ، سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م ، ص : ٢١٢) .

وكذلك ينبغي أن نوضح أن كلمة المكاشفة أتم من المشاهدة ، وهي ثلاثة :

مكاشفة بالعلم : وهي تحقيق الإصابة بالفهم .

ومكاشفة بالحال : وهي تحقيق رؤية زيادة الحال .

ومكاشفة بالتوحيد : وهي تحقيق صحة الإشارة .

(الشيخ صالح الجعفرى : ديوان الجعفرى . القاهرة : دار جوامع الكلم ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص : ٦٥) .

لكن الذى لاينبغي إغفاله أن الصوفية لاينكرون الحواس والعقل في المعرفة إلا أنهم يرون أن لكل ملكة من الملكات الإنسانية مجالها ، الحس له مجاله ، والعقل له مجاله ، والخطأ يحدث عندما نسعى إلى فهم أو إدراك شيء بغير وسيلته أو أدائه ، كأن تسعى لأن تحس الشيء بالعقل أو تعقل بالحس ، بل إنهم يؤمنون بأن العقل السليم لايتناقض مع الشرع أو السمع .

=

....

= وقد بلغ تحمس بعضهم للعقل إلى درجة القول بأن العقل ضرورى للسماع وأنه لاغناء لأحدهما عن الآخر .

ويحدثنا الغزالى فيقول : « ... فلا غنى بالعقل عن السماع (الشرع) ، ولاغنى بالسماع عن العقل ، فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين » .

فالعقل السليم فى نظر الإمام الغزالى يشبه العين السليمة من العيوب ، فى حين أن الشرع يشبه الشمس التى يغمر نورها ، فتصبح رؤيتها ممكنة ، فلا العين وحدها تكفى ، ولا وجود للألوان إلا إذا رأتها الأبصار ، ولذا فإن من يقبل على القرآن دون أن يستخدم عقله فى فهمه شبيه بمن يغمض عينيه حين لايرى هذا الضياء ، أما من ينصرف عن الشرع زاعماً أنه يعتمد على العقل وحده فهو يشبه من فسد طبعه ، فلم يستخدم عينه للرؤية فى ضياء النهار ، بل أصر عبثاً على رؤية الأشياء فى ظلام دامس .

(محمود قاسم : دراسات فى الفلسفة الإسلامية . القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م ، ص : ٤٣) .

بل إن كثيراً من الصوفية يرون أن العقل السليم ميزان للحق فى كل حال ، وأن أخطاء العقل فى كثير من الأحكام لاترجع إلى طبيعته بل إلى بعض العوامل الخارجية التى تحجب عنه نور الحق ، وترجع هذه الحجب إلى الخيال والوهم .

وإذا كان بعض الصوفية قدغضوا من شأن العقل وهاجموا الفلسفة ، فإن ذلك يرجع إلى ما وقع فيه كثير من الفلاسفة العقليين المتطرفين الذين ضلت عقولهم وأنكروا بعض الحقائق الدينية التى صرح بها القرآن الكريم . =

فإذا كان هذا الحال وأن رتبة الإسلام عزيزة فكيف برتبة الإيمان (*) فكيف برتبة الولاية . فرحم الله امرءاً عرف قدره

= وعلى الرغم من أن الصوفية يؤمنون بالعقل ويثقون به فى المعرفة إلا أنهم يرون أن له حدوداً ينبغى أن يقف عندها ولايتخطاها . لأن من طبيعته أن يعجز عن معرفة الحق تفصيلاً فى كل الأمور .

ومادام العقل يعجز عن إدراك حقيقة الذات الإلهية فينبغى أن يعترف من تلقاء نفسه بأن هناك طوراً أسمى منه ، وليس فى الاعتراف ما يعيبه ، لأنه ـ حتى فى مجال عجزه ـ يعرف طاقته ويعرف قدر نفسه .

وهذا الطور الذى يفوق العقل ويسمو على مرتبته هو طور البصيرة .

وعلى أى حال فإن الصوفية لم يعتمدوا على العقل فقط فى الوصول إلى معرفة الحقيقة التى يطلبونها وإنما اعتمدوا على منهج آخر يدركون فيه الأشياء إدراكاً مباشراً ، وهذا المنهج قد أطلقوا عليه تارة كلمة : « المشاهدة » . وتارة أخرى كلمة : « الحدس » . وتارة ثالثة كلمة : « الكشف » .

ومهما يكن فإن الكشف عند الصوفية منهج من مناهج الوصول إلى المعرفة اليقينية تدرك فيه الأشياء إدراكاً مباشراً .

ولعلنا نستطيع أن نستخلص من ذلك كله أن الكشف منهج يقينى من مناهج المعرفة ، إنه إدراك ذوقى مباشر تنكشف فيه حقائق الأمور ، وهو على حد تعبير الإمام الغزالى : « نور يقذفه الله تعالى فى القلب » .

(*) **الإيمان** : الإيمان بالله سبحانه وتعالى إنما هو الإيمان بأنه الإله الحق المستحق للعبادة دون كل ما سواه لكونه خالق العباد والمحسن إليهم والقائم بأرزاقهم والعالم بسرهم وعلانيتهم ، والقادر على إثابة مطيعهم =

وأراح الخلق منه ومن تلامذته من بعده فإن الحية لاتلد إلا حية والتهم فى عنقه إلى يوم القيامة .

= وعقاب عاصيهم . ولهذه العبادة خلق الله سبحانه وتعالى الثقلين وأمرهم بها .

(عبد البارى محمد داود : الله فى العقيدة الإسلامية . القاهرة : دار نهضة الشرق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢ م ،ص : ٨٧) .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ « سورة الذاريات : الآية: ٥٦ » .

وقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لبيان هذا الحق والدعوة إليه والتحذير مما يضاده .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ « سورة النحل : الآية: ٣٦ » .

وحقيقة هذه العبادة هى إفراد الحق سبحانه وتعالى بجميع ما تعبد العباد به من دعاء ، وخوف، ورجاء، وصلاة ،وصوم ، وذبح ، ونذر، وغير ذلك من أنواع العبادة على وجه الخضوع والرغبة والرهبة مع كمال الحب له سبحانه والذل لعظمته. وغالب القرآن الكريم نزل فى هذا الأصل العظيم .

قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ « سورة الزمر : الآيتان : ٢ ـ ٣ » .

ومن الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، الإيمان بأنه خالق العالم ومدبر شؤنهم والمتصرف فيهم بعلمه وقدرته كما شاء سبحانه وأنه مالك الدنيا والآخرة ورب العالمين جميعاً لاخالق غيره ، ولارب سواه ، وأنه أرسل الرسل =

= وأنزل الكتب لإصلاح العباد ودعوتهم إلى مافيه نجاتهم وصلاحهم فى العاجل والآجل ، وأنه سبحانه وتعالى لاشريك له فى جميع ذلك .

ولقد أكد القرآن الكريم فى كثير من الآيات المحكمات على وجوب الإخلاص فى العبادة لله وحمده وأن ذلك هو أصل الدين وأساس الملة . كما دلت الآيات المحكمات على أن ذلك هو الحكمة فى خلق الجن والإنس وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، فالواجب على جميع المكلفين العناية بهذا الأمر والتفقه فيه والحذر مما وقع فيه الكثيرون من المنتسبين إلى الإسلام من الغلو فى الأنبياء والصالحين .

والإنسان هو محور هذا الكون وعلى قمة مخلوقاته جميعها وموضع التكريم . ومحل العناية الإلهية فيه ، خلقه الله فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، وأفاض عليه من فضله ورعايته ، إفاضة لاتتوقف ورعاية لاتتناهى ، إذ هو خليفة الله فى الأرض ، والمسئول عن الوفاء بواجبات العبودية لله فيها ، استجابة لذلك العهد والميثاق الذى أخذه الله تعالى على الأرواح فى عالم الأشباح يوم خرجت من صلب آدم عليه السلام ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴾ « سورة الأعراف : الآية : ١٧٢ » .

ومن هنا نقول : إن أمانة الإقرار بالربوبية لله وحده والاعتراف بالعبودية لسائر البشر إنما هو الإيمان بالحق سبحانه وتعالى جلّ شأنه .

والإنسان بحكم فطرته ومنطق الكون إنما هو مربوب لله سبحانه وتعالى لالغيره ، لعبادته وحده ، لا لعبادة بشر ، ولاحجر ، ولا بقر ، ولاشجر ، =

= ولا شمس ، ولا قمر ، وكل عبادة لغير الله سبحانه وتعالى إنما هى من تزيين الشيطان عدو الإنسان .

والأديان كلها دعوة إلى عبادة الله وحده ، والأنبياء جميعاً أول العابدين لله . فعبادة الله وحده هى إذن مهمة الإنسان الأول فى الوجود كما بينت ذلك كل الرسالات .

قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ « سورة الشورى : الآية : ١٣ » .

فقد دلت هذه الآية الكريمة على وحدة الهدف والعقيدة التى هى محور دعوة جميع الرسل من لدن نوح عليه السلام إلى خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذى بعثه الله رحمة للعالمين ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولينقذهم من أوحال الشرك وأدران الوثنية ، فكان بذلك نبراساً للأمة ينير لها الطريق .

(عبد البارى محمد داود : الله فى العقيدة الإسلامية ، ص : ٩٥ ـ ١١٢) .

عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لايكمل إيمان عبد حتى يكون فيه خمس خصال : التوكل على الله ، والتفويض إلى الله ، والتسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، والصبر على بلاء الله ، فقد استكمل الإيمان .

(محمد أبو زهرة : ابن تيمية ، ص : ٣٤١) .

إن الأخلاق الإسلامية لاتكتمل إلا بالإيمان . فلا بد أن يتوجه الإنسان إلى مولاه .

=

••

= ويقول ابن عربي : من صدق توجهه إلى الله أعطاه كل ما تمناه ، ومن خاف الله مولاه خاف منه كل ما سواه .

وقال أيضا : ما تعلمت العبيد أفضل من علم التوحيد ، ومن صدق مع الحق قطع علائقه مع الخلق .

ولقد سئل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الإيمان فقال : إنه الإخلاص .

ويقول ابن قيم الجوزية : لايكمل الإيمان بنبي من الأنبياء أصلاً مع جحود سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه من جحد نبوته ، فهو لنبوة غيره من الأنبياء أشد جحداً » .

(ابن قيم الجوزية : هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد حجازي السقا . القاهرة : المكتبة السلفية . الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص : ١٣) .

ومن وصايا الشيخ عبد السلام بن مشيس لتلميذه أبي الحسن الشاذلي : « يا أبا الحسن حدد بصر الإيمان تجد الله في كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وقبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وفوق كل شيء ، وتحت كل شيء ، وقريباً من كل شيء ، ومحيطاً بكل شيء ، بقرب هو وصفه ، ومحيط هو نعته ، أي ابتعد عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب والمسافات وعن الدور أي الاستدلال بالمخلوقات ، وأمحق الكل بوصفه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فهو هو ، كان الله ولاشيء معه وهو الآن على ما عليه ما كان .

(ابن عطاء الله السكندري : لطائف المنن ، ص : ١٩٨) =

إذا علمت ذلك فلنشرع فى مقصود الكتاب فى ذكر رسالة جامعة لجميع موازين القاصرين فأمنحه لهم عند الخلق كما عند الله تعالى بحسب ما يفتح الله علىّ به حال الكتابة وأرجو من الله الكريم أن كل من نظر فيها بالأدب من مشايخ هذا الزمان عَلِمَ يقيناً أنه لم يشم رائحة الولاية فضلاً عن حصولها فيستريح من

= وسأل رجل الإمام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه عن معنى الإيمان ؟

فأجاب : الإيمان على أربع دعائم : الصبر ، واليقين ، والعدل ، والجهاد.

ويقول سهل رضى الله تعالى عنه : كمال الإيمان بالعلم ، وكمال العلم بالخوف .

ومن أقوال السيدة نفيسة ※ : الدنيا كلها مرة . فإن كان بها حلاوة فهى حلاوة الإيمان .

(محمد شاهين حمزة : السيدة نفيسة . القاهرة : شركة الشمرلى الفنية المتحدة ، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، ص : ١٧٤) .

لقد سأل الصحابى عمرو بن عتبة رضى الله تعالى عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً : أى الإيمان أفضل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الهجرة . فقال الصحابى : وما الهجرة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أن تهجر السوء .

وقال بعض الحكماء : شعائر الإيمان أربعة : التقوى ، والحياء ، والشكر ، والصبر .

(ابن حجر العسقلانى : الاستعداد ليوم الميعاد ، ص ٤٥) . =

الدعاوى (*) الكاذبة لأنه يجد نفسه عارياً عن صفات الأولياء .

وأمّا من لم يرد الله هدايته فهو تحت مشيئة الله .

قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ (١)

وقد أفردت كل قولة من هذه الرسالة على حدتها بحسب ما يمر على قلبى حال الكتابة من حضرات الأسماء فربما جاءت كل قولة من حضرة اسم .

والعارف يميز بينها . وأقول : قال كذا إلى لسان

(*) **الدعاوى** : مفردها : الدعوى . ويرى أئمة الصوفية أن الدعوى إضافة إلى النفس ما ليس لها ، وبهذا المعني تكون الدعوى ادعاء من الإنسان لشيء لايفعله ولايملكه كأن يدعى الإنسان بعض الطاعات ، وهي ليست جزءاً من أخلاقه ، فيضيف شيئاً إلى نفسه ليس فيها ، فيحيد بهذه الدعوى عن معرفة الحقائق .

(الطوسى : اللمع ، ص : ٤٢٨) ، و (حسن محمد الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ، ص : ١٦٣).

وصاحب الدعوى يزعم أنه بادعائه وصل إلى الحقيقة ، وهو بدعواه هذا أقرب إلى الضلال منه إلى الإيمان .

(١) سورة المائدة : الآيتان : ٤١ ـ ٤٢ .

ذلك الاسم وحسبنا الله ونعم الوكيل ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

فأول ما فتح الله سبحانه وتعالى علىّ أن أقول :

قال الشيخ : (على الخواص) (*) رضى الله تعالى عنه : شرط من يتصدر للمشيخة وتربية المريدين أن يعرف تلامذته من يوم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ . (أ)

وأن يعرف من يفتح له على يده ممن لايفتح له .

هكذا درج عليه الأولياء أصحاب القدم كسيدى عبد القادر

(*) على الخواص : هو شيخ الإمام الشعرانى . ذكره الشعرانى فى : « الطبقات الكبرى » و « الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ». وقال عنه : هو أستاذى وشيخى وقدوتى العالم الربانى والعارف الصمدانى ، وشيخ المحققين ، الأستاذ الشيخ على الخواص . وامتدحه فألف كتاباً خاصاً سماه : « درر الغواص في مناقب سيدى على الخواص » .

كما ذكره الشعرانى فى معظم مؤلفاته . وقال عنه أنه يعرف جملة من العلوم المتعددة . وكان أمياً لايقرأ ولايكتب إلا أنه كان يتكلم عن معانى القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاماً نفيساً تحير فيه العلماء .

ولقد ذكره الشعراني كثيراً في الأجوبة المرضية بقوله : يقول سيدي علي الخواص ، وسمعته يقول ، ويقول مراراً ، وهذا دليل علي ملازمة الإمام الشعرانى لشيخه . توفى سنة ٩٥٣هـ .

(أ) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

الجيلى [١] وسيدى أحمد الرفاعى [٢] ، وسيدى أبو السعود [٣] شيخ سيدى داود الأعزب [٤] ، وسيدى أبى بن الشبل [٥] .

فأين هذا ممن لايعرف اسم تلميذه إلا إن سأله عن اسمه مرات ؟ وأين الرطب المعمول من الجنى ؟

ثم أنى أقول : شرط من يلقن الذكر ويعمل شيخاً مسلكاً أن [٦] يكون ولياً . فهل أنت ولى ؟ فإن قلت : لا . قلنا : لايجوز لك أن تتصدر للمشيخة . وإن قلت : أنا ولى سألناك عن علوم الأولياء التى يتداولونها فيما بينهم مما لايسطر فى كتاب ولاطرق سمعك علم منها وهى كثيرة .

---

(١) **عبد القادر الجيلى** : أورده الشعرانى فى معظم مؤلفاته بلفظ الجيلى . وهو الإمام عبد القادر الجيلانى صاحب : « الفتح الربانى » ، و « فتوح الغيب » ، و « الغنية لطالبى طريق الحق » . وهو شيخ الطريقة القادرية . توفى سنة ٥٦١هـ .

(٢) **أحمد الرفاعى** : هو الشيخ أحمد بن أبى الحسن الرفاعى . شيخ الطريقة الرفاعية توفى سنة ٥٧٠هـ .

(٣) **أبوالسعود** : هو الشيخ أبو السعود بن أبى العشائر . توفى سنة ٦٤٤هـ . ودفن بسفح جبل المقطم .

(٤) **داود الأعزب** : تلميذ الشيخ أبو السعود بن أبى العشائر كما ذكر الشعرانى فى هذه الرسالة .

(٥) **أبى بن الشبل** : ذكره الشعرانى فى هذه الرسالة وعده ضمن شيوخه وأساتذته .

(٦) فى الأصل : سلكاً أن .

وقد ذكرت منها فى كتابنا المسمى : « تنبيه الأغبياء على قطرة من بحور علوم الأولياء » نحو عشرة آلاف علم . كل علم منها لايدرك له قرار ولايسطر فى كتاب حتى يمكن (الوقوف) [١] على معرفتها لو سأل [٢] شيخ من مشايخ هذا الزمان على علم منها لم يدر اسمه فضلاً عن الخوض فيه .

وقد أحببت أن أذكر لك طرفاً منها خوفاً أن تظن أنها اسمٌ على مسمىً إن لم ينته أحدٌ من مشايخك القاصرين يتكلم فى علم منها .

فأقول : « مامن ولى حق له قدم الولاية إلا ويعلم العلوم اللدنية كشفاً وذوقاً [*] لانقلا وفهماً .

---

(١) لاتوجد فى الأصل ، زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(٢) فى الأصل : غير واضحة .

(*) **الذوق** : الذوق عند القوم أول مبادىء التجلى . وهو حال يفاجىء العبد فى قلبه ، فإن كان التجلى فى الصور فالذوق خيالى . وإن كان التجلى فى الأسماء الإلهية والكونية فالذوق عقلى . فالذوق الخيالى أثره فى النفس ، والذوق العقلى أثره فى القلب .

(على عبد الجليل راضى : الروحية عند ابن عربى . القاهرة : دار نهضة مصر ، سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م ، ص : ١٠٤) .

ويختلف المنهج الذوقى الذى يتبعه الصوفية عن المنهج الحدسى الذى يتبعه بعض الفلاسفة الرياضيين ، فالمنهج الحدسى سواء أكان حدساً عقلياً=

....

= أو وجدانياً يقوم على النظر فى مسائل استدلالية أولاً ، ثم يتجلى الحل للذهن فجأة عن طريق الإلهام ، وبهذا يمكن الوصول إلى ما وراء العالم المحسوس الذى هو مجرد ستار يكمن وراء الحقائق المعقولة والروحانية .

أما المنهج الذوقى فإنه يقوم أولاً على اتباع المجاهدة والتربية الصوفية التى عبر عنها الغزالى بالإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وإذا ما استطاع المريد إتمام ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل بتنويره بأنوار العلم ، وإذا ما تولى الله القلب ، فاضت عليه الرحمة وأشرق فيه النور ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وبذلك ينقشع عن وجه القلب حجاب العزة ، بلطف الرحمة ، ومن ثم تتلألأ فيه حقائق الأنوار الإلهية .

وعلى هذا النحو يرتبط الذوق بالتجلى والمشاهدة من حيث أن التجلى الشهودى يتصل بطبيعة المعرفة كنوع من أنواع الكشف فيفنى فيه المتجلى له ويورثه الحق تعالى العلم ، بل إن العلم اليقينى عند الصوفية لايصح إلا عن ذلك الطريق .

وهذا المنهج الذوقى هو منهج معروف لدى الصوفية ويقوم على الإلهام الذى يقع فى القلب من غير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ، بل وبدون أن يعرف العبد من أين حصل له ؟ وكيف حصل ؟

وبذلك يكون الصوفى قد جمع بين منهجين : **أحدهما** : المنهج الذوقى القائم على الإلهام والنفث فى الروع .

والآخر: هو المنهج الاستدلالى القائم على النظر والبحث العقلى .

ونبه هنا إلى أن مرحلة الذوق الصوفى تأتى بعد انتهاء مرحلة النظر .

(الطوسى : اللمع ، ص : ٢٢٨) =

= وهذا المنهج الذوقى الذى يقوم على المجاهدة والتربية الصوفية ، هو المنهج الذي وصفه الشيوخ للمجتمع الصوفى فيما بين بعضهم بعضاً تدريباً على إنكار الذات إنكاراً تاماً للوصول بالأعمال كلها إلى المحبوب سبحانه وتعالى .

لذلك كان المنهج الأجدر بالاتباع فى بلوغ السعادة هو قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود .

من هنا قيل : من ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف .

وبجانب ذلك لم يهمل الصوفية المنهج النقلى . وهذا المنهج هو منهج السلف الصالح القائم على الأخذ من الكتاب والسنة .

وعلى ضوء ما تقدم يمكننا المقارنة بين النظر والذوق فنقول :

إن ينبوع الأخلاق والآداب هو العقل الذى جعله الله تعالى أصلاً للدين . وعماداً للدنيا ، والعقل أساس التكليف والتدبير .

(حسن محمد الشرقاوى : الشريعة والحقيقة ، ص : ٥١) .

وقال حكيم : العقل حجة الله القاطعة البالغة . وأصل براهينه الساطعة الدامغة ، وبواسطته استعبد عباده الكلمة ، وإلى من خصه به أرسل رسله . ثم العقل جوز إرسال الرسل . والنقل لايأتى بمايناقض العقل .

وإنما يروى بما يزكى قضاءه ويصقل مرائى أحكامه أحسن صقل .

ونظير ما حصل للعقل بالشرع من الاستئناس .

وهذا مانطق به الغزالى : يستحيل على الوحى الإلهى والشرع الحق أن يرد بما ينبو عنه العقل . بمعنى أن يكون برهان العقل يدل على استحالته . =

....

= نعم ليس بمحال أن يرد بما يقصر العقل عن إدراكه ولايستثقل الإحاطة بكنهه . وليس كل ما لايدركه العقل محالاً فى نفسه .

(محمد جلال الدين القاسمى : دلائل التوحيد . تقديم ومراجعة محمد حجازى . القاهرة : الدار السعودية بمصر ، مطبعة المدنى ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص : ١٣٧) .

ويدلى ابن تيمية برأيه فيقول : العقل الصريح موافق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دائماً لايخالفه فإنه الميزان مع الكتاب . لكن قد تقصر العقول عن معرفة تفصيل ما جاء به فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه .

ويعود فيقول : وإنما أردنا بيان قيمة العقل فى نظر الشرع ليعلم من يدعى أن العقل لايلتئم مع الدين أنه مفتر عليه لأن العقل أصل النقل . أى أصل علمنا بصحته .

(المصدر السابق ، هامش ص : ١٣٩) .

لكن الذى لاينبغى إغفاله أن نوضح هنا أن المعرفة الذوقية غير العلوم الكسبية والعقلية ، إذهى نور يقذفه الله فى قلب عبده المؤمن المخلص فيصبح مشرقاً بها ، بل يصبح علماً وعالماً ومعلوماً جميعاً . فينال بقدر علمه وعمله بعضاً من الأسرار الإلهية ، أو العلوم الربانية التى لايمكن أن يحظى بمعرفتها فى أزمنة متطاولة عن طريق النظر أو الفكر .. لأنها فوق حدود العقل ، فلا يقدر العقل مهما كان سليماً على استيعابها ، أو الحكم عليها ، فهى تتعدى حدوده ومقاييسه وأحكامه ومنطقه .
ويشهد لذلك ما رواه الغزالى أن هناك أموراً تخفى على العقل بصفة عامة ، وأن ما يخفى عليه منها نوعان : =

••

= نوع قد تدركه بعض العقول ولكنه يبقى خفياً ومحجباً بالأسرار بالنسبة إلى معظم البشر .

ونوع آخر لايتسنى إدراكه لأى عقل إنسانى مهما بلغت حدته وقوة نفاذه ، وهو ذلك العظيم المطلق الذى جاوز جميع حدود العقل ، حتى لم تتصور الإحاطة بكنهه .

(الغزالى : المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا . القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، مكتبة الجندى ، سنة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، ص : ١٧) .

وهذا الطور الذى يفوق العقل ويسمو على مرتبته هو طور البصيرة الذى يتحقق كاملاً فى الأنبياء ، وقد يتحقق بصورة أدنى عند بعض الصوفية ، وهذا الطور هو الذى يعتمد في المعرفة على القلب أسمى من طور العقل الذى تعتمد عليه المعرفة العقلية .

وهذا شيء يرى الغزالى أن البرهان العقلى يقرر إمكانه ، بل ضرورته .

فمن المعروف بداهة أن مراتب الإدراك أو درجاته متفاوتة فى المعرفة الإنسانية وهى تبدأ بالإحساس من لمس ، وبصر ، وشم ، وسمع ، وذوق ، ثم يرتقى الإنسان إلى مرتبة التمييز التى يدرك فيها المرء أموراً أرقى من عالم المحسوسات ، كالمبادىء المنطقية التى يمكن التمثيل لها بقولنا مثلاً أن الشيء لايمكن أن يكون موجوداً ومعدوماً فى آن واحد ، وأن الكل أكبر من الجزء .

وبعد مرحلة التمييز يأتى العقل فيدرك الواجبات والمستحيلات .

وإذن ليس من المتناقض فى شيء أن يقرر العقل أن هناك طوراً =

= أسمى منه وهو البصيرة .

وصاحب الذوق لاينكر العقل ، ولكنه يحدد للعقل مجاله وحدوده ونشاطه ، ثم يرتفع عن ذلك بطريق الرياضة والمجاهدة ، حتى يحظى بالعلوم الوهبية التى مدارها القلب ، وليس العقل .

من هنا يجب أن نفهم أن مجال العقل هو عالم الشهادة وليس للعقل عمل فيما هو فوق مجاله . أى عالم الملكوت .

(الغزالى : مشكاة الأنوار ، تحقيق أبو العلا عفيفى . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ، ص : ٦٦) .

لذلك فإن الغزالى يؤكد أن كل أمور الدين لايوجبها العقل ولكنها تجب فى نظر الغزالى بالشرع .

والطريف أن الغزالى يستخدم العقل لكى يثبت بالبرهان العقلى نقص العقل وعجزه عن بلوغ ما فيه خيره وسعادته .

وهذا هو المنهج الذى استخدمه فى كتابه : « تهافت الفلاسفة » . الذى أثبت فيه أخطاءهم فيما تناولوه من مسائل فى النفس والعلم والخلق وغلطهم حيث أثبتوا حشر الأرواح دون الأجساد .

(الغزالى : تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا . القاهرة : دار المعارف الطبعة السادسة ، سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص : ٢٨٧) .

من هنا جاء نقد الغزالى للفلاسفة فى كونهم استخدموا العقل فيما يقصر عن إدراكه لأنه فوق طوره . فالإنسان لايستطيع أن يعرف الله وحكمته وما به خيره وصلاحه بمقايسته بعقله ، ويزن أفعاله بميزان مصلحته وأغراضه . =

= ولكننا إذا ابتعدنا شيئاً عن دائرة المسائل المادية الضيقة ودخلنا في مجال العقيدة ، أو التشريع ، أو أمور الآخرة ، فإننا سوف نرى العقل كثيراً ما تتعثر خطاه ، وذلك لأن المقياس العقلى للتمييز بين الحق والباطل في عالم العقليات المجردة لم يوجد ، ولن يوجد .

وعلى هذا فإن كل من يقرأ التاريخ الفلسفى سوف يعرف أن السير فى مسائل العقائد والأخلاق على المنهج اليونانى ، المعتمد على العقل ، لابد وأن يؤدى إلى الاختلاف والتعارض وعدم الوصول إلى نتيجة يقينية .

(عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ص : ١٠٢) .

من أجل ذلك فلايمكن أن نتخذ من العقل معياراً ثابتاً نحكم بواسطته على الأشياء ، ولهذا فقد جاء الدين هادياً للعقل فى بعض الأمور التى لايمكن أن تستقيم حياة الإنسان بدونها . ومن تلك الأمور :

١ـ مسائل ما وراء الطبيعة ، أى العقائد الخاصة بالله سبحانه وتعالى وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وباليوم الآخر ، والغيب الإلهى على وجه العموم .

٢ ـ المبادىء الأخلاقية الأساسية ، أى الخير والفضيلة ، وما ينبغى أن يكون عليه السلوك الإنسانى ليكون الشخص صالحاً .

٣ ـ التشريع فى قواعده العامة التى ينتظم بها المجتمع ، وكذلك بعض القواعد الخاصة التى تسعد بها الإنسانية .

ومن هنا كان الحكم بعجز العقل . إذ الأمر مجرد ذوق وحس ووجدان .

(عبد الحليم محمود : الإسلام والعقل . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص : ١٨) .

=

من هنا قال ابن عطاء الله : « العقل آلة العبودية ، لا الإشراف على الربوبية .

(كامل سعفان : سبحان الله . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص ٩٦) .

ويذكر صاحب : « المنازل » أن الذوق على ثلاث درجات :

الدرجة الأولي : ذوق التصديق : ويذوق فيه طعم الوعد . فلا يعقله ظن ، ولايقطعه أمل ، ولا تعوقه أمنية .

ويريد هنا ـ كمايقول ابن قيم الجوزية فى شرحه ـ أن العبد الصادق إذا ذاق طعم الوعد من الله على إيمانه وتصديقه وطاعته ثبت على حكم الوعد واستقام .

الدرجة الثانية : ذوق الإرادة طعم الأنس . فلا يعلق به شاغل ، ولايفسده عارض ، ولاتكدره تفرقة .

الدرجه الثالثة : ذوق الانقطاع : طعم الاتصال ، وذوق الهمة : طعم الجمع ، وذوق المسامرة : طعم العيان. والفرق بين هذه الدرجة والتى قبلها أن تلك الدرجة مع الأحوال . وهذه الدرجة خروج وفناء عن الأحوال .

فإن المتمكن فى حال فنائه عن الأسباب ، أعمالاً كانت أو أحوالاً ، هو الذى يجد طعم الاتصال حقيقة . فإنه على حسب التفاته إليها يكون انقطاعه .

وكلما تمكن فى جمع همه على الحق سبحانه ، وجد لذة الجمع عليه ، وذاق القرب منه ، والأنس به .

فالانقطاع عند القوم : هو أنس القلب بغيره تعالى . والالتفات إلى ما سواه.=

فمن علوم الأولياء : علم الأوائل والأواخر ، وعلم الأسماء الإلهية ، وعلم الأسماء المركبة ، وعلم عواقب الأمور ، وعلم الملك ، وعلم الملكوت ، وعلم الزمان ، وعلم أرباب الطرد فى المطرودين وأسباب السعادة (*) فى المقربين التى لايشوبها شقاء .

= **والاتصال** : تجريد التعلق به وحده ، والانقطاع عما سواه بالكلية .

فقوله : « ذوق الانقطاع طعم الاتصال » . استعارة .

وإلا فالذائق هو صاحب الانقطاع ، لانفس الانقطاع . فإنه هو الذى ذاق الانقطاع والاتصال .

وبالجملة : فالمراد أن المنقطع هو المحجوب ، والمتصل هو المشاهد بقلبه ، المكاشف بسره . وأحسن من التعبير بالاتصال : التعبير بالقرب فإنها العبارة السديدة التى ارتضاها الله ورسوله فى هذا المقام . وأما التعبير بالوصل والاتصال ، فعبارة غير سديدة ، يتشبث بها الزنديق الملحد ، والصديق الموحد ، فالموحد يريد بالاتصال : القرب ، وبالانفصال والانقطاع : البعد ، والملحد يريد به الحلول تارة ، والاتحاد تارة أخرى .

ويتفق الباحث فى هذا الصدد مع ابن قيم الجوزية فيما ذهب إليه بصدد الاتصال والانفصال الذى يعنى القرب والبعد .

فالمعنى الإسلامى إنما هو القرب والبعد .

(*) **السعادة** : ينبغى أن نوضح فى هذا المقام أن الحق سبحانه وتعالى رسم لعباده طريق السعادة فى دنياهم وأخراهم . ولاشك أن الطريق الإلهى الذى رسمه الله سبحانه وتعالى لعباده لا استحالة فيه ولامشقة . وهذا=

....

= الطريق سلكه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . وكذلك السلف الصالح من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

والسعادة الحقيقية فى نظر الإمام الغزالى إنما هى السعادة الأخروية ، وأن هذه السعادة ، بقاء بلا فناء ، ولذة بلاعناء ، وسرور بلا حزن ، وعز بلا ذل ، وعلم بلا جهل فيه ، وغنى لافقر معه يخالطه ، ولن يتوصل إليه إلا بالله سبحانه وتعالى .

قال تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ « سورة العنكبوت : الآية : ٦٤) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة ، فأكرم الأنصار والمهاجرة » « رواه البخارى » .

وكذلك ربط الإمام الغزالى بين سعادة الإنسان ومعرفته لنفسه فيقول : «اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس . كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ « سورة العنكبوت : الآية : ٥٣ » .

وهكذا يصل العبد الصالح الصادق إلى السعادة الأخروية عن طريق معرفة الله تعالى ، فالأحرى بالإنسان أن يستقيم ويخضع إرادته للعقل ، ويخضع العقل للعمل الصحيح الذى يمحص بالنية وإخلاص الوجه لله سبحانه وتعالى . فإذا استقام العقل مع العلم مع النية استقامت الإرادة .

من هنا يستطيع الإنسان عن طريق العقل والقلب أن يصل إلى مفهوم السعادة التى هى ثمرة من ثمار العلم الصحيح . =

= ومما لاشك فيه أن سعادة الإنسان لن تتحقق فى الدنيا والآخرة إلا إذا اتفقت نظرته إلى الدنيا وما فيها من أسباب ووسائل مع غاية العلم الصحيح والفطرة السليمة .

ومن ثم ينبغي على الإنسان أن يستعمل كل ما فى الحياة من وسائل وأسباب لتحقيق هذه الغاية العظيمة التى خلق من أجلها فيسخر كل شيء من أجل كلمة التوحيد حتى يستحق أن يكون خليفة الله فى أرضه . وعلى ذلك ترتبط مسئولية الإنسان ارتباطاً شديداً بغاية العلم الصحيح . ومن ثم تنتظم الأخلاق وتعم الفضيلة بديلاً عن الرذيلة والنظام بدلاً عن الفوضى .

وهنا نستطيع أن نثبت بما لايدعو مجالاً للشك أن الأمن النفسى والسكينة والطمأنينة القلبية لن تتحقق للإنسان فى هذه الدنيا إلاَّ بالإخلاص فى العلم لله وحده لاشريك له ، وفى ذلك يكون سعادته فى الدنيا والآخرة ، فبقدر سعة علمه ومعرفته لله عزوجل يكون سعة ملكه وتنعمه فى الجنة .

ولقد قيل السعيد : من عرف حقاً ما عليه فسارع فى الوفاء ، والشقى من جهل ما عليه وطالب غيره بحقوق ليست له ، فأحب نفسه وعاداه الله ورسوله والناس أجمعون .

فمن ساد بأخلاقه دام سؤدده ، ومن ساد بعلمه كملت سعادته ، ومن ساد بتقواه فاز فى الدنيا والآخرة .

(أبو العزائم ، محمد ماضى : من جوامع الكلم ، ص : ١٠) .

من هنا قيل : نيل السعادة بالعبادة . وكمال السعادة لك أن يأمرك ويعينك وينسب لك ، ثم يهب فضله العظيم من حسن الجزاء لك . =

ومنها علم ما يمحى كل وقت فى لوح كل إنسان وما ثبت ، ومنها علم ما يشترك فيه الحق والعالم وما يختص به كل واحد .

ومنها علم الحضرة (*) التى تقلب الحقائق ولاتقلب نفسها وهى من جملة الحقائق .

= فمن علامات السعادة على العبد تيسير الطاعة عليه ، وموافقته للسنة فى أعماله ، وصحبته لأهل الصلاح ، وحسن خلقه مع الإخوان ، وبذل معروفه للخلق ، واهتمامه للمسلمين ، ومراعاته لأوقاته .

(أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ٥٨) .

(*) **الحضرة** : تعد الحضرة من المستلزمات الأساسية التى يلتقى فيها الشيخ بمريديه إلا أن الحضرات ليست على مستوى واحد ، فهناك حضرة أسبوعية أو يومية للمريدين الذى يرغبون فى العلم والدرس ، فتقرأ وتناقش بعض كتب الفقه والتفسير ، وهناك حضرة أخرى للذكر والسماع . كما أن فى الحضرة يجاب عن أسئلة المريدين وما يدور فى أذهانهم من استفسارات .

(حسن محمد الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ، ص : ١٤٣) .

فإذا وجد غريب بالحضرة اقتصرت على القراءة والشروح والتفاسير .

وهناك حضرات أو مجالس للمريدين المتقدمين (الخاصة) . وفيها يعرض موضوع أو مشكلة اجتماعية أو أخلاقية أو صوفية وتناقش . ويدلى الشيخ برأيه ووجهة النظر التى يعتقدها .

وقد قيل : الحضور من الحضرة ، والحضرة هى حضور القلب بتوارد البرهان ومجاراة الأسماء الإلهية بما هى عليه من الحقائق . وهو حضور القلب مع الحق فى الاستفاضة من أسمائه . =

ومنها علم تطوير أعمال العبد إلى صور كلاب وخنازير

= (الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، هامش ، ص : ٩٠) .

وتعد الحضرات الصوفية من المراسم التى يتسم بها مجالس الصوفية حيث يحضر المريد رافعاً نعليه ويجلس بأدب ، بعد تحية شيخه ، وتقبيل يده ، ولايسلم على المريدين الآخرين باليد ، ويقتصر على قوله : « السلام عليكم » ثم يجلس بالمكان الخالى مستمعاً منصتاً ، وبالحضرة يتوجب على المريد أن يغطى رأسه ولو بمنديل إذا لم يكن لديه « طاقية » ، ولايستطيع الدخول إلى الحضرة منتعلاً أو عارى الرأس ، كما أنه من الملاحظ أن المريد لايلبس خاتماً ذهبياً حيث يعتقد الصوفية أن لبس الذهب من المكروهات .

ويحدثنا ابن عربى فى : « الفتوحات » عن الحضرة الإلهية والحضرة الإنسانية : يرى أن للحضرة الإلهية حروفاً ثلاثة تختص بها وهى الألف والزاى واللام تدل على معنى الأزل ، وأن بسائط هذه الحروف واحدة فى العدد .

وأما الحضرة الإنسانية فلها حروفٌ ثلاثة أيضاً كما أنهما يتفقان فى العدد غير أن حروف الحضرة الإنسانية هى : النون والصاد والدال ، لذلك فهناك خلاف من حيث مواردها لأن مقام العبودية لايشترك مع الربوبية فى الحقائق ، حيث إن الله رب والعبد مخلوق ، فلابد أن تكون الحقائق متباينة . لهذا باينهم الحق تعالى بقربه كما باينوه بحدوثهم .

كما يرى أن للحضرة أكثر من معنى ... فهناك العشق الإلهى حضرة ... ولأصحاب المعرفة حضرة ... وكلها حق وصدق ، ولكنها جميعاً حضرات جزئية ، كل ينظر ها من زاويته . وأول حضرة فى رأى ابن عربى هى حضرة الإيجاد ويسميها الألف واللام ، ولفظها لاإله إلا الله . فهذه حضرة الخلق والخالق .

وغيرهما وهو علم واسع .. ومنها علم المواثيق والعهود . ومنها علم مراتب الأرواح الملكية فى عباداتهم . ومنها علم الغيوب التى لاتعلم . ومنها علم إيضاح المهمات ، وعلم الليل والنهار . ومنها علم الفصل بين القبضتين . ومنها علم الجهات والإحاطة . ومنها علم المعاملة بين الخلق على اختلاف أصنافهم بما يَسُرّهم لابما يسؤهم ، وهو علم عزيز دقيق .

ومنها علم الملائكة بالله؟ الذى لايعلمه بشر حتى يتجرد عن بشريته ويتجرد عن حكم طبيعته ولايدرك إلا ذوقاً . ومنها علم آداب الدخول على الله .

ومنهـا علم صفات من يدعى أنه جليس الله . ومنهـا علم الأسباب التى تمنع من قبول العمل الخالص حتى تعلم العالم فى غير معمل . ومنها علم مقادير الحركات الزمانية . ومنها علم المكر الخفى وتعجيل الجزاء عليه .

ومنها علم الدار الآخرة وماهى ؟ وما نتيجتها هناك ؟

ومنها علم موازين الرجال : فمنهم رجل ، ونصف رجل ، وربع رجل ، وهكذا .

ومنها علم الأسباب فيعرف الولى جميع الحيوانات براً وبحراً وأسماءها وأعمارها (و معرفة حركة كل منها) (*) فما بالك بمن لم

(*) زيادة أضفناها حفظاً للمعنى والسياق .

يعرف حمارته التى يركبها كل يوم ولاتعرفه هى . ومنها علم ظهور الباطل فى صوره الحق .

ومنها علم الستر والتجلى (*) . ومنها علم مراتب المنصرفين يوم القيامة . وفى هذا القدر كفاية . ومن أراد الزيادة على ذلك فعليه بكتابنا المتقدم ذكره والله يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم .

(*) **التجلى :** هو ماينكشف للقلوب من أنوار الغيوب .

(ابن عربى : اصطلاحات الصوفية ، من رسائل ابن عربى ، تعليق عبد الرحمن مسعود . القاهرة : عالم الفكر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م ، ص : ١٧) .

وتجلى الحق سبحانه وتعالى لعباده عن مشهد يرى فيه العبد جريان القدرة فى الأشياء ، فيشهد بعينه حركتها وسكونها ، ويشهد بقلبه أنه سبحانه محركها ومسكنها . والعبد فى هذا المشهد مسلوب الحول والإرادة ، نافٍ الفعل عن نفسه مثبت إياه للبارى عزوجل .

ولكل من التجليات الإلهية آية يشهد بها العبد أفعال الله سبحانه وتعالى وصفاته بحسب ما يشهده فى الأشياء التى يظهر فيها التجلى ، كمشاهدة موسى عليه السلام مثلاً للنار البيضاء فى الشجرة الخضراء تشتعل بها ولا تحترق ، وكمشاهدة تدكدك الجبل مع عظمه ، وكمشاهدة غرق فرعون وجنوده مع جبروته .

ففى الأولى : تجليه تعالى بالمبدع ، وفى الثانية : تجليه تعالى بالقادر ، وفى الثالثة : تجليه تعالى بالمنتقم ، فمن مثل هذه المشاهدة يدرك العبد =

= معنى تجلى الحق جلّ وعلا بأفعاله وصفاته لابذاته ، لأن الله سبحانه وتعالى منزه عن الجسمية وعن التحيز فى المكان ، وإنما آثار قدرته تظهر للعين فى تحرك الموجودات وسكونها ، فيقال : تجلى الله سبحانه وتعالى للشيء بكذا ، كقول بعضهم :

وفى كل شيء له آية .. تدل على أنه الواحد

التجلى كما أوضحنا لايغير شيئاً من الصفات الأزلية .

ويقول ابن عطاء الله فى : « الحكم » : « وصولك إلى الله ، وصولك إلى العلم به وإلاَّ فجل ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل بشيء » .

وأهل الشهود متفاوتون : فمنهم من يحصل له تجلى الأفعال ، وهو أول التجليات عندهم ، فيفنى فعله وفعل غيره ، فى فعل الله تعالى ، فلا يرى فاعلا غير الله تعالى ، ويخرج فى هذه الحالة عن التدبير والاختيار ، وهذه أول مراتب الوصول .

ومنهم من يحصل له تجلى الصفات ، فيقف فى مقام الهيبة والأنس بما يشاهده فى قلبه من الجلال والجمال ، وهذه رتبة ثانية من رتب الوصول .

ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة » فيغيب فى شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب ، ونوع من تجلى الذات لخواص المقربين ، وهو أيضا رتبة فى الوصول ، تسمى عين اليقين ، وفوق هذا رتبة حق اليقين ، ويكون من ذلك فى الدنيا لمح ، وهوسريان نور المشاهدة ، فى كلية العبد ، حتى تحظى به روحه ، وقلبه ، ونفسه ، حتى قالبه ، وهومن أعلى رتب الوصول .

(ابن عطاء الله : الحكم ، بشرح محمد مصطفى أبو العلا ، ج ٢ . ص : ٤٠ ـ ٤١) .
=

= كما أن التجلى هو أعلى الطرق إلى العلم بالله ودونها علم النظر .. والتجلى هو أشرف الطرق إلى تحصيل العلوم وهى علوم الأذواق . فإذا تجلى الحق إما منة أو إجابة لسؤال فيه فيتجلى لظاهر النفس وقع الإدراك بالحس فى الصورة فى برزخ التمثيل .

ويرى أهل الكشف أن الله يتجلى فى كل نفس ولايكرر التجلى . ويرون أيضاً شهوداً أن كل تجل يعطى خلقاً جديداً ، ويذهب بخلق ، فذهابه هو عين الفناء عند التجلى والبقاء لما يعطيه التجلى الآخر .

(على عبد الجليل راضى : الروحية عند ابن عربى . القاهرة : دار نهضة مصر ، سنة ١٩٤٦م ، ص : ١٧٩) .

والتجلى على مقامات مختلفة . فمنها ما يتعلق بأنوار المعانى المجردة عن المواد من المعارف والأسرار . ومنها ما يتعلق بأنوار الأنوار . ومنها ما يتعلق بأنوار الأرواح وهم الملائكة . ومنها ما يتعلق بأنوار الرياح . ومنها ما يتعلق بأنوار الطبيعة . ومنها ما يتعلق بأنوار الأسماء . ومنها ما يتعلق بأنوار المولدات والأمهات والعلل والأسباب .

ونوضح فى هذا المقام أن للحق سبحانه وتعالى تجليات من كل حضرة من الحضرات الأسمائية وأعلاها هو التجلى الإلهى . ويتجلى الحق سبحانه وتعالى لكل فرد من أفراد الموجودات بما يليق به من سر التجليات .

(ابن عربى : الحكم الحاتمية ، ص : ٦) .

والناس فى تجليات الأسماء على أنواع ، وسنذكر طرفا منها إذ لاسبيل إلى إحصاء جميع الأسماء ، ثم إن كل اسم يتجلى به الحق فإن الناس فيه مختلفون وطرق وصولهم إليه مختلفة . فمنهم من تجلى الحق عليه من =

= حيث اسمه القديم ، وكان طريقه إلى هذا التجلى أن كشف له الحق عن كونه موجودا فى علمه قبل أن يخلق الخلق ، إذ كان موجودا فى علمه بوجود علمه ، وعلمه موجود بوجوده سبحانه ، فهوقديم ، والعلم قديم ، والمعلوم من العلم لاحق بالعلم فهو قديم ، لأن العلم لايكون علماً إلا إذا كان له معلوم ، فالمعلوم هو الذى أعطى العالم اسم العالمية ، فلزم من هذا الاعتبار قدم الموجودات فى العلم الإلهى ، فمرجع هذا العبد إلى الحق سبحانه وتعالى من حيث اسمه القديم ، فعندما تجلى له من ذاته القدم الإلهى اضمحل حدثه ، فبقى قديما بالله تعالى فانياً عن حدثه .

ومنهم من تجلى الله عليه من حيث الحق ، وكان طريقه إلى هذا التجلى بأن كشف له سبحانه وتعالى عن سر حقيقته المشار إليها بقوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ ﴾

« سورة الحجر : الآية: ٨٥ » .

فعندما تجلت له ذاته من حيث اسمه : « الحق »فنى عن الخلق وبقى مقدس الذات منزه الصفات .

ومنهم من تجلى له الحق سبحانه وتعالى من حيث اسمه : « الواحد » . وكان طريقه إلى هذا التجلى بأن كشف الحق له عن ممتد العالم وبروزه من ذاته سبحانه وتعالى كبروز الموج من البحر فشهد ظهوره سبحانه وتعالى فى تعدد المخلوقات بحكم واحديته فعند ذلك اندك جبله وصعق كليمه فذهبت كثرته فى وحدة الواحد سبحانه وتعالى ، وكانت المخلوقات كأن لم تكن ، وبقى الحق كأن لم يزل .

ومنهم من تجلى له الحق سبحانه وتعالى من حيث اسمه : « القدوس » وكان طريقه بأن كشف له عن سر : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ =

= « سورة ص : الآية : ٧٢ » . فأعلمه أن روحه نفسه لاغيره ، وروح الله مقدسة منزهة ، فعند ذلك تجلى له الحق فى اسمه : « القدوس » ففنى من هذا العبد نقائص الأكوان ، وبقى بالله تعالى منزّهاً عن وصف الحدثان .

ومنهم من تجلى له سبحانه وتعالى من حيث اسمه : « الظاهر » فكشف له عن سرّ ظهور النور الإلهى فى كثائف المحدثات ليكون طريقاً له إلى معرفة الله هو الظاهر ، فعند ذلك تجلى له بأنه الظاهر ، فبطن العبد ببطونه فناء الخلق فى ظهور وجود الحق .

ومنهم من تجلى له الحق سبحانه وتعالى من حيث اسمه : « الباطن » وكان طريقه بأن كشف له عن قيام الأشياء بالله ليعلم أنه باطنها فعند ذلك تجلى له ذاته من حيث اسمه الباطن طمس نوره بنور الحق ، وكان الحق له باطناً وكان هو للحق ظاهراً .

ومنهم من تجلى له الحق من حيث اسمه : « الله » فالطريق إلى هذا التجلى غير منحصر بل إلى تجلى كل اسم من أسماء الله تعالى : فإذا تجلى الحق لعبده من حيث اسمه الله فنى العبد عن نفسه وكان الله عوضا عنه له فيه ، فخلص هيكله من رق الحدثان وفك قيده من قيد الأكوان . هذا عن تجلى الأسماء .

أما عن تجلى الصفات ، فإذا تجلت ذات الحق سبحانه وتعالى على عبده بصفة من صفاتها ، سبح العبد فى فلك الصفة إلى أن يبلغ حده بطريق الإجمال لابطريق التفصيل ، فإذا سبح العبد فى فلك صفة واستكملها بحكم صفة أخرى ، فلايزال كذلك إلى أن يستكمل الصفات جميعها .

(الجيلى ، عبد الكريم : الإنسان الكامل فى معرفة الأواخر الأوائل . =

= حاضر فى أنيته ، ومنهم فاقد للوصول ، ومنهم واجد فى الشهود ، ومنهم حائر فى دهشته ، ومنهم داهش فى حيرته، ومنهم ذائب فى فناه ، ومنهم آيب فى بقاه ، ومنهم ساجد فى عدم محض ، ومنهم عابد في وجوب فرض ، ومنهم مستهلك فى وجود ، ومنهم مستغرق فى شهود ، ومنهم محترق فى نار الأحدية ، ومنهم مغترف فى بحار الصمدية ، ومنهم فاقد للأنس واجد للقدس ، ومنهم واجد للأنس فاقد للقدس ، تدهش الناظر أحوالهم وتهدى الحائر أقوالهم .

وتجليات الحق على ثلاثة أقسام :

١ ـ قسم أظهرهم ليظهر فيه كرمه وإحسانه وهم أهل الطاعة والإحسان .

٢ ـ وقسم أظهرهم ليظهر فيه عفوه وهم أهل العصيان من أهل الإيمان .

٣ ـ وقسم أظهرهم ليظهر فيه نقمته وغضبه وهم أهل الكفر والطغيان .

فهذا سر تجليه تعالى فى الجملة .

(السيد المنوفى : التصوف الإسلامى الخالص ، ص : ١٦٤) .

ويتجلى الحق سبحانه وتعالى لأهل المحبة بصفة الجمال والمحبة ، فسكروا بخمر لذيذ القربة ، شغلهم المعبود عن أن يكونوا من العباد ولامن الزهاد ، اشتغلوا بالظاهر والباطن وهو الله ، فحجبوا عن كل ظاهر وباطن ، وزهدوا فى التنعيم والإنعام ، واشتغلوا بمشاهدة الملك العلام .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ١٤١) .

وكما أن صور التجلى لانهاية لها ، فكذلك العلم بالله ليس له نهاية ولاغاية يقف عندها العارف ، بل العارف فى كل زمان يطلب الزيادة من العلم به .

قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ « سورة طه : الآية : ١١٤ » . =

وقال [١] : لايجوز لشيخ أن يلقن أحداً من الخلق إلا أن يكون يعرف موارد حركاتهم ومصادرها ويعرف الأنفاس [*] والنظرة ومالها ويعرف بالشم أهل الطريق الذين يصلحون من الذين لايصلحون . ويعرف ما قسم لتلميذه من الأعمال حتى يأمره بها على وفق القسمة السَّابقة ومن لا يعرف ذلك لا يأمر الخلق بأن يفعلوا مالم يقسم لهم مالم يستطيعوا بشرطه وأن يشاهد تصاريف الأقدار فى الخلق فيأمرهم بفعل ما أراده الله فى كل وقت .

= وقد قيل :التجلى : هو تأديب وتهذيب وتذويب ، فالتأديب محل الاستتار ، وهو للعوام ، والتهذيب للخواص وهو التجلى . والتذويب للأولياء وهو المشاهدة .

(السيد المنوفى: التصوف الإسلامى الخالص ، مرجع سابق ، ص :١٦٤) .

(١) فى الأصل : غير واضحة ومطموسة .

(*) **الأنفاس** : مفردها النَّفَس بفتح الفاء ، وهو ترويح القلب بلطائف الغيوب ، وصاحب الأنفاس أرقى وأصفى من صاحب الأحوال . فكان صاحب الوقت مبتدئاً ، وصاحب الأنفاس منتهياً ، وصاحب الأحوال بينهما . فالأحوال وسائط والأنفاس نهاية التلقى .

فالأوقات لأصحاب القلوب ، والأحوال لأرباب الأحوال ، والأنفاس لأهل السرائر .

(القشيرى : الرسالة ، ص : ٧٢ ـ ٧٣) .

=

= كما أن النَّفَس روح يسلطها الله على نار القلب ليطفىء شرورها .

(ابن عربي : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١٤) .

وهنا ينبغي أن ننبه أن النَّفَس الرحماني هو الوجود الإضافي الوحداني بحقيقة المتكثر بصور المعاني التي هي الأعيان وأحوالها في الحضرة الواحدية سمي بها تشبيهاً بنَّفَس الإنسان المختلف بصور الحروف مع كونه هواءً ساذجاً في نفسه ونظر إلى الغاية التي هي ترويح الأسماء الداخلة تحت حيطة اسم الرحمن عن كونها ، وهو كُمُون الأشياء فيها وكونها بالقولة كترويح الإنسان بالنَّفَس .

وقد قيل : أفضل العبادات عدّ الأنفاس مع الله سبحانه وتعالى .

وقيل أيضا : خلق الله سبحانه وتعالى القلوب وجعلها معادن المعرفة ، وخلق الأسرار وراءها وجعلها محلاً للتوحيد ، فكل نَّفَس حصل من غير دلالة المعرفة إشارة التوحيد على بساط الاضطرار فهو ميت وصاحبه مسئول عنه .

ومن مرويات الدقاق : لايسلم له النَّفَس لأنه لامسامحة تجرى معه ، والمحب لابدله من نَّفَس إذ لولاأن يكون له نَّفَس لتلاشى لعدم طاقته .

(القشيري :الرسالة ، ص : ٧٣) .

ويورد صاحب : « اللمع » النَّفس . أى نَفَس العبد .

(الطوسي : اللمع ، ص : ٤٢٤) .

وقال الإمام الجنيد رضي الله تعالى عنه : « أخذ على العبد حفظ أنفاسه على ممر أوقاته » . =

= ويقول القائل :

وما تَنفَستُ إلا كنت معْ نفســـى • تجرْى بك الرُّوحْ منى فى مجاريها

ويقول الشافعى :

ياواعظ النَّاس عـمـا أنت فـاعلهُ • يامن يعـد عليه الـعـمـرُ بالنَّفَس

احفظ لشيبك من عيب يدنسه • إن البيـاض قليـل الحـمـل

كما قيل : لوصح لعبد فى عمره نفس من غير رياء ولاشرك لأثرت بركات ذلك لله إلى آخر الدهر .

(أبو عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية ، ص : ٩)

وقد قيل : كل نفس له سجل ممتد من السماء إلى الأرض ، وكل الحقائق تمد الإنسان لأجل أن يشكر ، وخير الشاكرين من عرف نفسه .

كما قيل : من أقبل على الله ألف عام ثم التفت نَفَساً ؛ فإنه بقدر ما أقبل ، ومن لم يتجاوز العلم ، لم يحظ بنفس من المعلوم .

وقيل أيضاً : نَفَس مع الحى حياة القلوب ، ونَفَس فى حياة القلب خير من حياة الفردوس .

ويختلف الباحث والمحقق هنا بصدد هذا النص فى قوله : خير من حياة الفردوس . فأى حياة أعظم من حياة الفردوس مهما كانت هذه الحياة من وصف اتسم بالسعادة والعيشة الهنية فهى فى النهاية حياة دنيوية وليست أخروية فلا أعظم ولا أهنأ من حياة الفردوس فى الجنة لأنها بوصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لها كما أخبر عن الحق سبحانه وتعالى فى حديثه القدسى : « أعددت لعبادي الصالحين ما لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ». =

هذا ما أجمع عليه الأولياء . فمن لم يصل إلى ذلك فليدخل في غمار الناس ولايتصدر لشيء من صفات الأولياء يهلك نفسه .

وقد كثر في هذا الزمان الخبيث التصدر لباب السلوك من القاصرين لقلة من يناقشهم لأن الأولياء كلهم استتروا لعظم مايشاهدون من البلاء .

ولو عرفوا أن هؤلاء المدعين ليس لهم قدم في الولاية مقتوهم ولو كانوا من قومهم . لكنهم يعلمون أنهم ليسوا منهم فهم يتخبطون في ظلام .

= ولاشك أن هذا فى حياة الفردوس فى الجنة .

ومن الضرورى أن نوضح هنا أن للمؤمن ثلاثة أنفاس لا رابع لها .

الأول : نَّفْس فى تحصيل العلم ، والعلم قسمان : قسم يعمل به فوراً مثل الصلاة والصيام عند وجوبه ، وعلم يؤجل حتى يتوفر المال قبل الاتجاه ، أو يأتي وقته وتستوفى شروطه مثل الحج والجهاد .

الثانى : والنَّفْس الثانى فى تحصيل ضرورياته القهرية ، من نوم ومأكل وملبس وزواج وقضاء حاجة وغير ذلك .

الثالث : والنفس الثالث : فى عمل لجلب معاشه من حرفة أو تجارة أو زراعة .

فهذه أنفاس المؤمن الضرورية . وأما مازاد على ذلك فيعد غفلة ، مثل الجلوس فى أماكن اللهو واللعب . ومثل ضياع الوقت فيما لاينفع فى الدين أو الدنيا .

(أبو العزائم ، محمد ماضى : من جوامع الكلم ، ص : ٤٧) .

وقد أجمع (أهل) [1] الله تعالى أنه لايجوز لولى أن يتصدر أو يتظاهر فى الولاية فى وقت (*) من الأوقات حتى تجتمع الأولياء أصحاب الدائرة والطريق ويبايعونه فى اليقظة ويدخلون تحت طاعته كما وقع لسيدى عبد القادر الجيلى وغيره .

---

(١) لاتوجد فى الأصل ، زيادة أضفناها لحفظ سياق المعنى .

(*) **الوقت :** الوقت هو لحظة من الزمن بين الماضى والمستقبل ويكون العبد فيها فارغاً من الماضى والمستقبل بأن يتصل بقلبه وارد من الحق ويجمع فيه سره بحيث لايتذكر الماضى ولا المستقبل فى كشفه . وعلم العبد لايستطيع إدارك السابقة والعاقبة فينافى أن يكون فى الوقت سعيداً مع الحق ومن اشتغل بقلبه فى أمر الغد أو خطر له أمر المستقبل يكون محجوباً عن الحق ولايدخل الوقت تحت اكتساب العبد ولايحصل بالتكلف . والإنسان ليس حراً فى جلبه كما أنه ليس حراً فى دفعه .

وقد قالوا : الوقت سيف قاطع . لأنه يقطع جذور المستقبل والماضى ويمحو من القلب هم الأمس والغد .

(قسم غنى : تاريخ التصوف الإسلامى ، ص : ٩٠٦) .

والوقت عبارة عن « حالتك » فى الزمن الذى لم يكن له علاقة بالماضى ولابالمستقبل .

وبعبارة أخرى : الوقت عبارة عن حالك فى زمن الحال ، لاتعلق له بالماضى ولابالمستقبل .

(ابن عربى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٨) .

ولذلك قيل : الصوفى ابن وقته . كما قيل : الوقت : ماحضرك =

= في الحال فإن كان من تصريف الحق فعليك الرضا والاستسلام حتى يكون بحكم الوقت ، ولايخطر ببالك غيره . وإن كان مما يتعلق بكسبك فالزم ما أهمك فيه لاتعلق لك بالماضي والمستقبل ؛ فإن تدارك الماضي تضييع للوقت الحاضر ، وكذا الفكر مما يستقبل فإن عسى أن لاتبلغه وقد فاتك الوقت . أما عن الوقت الدائم فهو الآن الدائم .

(الكاشاني : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٦٨ ـ ٦٩) .

وقد قيل : الوقت : هو اسم لظرف الكون . حين وجد صادق لإيناس ضياء فضل مجذوب بصفاء رجاء أو عصمة بصدق خوف ، أو لهيب شوق بإشعال محبة ، أو سالك لطريق ، يسير بين تلون وتمكن ، حين تتلاشى فيه الرسوم كشف لاوجود محض .

والمقصود هنا بتلاشي الرسوم هو عدم الاحساس بصور الأكوان بما فيها صورة نفسه ، مع وجودها في الواقع .

(ابن الخطيب : روضه التعريف بالحب الشريف ، ص : ٤٩١) .

ويرتبط الوقت عند الصوفية بالأدب ، فوقتاً يريدون به : أدب الشريعة ، ووقتاً يريدون به أدب الخدمة ، ووقتاً يريدون به أدب الحق .

فأدب الشريعة الوقوف عند مرسومها . وأدب الخدمة : الفناء عن رؤيتها ، مع المبالغة فيها . وأدب الحق : أن تعرف مالك وإلا رميت من أهل البساط .

وقد يقصد بالوقت الزمان . أو بعبارة أخري يقصد بالوقت الزمان النفسي الذي يعيش فيه الصوفي إن سمح لي بهذ التعبير .

وقد يقال : صاحب الزمان : وصاحب الوقت ، وصاحب الحال ، =

....

= هو المتحقق بجمعية البرزخية الأولى المطلع على حقائق الأشياء الخارج عن حكم الزمان وتصرفات ماضيه ومستقبله إلى الآن الدائم فهو ظرف لأحواله وصفاته وأفعاله ، فذلك يتصرف فى الزمان بالطىّ والنشر ! فهو المكان بالبسط والقبض لأنه المتحقق بالحقائق والطبائع ، والحقائق فى القليل والكثير ، والطويل والقصير، والعظيم والصغير سواء ، إذ الوحدة والكثرة والمقادير كلها عوارض . وكما يتصرف فى الوهم فيها فكذلك فى العقل . وافهم تصرفه فيها فى الشهود والكشف الصريح . فإن المتحقق بالحق المتصرف بالحقائق يفعل ما يفعل فى طور وراء أطوار الحس والوهم والعقل ، ويتسلط على العوارض بالتغيير والتبديل .

(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١٤٨) .

ويقول الدقاق : الوقت ما أنت فيه ، إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن . (القشيرى : الرساله ، ص : ٥٢) .

ويريد الدقاق بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان .

وقد قال قوم : الوقت هو مابين الزمانين ، يعنى الماضى والمستقبل . ويقولون : الصوفى ابن وقته . يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أولى به فى الحال قائم بين بما هو مطالب به فى الحين . (المصدر السابق ، ص: ٥٣) .

كما قيل : الفقير لايهمه ماضى وقته وآتيه بل يهمه وقته الذى هو فيه .

كما قيل : الاشتغال بفوات وقت ماض تضييع وقت ثان .

وقد يريدون بالوقت ما يصادفهم من تصريف الحق لهم دون ما يختارن لأنفسهم ويقولون فلان بحكم الوقت . أى أنه مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختيار له ويطلق الوقت على الزمان النفسى عند =

= الصوفية ، مراعاة للأنفاس ، وهى عندهم أزمنة نفسية دقيقة يمر بها المريد ، وقد اشترطوا أن يكون السالك في كل نفس من أنفاسه « وهى الأزمنة النفسية » مراعياً لحق الله تعالى فيه .

وهنا يقول الواسطى : « أخذ على العبد حفظ أنفاسه على ممر أوقاته » .

ويختلف مفهوم الصوفية للوقت أو الزمان النفسى بمعنى توفيته اللحظة الحاضرة عن معناه اللغوى الذى يعنى المقدار من الدهر ، وأكثر ما يستعمل فى الماضى .

ولما كان التصوف عبارة عن أزمنة نفسيه ، أو حالات وجدانية يعاينها السالك للطريق من خلال شعوره شعوراً داخلياً بذاته ومرور الأوقات أو الأحوال عليه ، من قبض ، وبسط ، وحزن ، وسرور ، وحب ، وخوف ، ورجاء ، وفناء ، وبقاء ، وما إلى ذلك ، وهذا بالإضافة إلى المقامات ، من توبة ، وزهد ، وصبر ، وشكر ، وتوكل ، وتفويض ، وتسليم .

وكذلك نجد الصوفية يعتمدون فى حياتهم على منهج الاستبطان النفسى ، أو التأمل الباطني بمعنى أن يتأمل السالك نفسه بنفسه باطنياً فى إدراكه لمرور الوقت والشعور به وجدانياً ، وتوفية اللحظة الحاضرة حقها من العمل المثمر ، أثناء المجاهدة والمحاسبة والمراقبة ، والرياضات النفسية ، والترقى فى المقامات والأحوال .

ونخلص من ذلك إلى أن الصوفى يشعر بالزمان النفسى أو الشعورى ، حين ينعكس على ذاته ، منصرفاً عن العالم الخارجى ، فيشير إلى توالى أحواله النفسية على نحو لايشعر الصوفى فيه بنفسه أو الزمان أو الأنية لأن حال الفناء ينتفى معه شعور الصوفى بالأنية ، وبالتالى ينتفى شعوره بالزمان .

فما بالك بمن لم يعرفه أحد من الأولياء ولم يعده منهم . ولم يبايعه أحد منهم . ولاقال له ولى واحد فى اليقظة : اعمل شيخاً بل استند إلى منام رآه أو أذن له فقيه من مشايخ هذا الزمان الذين لاقدم لهم فى الطريق . فاعلم ذلك واحذر من تلبيس النفس عليك حين يستحسن حالك ويقول لك : ابرز للخلق فإن فى ذلك هلاكاً .

(قال تعالى) [1] : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (أ) والسلام.

وقال : من عرف من أين جاء عرف إلى أين يصير . وهنا أسرار (*) لا تفشى .

---

(١) زيادة أضفناها يقتضيها السياق .

(أ) سورة فاطر : الآية : ١٤ .

(*) **السر** : السر جمعه أسرار . والسر ماخفى عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق سبحانه وتعالى .

وقد قيل : السر لطيفة مودعة فى القالب كالأرواح ، ويطلق لفظ السر على ما يكون مصوناً مكتوماً بين العبد والحق سبحانه وتعالى فى الأحوال ، وعليه يحمل قول من قال : « أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم » .

ويقولون : « صدور الأحرار قبور الأسرار » .

كما قيل : لوعرف زرى سرى لطرحته .

من هنا قيل : صيانة الأسرار عن الالتفات إلى الأغيار من علامات الإقبال على الله تعالى .

=

= (أبو عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية ، ص : ٦٩) .

فالسر الذى يسلم من رعونة البشر سر ربانى .

ويقول إبراهيم بن أدهم : لاتكون كاملاً حتى يأمنك عدوك ، وكيف يكون فيك خير وأنت لايأمنك صديقك ؟!

وأنشد الكريزى :

اجعل لسرك من فؤادك منزلاً • لايستطيع إلى اللسان دخولا
إن اللسان إذا استطاع إلى الذى • كتم الفؤاد من الشئون وصولا
ألقيت سرك فى الصديق وغيره • من ذى العداوة فاشياً مبذولا

قد قيل : فالعاقل من حذر صديقه .

ويضاف إلى ذلك ما قاله الأعمش : يضيق صدر أحدهم بسره ، حتى يحدث به ، ثم يقول اكتمه علىّ .

(ابن حبان البستى : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، ص : ١٩١) .

وقال أبو حاتم : الظفر بالحزم ، والحزم بأصاله الرأى ، وأصالة الرأى بتحصين الأسرار ، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده ، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم وأذاعوها ، ومن لم يكتم السر استحق الندم ، ومن استحق الندم صار ناقص العقل ، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل .

فتحصين السر للعاقل أولى به من التلهف بالندم بعد خروجه منه .

فلسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه .

ولذلك قيل : لاتفعل شيئاً خفية ، لأن الزمن يرى ويسمع ولايكتم السر .

كما قيل : سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره . =

= فالقلوب أوعية ، والشفاه أقفالها ، والألسن مفاتيحها ... فليحفظ كل إنسان مفتاح سره .

ومن حكم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : العادات قاهرات ، فمن اعتاد شيئاً في سره وخلوته فضحه في جهره وعلانيته .

من هنا كان لابد من كتمان الأسرار وعدم تبليغها لأحد . لذلك قيل : قلوب الأحرار قبور الأسرار .

ويقول الإمام علي رضي الله تعالى عنه : الكلام في وثاقك مالم تتكلم به ، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه .

ولقد عبر عن هذا ابن الجوزي بقوله : رأيت أكثر الناس لايتمالكون من إفشاء سرهم ، فإذا ظهر عاتبوا من أخبروا به .

فوا عجباً كيف ضاقوا بحبسه ذرعاً ثم لاموا من أفشاه .

ولعمري إن النفس يصعب عليها كتم الشيء ، وترى بإفشائه راحة ، خصوصاً إذا كان مرضاً أو هماً أو عشقاً .

(ابن الجوزي : صيد الخاطر ، ص : ٣٠٩ ـ ٣١٠) .

كما قيل : الأسرار معتقة عن رق الأغيار من الآثار والإطلاق ، ويطلق لفظ السر على ما يكون مصوناً مكتوماً بين العبد والحق سبحانه وتعالى .

(القشيري : الرسالة ، ص : ٤٤ ـ ٤٥) .

وقد قيل : إن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام سراً ، وللعلماء سراً ، وللملوك سراً ، فلو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أظهروا سرهم للعامة لفسدت النبوة ، ولو أن العلماء أظهروا سرهم للعامة لفسدت عليهم ، ولوأن الملوك أظهروا سرهم للعامة لفسد ملكهم . =

••

= (الشعراني : الطبقات الكبرى ، ج١، ص : ٤٨) .

كما قيل : أصل العقل الصمت ، وفرع العقل العافية ، وباطن العقل كتمان السر ، وظاهره الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم .

وكتم السر من شيم الأحرار ، وخلق الأبرار ، والمحافظة على الأسرار .

فكتمان السر خلق مركب من الوقار ، وأداء الأمانة ، فإن إخراج السر من فضول الكلام . وليس بوقور من تكلم بالفضول .

(ابن عربي : تهذيب الأخلاق ، ص : ٢٧) .

وكتمان السر محمود من جميع الناس ، وخاصة ممن يصحب السلطان ، فإن إخراجه أسراره ـ مع أنه قبيح ـ يؤدى إلى ضرر عظيم ، يدخل عليه من سلطانه . وإفشاء السر من الأخلاق الرديئة . وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة ، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ولم يتسع صدره لحفظ ما يسر له والسر أحد الودائع ، وإفشاؤه نقيصة على صاحبه ، فالفاشي للسر خائن .

وهذا الخلق قبيح جداً ، وخاصة ممن يصحب السلاطين ويداخلهم .

ويقول أحد العلماء : من أبدى من أسرار الله تعالى مالايليق إبداؤه وأفشى من العلم المكنون مالايناسب إفشاؤه عوقب بسوء الظنون فيه أوبما هو فوق ذلك من العقوبات .

(عبد الحليم محمود : عبدالله بن المبارك ، ص : ١٥٠ ـ ١٥١) .

وكان أحد العلماء يقول : من كتم سره ملك أمره ، ومن لم يكتم شيئاً أظهر من الأحوال ما يدل عليه . فلا تظهر لقومك إلا ما تعرف منهم قبوله منك .

=

= وقال آخر : السر فى المتكلم لافى كلامه ، فمتى انبسط المتكلم إلى السامع انشرح له كلامه وإن قل ، ومتى انقبض المتكلم لم تنبسط للسامع معانى كلامه وإن كثر. والكلام صفة المتكلم ، فمن وجد الموصوف وجد صفته وإلا فلا إذ الصفة متى انفصلت عن موصوفها زالت مرتبتها وغاب عنها .

وقيل لبعض الحكماء : من المخلص ؟ قال : الذى يكتم حسناته كما يكتم سيئاته .

(السمر قندى : تنبيه الغافلين ، ص : ٥) .

ولاشك أن هذا القول يتشابك مع قول بشر بن الحارث الذى يقول فيه :

« اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك » .

وسئل الإمام مالك رضى الله تعالى عنه عن الحكمة ؟ فقال : مازهد عبد واتقى إلا أنطقه الله بحكمة ، ثم قال : من أراد أن يفتح الله عين قلبه فليكن عمله فى السر أكثر من عمله فى العلانية لأن عمل السر منبع الإخلاص ، والإخلاص منبع الحكمة .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ٣٢٠) .

وعن الحسن أنه قال : يا ابن آدم إن لك قولاً ، وعملاً، وسراً ، وعلانية ، وعملك أولى بك من قولك ، وسرك أولى بك من علانيتك .

(ابن حنبل : الزهد ، ص : ٢٨٢) .

وقال عمرو بن العاص : ما استودعت رجلاً سراً فأفشاه ، فلمته ؛ لأنى كنت أضيق صدراً ، حين استودعته .

وعن الإمام على رضى الله تعالى عنه أنه قال : « من لم يكن عنده سنة الله ، وسنة رسول الله ، وسنة أوليائه فليس فى يده شىء » . =

= قيــل له : ماسنة الله ؟ قـال : كـتمان السـر . وقيل : مـا سنة رسول الله . قال : المدارة بيـن النـاس . وقيل : مـا سنة أوليائه ؟ قـال : احتـمال الأذى عن الناس . وكانــوا من قبلنا يتـواصون بثلاث خـصال ويتكاتبـون بها : مـن عـمـل لآخـرته كـفـاه الله أمـر دينـه ودنيـاه . ومن أحـسن سـريرته أحـسن الله علانيتـه ، ومن أصلح مـا بينه وبين الله أصلح الله مـا بينه وبين الناس » .

(ابن حجر : الاسـتعداد ليوم الميعـاد . بيروت : مؤسسة المعـارف ، الطبعة السادسة ، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، ص : ١٢)

وقد قيل : من حفظ اللسان سلم فى الدنيا والآخرة .

كما قيل : إن الرجل لايعطى لسانه وقلبه وروحه لأحد غير الله تعالى ، فهو يعطى لسانه للسـالكين لتقوى رغبـتهم ، ولينجذبوا بالتلقيـن والسماع إلى مـقامـات الوصل والاتصال . ويعطى قلبـه للواصلين ليـدر عليهم رحـيق اليقين من القلـب للقلب . ويعطى للمتمكنين روحه لتـسوح أرواحهـم فى ملكوت الله الأعلى فتـشرف على قدس الله . أمـا لسانه وقلبـه وروحه فلله وحده .

ويقول الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه :

إذ المرء أفشـى سـره بلسانـه ● ولام عليـه غيـره فـهـو أحـمـق

إذا ضاق صدر المرء عن سـر نفسه ● فـصـدر الذى يستـودع السـر

كما قال :

احفظ لسانك أيهـا الإنسـان ● لايـلدغنـك إنه ثعبـانُ

كـم فى المقابر من قتيل لسانه ● كانت تهاب لقاءه الأقرانُ =

فاعلم ذلك فإذا لم يعلم الشيخ ذلك فكيف يسلك ويتشبه بالأولياء الذين يعرفون ذلك والأدب خيرلك كثير والسلام .

وقال : لو سئل القاصرون من مشايخ هذا الزمان عن حقيقة مايدْعون الخلق إليه لعُرفوا . فكيف يدعو إلى من لا يعرفوه ؟

= وقال أيضاً :

إذا أشئت أن تحيا سليماً من الردى • ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوأة • فكلك سوءات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معايباً • فدعها ، وقل ياعين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى • وفارق ولكن بالتي هي أحسن

(الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس : ديوان الشافعي ، ص : ٦٥) .

وكتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثوري : من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن أطلق أمله ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه .

(أبو عبدالرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ١٣) .

ومما يحكي عن الفضل بن الربيع أنه صار إلى أبي عباد ـ في نكبته ـ يسأله حاجة فارتج عليه فقال : يا أبا العباس بهذا اللسان خدمت خليفتين ! فقال : إنا تعودنا أن نُسأل ولانَسأل .

(أبومنصور الثعالبي : درر الحكم ، ص : ١٣) .

لذلك نقول : كما فرض الله على الأنبياء إظهار الآيات والمعجزات ليؤمنوا بها كذلك فرض على الأولياء كتمان الأسرار حتى لايفتتن الخلق بها . =

فإن قالوا : دعونا الخلق إلى طريق القرب (*) من الله تعالى .

= ومن الحكم الرائعة : ألسنة مستنطقات ، تحت نطقها مستهلكات ، وأنفس مستعملات ، تحت استعمالها مستهلكات.

(*) **القرب :** القرب حال يشعر به المريد في كل خطوة يخطوها ، بحيث يدرك أن الله أقرب إليه في كل آن من حبل الوريد . ومن الواضح أن القرب ليس قرباً مكانياً ، وإنما هو قرب روحى خاص بالوجود الإلهى الذى لايخلومنه مكان والذى يوجد فى كل مكان .

(الكلاباذى : التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص : ١٣٠) .

فعندما ينطق الصوفية كلمة قرب فلابد وأن ننبه هنا أنها لاتعنى عندهم المكان ، أو الارتفاع فى المكان .

(مصطفى محمود : السر الأعظم ، ص : ٧٥) .

وإذا ذهبنا إلى الجنيد نجده يقول : « قريب لابالتلاق ، بعيد بلا افتراق » .

(محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، ص : ٢٢١) .

ولقد أضاف قائلاً : « ... ولاكيفية لقربه ومعيته ، وكذلك قربه ومعيته ليس كمعية أحد وقربه ، وأنه تعالى كان ولم يكن معه شيء ، وهو الآن على ما هو عليه » .

(الغزالى : روضه الطالبين وعمدة السالكين ، ص : ٧٤) .

كما فسر الإمام الجنيد القرب ، بقوله : « إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب مايرى من قلوب عباده له ، فانظر ماذا يقرب من قلوب عباده »

(محمد مصطفى : دراسات عن الجنيد ، ص : ١٩٣) . =

= ويمضي قائلا : إن القرب هنا قرب معنوى ، لأنه ليس كمثله شيء .

كما قال أبو الحسين النورى شارحاً لحالات القرب والبعد : « فأما القرب فتعالى الله الملك الحق عنه ، إنه متقدس عن الحدود ، والأقطار ، والنهاية ، والمقدار ، وما اتصل به مخلوق ، ولاانفصل عنه حادث مسبوق ، به جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل ، فقرب هو فى نعته محال ، وهو تداني الذوات ، وقرب هو واجب فى نعته ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز في وصفه يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل واللطف .

ويقول الطوسى : عن القرب : « هو فناء رؤيا العبد فى أفعاله لأفعاله » .

ولعل أهم ما ينبغى أن أؤكد عليه فى هذا المقام أن القرب ليس معناه الذوبان أو الانصهار فى الذات بمعنى الاتحاد أو الامتزاج أو الوحدة .

فليس القرب أن يفنى الإنسان وجوده في وجود الله كما تقول فلسفة الإشراق . تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .

ويحدثنا القشيرى عن أول رتبة فى القرب بأنها القرب من طاعته والاتصاف في دوام الأوقات بعبادته .

(القشيرى : الرسالة ، ص : ٤٤) .

كما أضاف قائلاً : « وقرب تجليات » . أي بمعنى كل على حسب مكانته ودرجته عند الله سبحانه وتعالى .

(محمود بن الشريف : الحب فى القرآن ، ص : ٥٨) .

وقد قيل : القرب عبارة عن الوفاء بما سبق فى الأزل من العهد الذى =

= بين الحق والعبد في قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾
« سورة الأعراف : الآية : ١٧٢ » .

وقد يخص مقام القرب بمقام : « قاب قوسين » .

وهذا اللون من القرب هو القرب الخاص برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رحلة المعراج التي كانت مناجاة ووحياً ورؤية .

إن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وصل إلى أفق لم يعد فيه مكان لجبريل : وارتقى إلى مستوى من النور لم يكن لجبريل عليه السلام فيه مجال ، فكان صلى الله عليه وآله وسلم في الحضرة الإلهية ، ودون واسطة ، فناجى ربه عزوجل ، وأوحى إليه ما أوحى .

(عبد الباري محمد داود : الفناء عند صوفية المسلمين ، ص : ١٢٧) .

قال تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ « سورة النجم : الآية : ١١ » .

إن سيدنا محمداً في هذا الأفق كان وحده ، وكان جبريل عليه السلام في أفق أقل ، فكانت المناجاة مع الله . وكان الوحي من الله . وكانت الرؤية لله تعالى .

(عبد الحليم محمود : الإسراء والمعراج ، ص : ٥ ـ ٦) .

ويقول ابن عطاء الله : قربك منه أن تكون مشاهداً لقربه ، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه ؟؟

ويعلق ابن عجيبة على هذا المعنى بقوله : « إذا حققت أن الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوه بأحدية ذاته ، علمت علم اليقين ، أن الأكوان والمكان والزمان لاوجود لها ، وأن الحق كما كان وجوده وحده ، فلا أين ولامكان ولازمان ، نور أحديته محا وجود الأكوان ، فانتفى بوجوده الزمان =

= والمكان ، ولم يبق إلا الواحد المنان » (ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ، ص : ٣٣٦) .

ومن ثم ينمحي الكون تماماً ، ويصبح مجرد مظهر أو مجلى لذلك الوجود الإلهي الواحد الذي لايشاركه فيه غيره من المكونات .

ويرى ابن عجيبة هنا : أن القرب هو قرب الوصول إلى الحق اليقين وهو المعرفة الحقيقية التي يصل إليها الواصل إلى مقام المعرفة وهو منتهى مقامات السالكين . (المصدر السابق ، ص : ٣٦٧) .

ويقول ابن عجيبة أيضاً : « إنما يتفاوت القرب أيضاً بتفاوت الترقي في الطريق تبعاً لتصفية النفس ، فيكون أولاً مراقبة ، ثم شهوداً ووصولاً ، ثم محواً واضمحلالاً ، أي فناء ، ثم بقاء وتنزلاً .

والسبيل إلى ذلك يكون بالمجاهدة والمكابدة ، وهو مقام أهل السلوك من المحبين كما أطلق عليهم الشاذلي .

ولقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ « سورة العلق : الآية : ١٩ » .

فالساجد إذا أذيق طعم السجود تقرب ، لأنه يسجد ويطوي بسجوده بساط الكون ماكان وما يكون ، ويسجد على طرفي رداء العظمة .

(الرندي : غيث المواهب العلية ج١ ، ص : ١٠١) .

وخاتمة القول : قرب العبد إنما يعني : القرب بالإيمان والتصديق ، ثم القرب بالإحسان والتحقيق . وقرب الحق سبحانه وتعالى مايختص به من العرفان ، وفي الآخرة مايكرمه به من الشهود والعيان ، ولايكون قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق .

قال لهم الله تعالى : فإن اعتقدتم التقرب منى فقد حددتمونى وأنا لا أحَدُّ .

وإن قالوا : دعوناهم إلى طريق سعادتهم لنقربهم منها قال لهم الحق : سعادة الخلق لم تزل قائمة بهم وما برحَت معهم فى حال طلبكم القربة إليهم فإن لم تعلموا ذلك فقد جهلتم . والجاهل لاينبغى له أن يتصدر لباب الدعوة (*) .

وإن علمتم ذلك فما صدقتم وأى فائدة لدعوتكم ؟ وإن قلتم إنما طلبنا بالدعوة تقريب الخلق إلى معرفة ذواتهم . قال لكم الحق : الشىء لايحمل نفسه فطلب القربة ممن لا يعرف لايصح . وإن قلتم طلبنا بذلك القربة إلى معرفتك . قال لكم الحق : كيف تعرفون من ليس كمثله شىء .

(*) **الدعوة :** يقول أحد الحكماء : « من أعان صاحب بدعة ، فقد أعان على هدم الإسلام .

كما أضاف قائلاً :« لايرتفع لصاحب بدعة إلى الله عمل .

ومن نصائحه إذا رأيت مبتدعاً فى طريق ، فخذ فى طريق آخر .

(عبد الحليم محمود : الفضيل بن عياض ، ص : ١٣) .

ويدل كلامه على شدة تمسكه بالسنة وبغضه للبدعة قوله : أحب أن يكون بينى وبين صاحب البدعة حصن من حديد . وعمل قليل فى سنة ، خير من عمل كثير من صاحب بدعة .. ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة .

فاعلم واحذر أن تعمل شيخاً فى هذا الزمان بالدعوى فإن كل مدعٍ ممتحن فى الدنيا والآخرة . وقد أوضحنا ذلك فى (كتاب) [(١)] « لواقح الأنوار » . فراجعه والله يتولى هداك .

وقال : من لازم من يعمل شيخاً فى هذا الزمان على أحد من الخلق استحسان حاله وازدراء إخوانه ومنازعة الله تعالى فى أوصاف الكمال لو رأى إخوانه أحسن حالاً منه أو مثله لما يمكنه أن يطلب منهم أن يتتلمذوا له فلابد له من تحقيرهم وازدرائهم . وكفى بذلك جهلاً وضلالاً !!

ولكن لما صارت ولاة الزمان ولاة بالقهر والغلبة ، كذلك فقراء الزمان صاروا فقراء بالنظام والهيئة وكثر اتباع العمى وذلك كله لمناسبة الزمان بعضه ببعض . فكل من جَمَّع له جماعة فى زاويته وجعل له سماطاً مما شحته من الخلق صار شيخاً عند العامة لأن ليس الشيخ عندهم إلا من كان حوله جماعة ولو كان من أكابر الأولياء فليس عندهم شيخ أو شيخ على الفتح لايعبأون به .

فلما لحظ القاصرون من العامة هذا الملحظ لبسوا على الخلق العمى وادعوا الولاية الكبرى وقالوا لهم : لكم ما تأكلون وما تشربون لعل ماهم مشايخ عند العامة إلا بهم ولايقدرون أن

---

(١) زيادة أضفناها يقتضيها سياق المعنى .

يصطادوا خبزاً ولا جبناً ولا عسلاً ولا عدساً ولا غير ذلك إلا بهم فصارت المشيخة باباً [١] من الشحاتة .

ولعمرى لايصلح أن يسمى شيخاً إلا الفلاحون وأهل الصنائع لأنهم هم الذين يطعمون الشيخ تارة بكسبهم وتارة بنصيبهم . فالشيخ معدود عند الله تعالى من جملة عيالهم .

واعلم أنه قدر جماعتك على قدر منازعتك الله فى الكمال واسترقاق الخلق لك . فمن رأى نفسه شيخاً على واحد من الخلق [٢] كائناً ما كان فقد شرع فى دركات المنازعة والطرد . ومن رأى اثنين نزل على دركتين وهكذا .

وقد أوضحنا حال مشايخ هذا العصر فى رسالة : « الأنوار القدسية فى معرفة آداب العبودية » [٣] .

فراجعها تعرف أن مشايخ عصرك قد خرقوا السياج وليس أحد منهم أهل لأن يقتدى به .

---

(١) في الأصل : باب .

(٢) في الأصل : مطموسة .

(٣) أحد مؤلفات الإمام الشعراني موجود بدار الكتب والوثائق تحت الأرقام التالية : ٢٨ تصوف عربي ، ٧٤٠ مجاميع عربي ، ٢٨٠٣٥ ب عربي . وهذا المخطوط مطبوع بهامش الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى بجزئيه الأول والثانى .

ومن شك فى ذلك فليعرض أوصاف القرآن ونعوته لأهله وخاصته تعلم ذلك يقيناً . فخير الناس من كان مقبلاً على حرفته مؤدياً لغرضه واعتزل هؤلاء المدعين أجمعين فإنهم لايحبون إلا التلميذ الذى يطعمهم ويبرهم . فلذلك يقدمونه على أقرانه لاسيما إن كان يصطاد لهم المريدين ويأتى بهم إليهم فلذلك يمدحونه ويقولون لتلامذة العمى الذين حولهم لأجل اللقمة ما عرف طريقنا غير فلان فيمدحون أنفسهم ويُحثوا الحاضرين أن يسلكوا مسلك ذلك التلميذ .

وقال : سبب فتح باب المشيخة والتسليك للخلق فى هذا الزمان شهودهم كثرة البلاء النازل على الخلق فى قلوبهم ونفوسهم ليلاً ونهاراً وعلمهم بأن الأمر راجع إلى وراء . فلو أراد أحد منهم أن يتمشيخ على تلميذ لم يقدر أن يدفع عنه عارضاً من العوارض وربما رجع العارض على الشيخ عقوبة له على سوء أدبه [1] . هكذا شهود من هو فى حضرة الملوك أوقات غضبهم . وقد اشتد الأمر ولايزداد إلا شدة حتى تكتمل الدورة وتقوم القيامة إذا علمت ذلك علمت أن ترك العارفين فتح هذا الباب فى هذا الزمان هو عين الأدب مع الله تعالى .

---

(١) فى الأصل : غير واضحة .

فلا يفتحه الآن من أعمى الله بصره وبصيرته (*) من هؤلاء المدعيين للمراتب والمتنازعين عليها .

(*) **البصيرة :** البصيرة قوة للقلب منورة بنور القدس ، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس الذي يرى به صور الأشياء وظواهرها ، وهي القوة التي يسميها الحكماء : العاقلة النظرية ، وإذا تنورت بنور القدس وانكشف حجابها بهداية الحق فيسميها الحكيم القوة القدسية .

(الكاشاني : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٥٣) .

وقد قيل : إن البصيرة هي بمثابة القوة التي ينظر به القلب ، كما أن البصر هو الآلة التي ينظر بها الهيكل الإنساني . وبذلك فإذا كان البصر يرى المحسوسات الظلمانية الوهمية ، فإن البصيرة ترى المعاني اللطيفة النورانية .

وتبعاً لتلك المعاني النورانية التي ترد على السالك يقوم ابن عجيبة بتقسيم البصيرة إلى خمسة أقسام جاءت على الترتيب التالي :

أولا : بصيرة فسد ناظرها ، وهي بصيرة الكفار التي عميت عن إدراك نور الحق فأنكرت وجوده من أساسه ، وبذلك فقد أقامت في الجهل تماماً .

ثانياً : بصيرة صح ناظرها لكنها مسدودة ، وهي بصيرة أصابها المرض فضعف ناظرها ، وهي تقر بوجود نور الحق تعالى ، لكنها لاتقوى على مشاهدته ، ولاتشهد قربه منها ، ولابعده ، وهي لعامة المسلمين . =

ثالثاً : بصيرة صح ناظرها وقوى بعض الشىء فتحقق بمقام شعاع البصيرة ، وكاد أن يفتح عينه ولكنه لشدة الشعاع لم يطق ذلك ، إلا أنه قد أدرك شعاع النور قريباً ، ومن ثم توجه إليه ، وبذلك فهذا القسم خاص بعامة المتوجهين .

رابعا : بصيرة قوى ناظرها ففتح عين بصيرته ، وأصبح فى مقام عين البصيرة ، ومن ثم فقد أدرك النور محيطاً به فغاب عن نفسه فى مشاهدته . وأصحاب تلك البصيرة هم خاصة المتوجهين ، وهم الذين انفتحت عين بصيرتهم وأدركت ماخفى على غيرهم وهم أصحاب عين اليقين .

خامساً : قسم صحت بصيرته واشتد نورها فاتصل بنور أصلها ، ومن ثم فلم تر إلا النور الأصلى ، وأنكرت أن يكون ثم شىء زائد على نور الأصل ، وتسمى هذه الحالة حق البصيرة ، والواصلون إلى تلك الدرجة يدركون الحق ، ويغيبون عن شهود الخلق ، ومن ثم يتحققون بمقام حق اليقين .

ومما سبق يتضح لنا أنه إذا كان أصحاب القسم الأول والثانى من تلك الأقسام بعيدين عن المعرفة ، ولم ينالوا أى قسط من حدودها ، فإنه يمكن أن نحصر هذه المعرفة بين الأقسام الثلاثة الأخيرة تبعاً لدرجة اليقين التى ينالها كل قسم منها على الوجه التالى :

أولا : علم اليقين : وأصحاب هذا القسم من المعرفة هم أهل الدليل والبرهان الذين اعتمدوا على الأعمال فضنوا فيها ، ومن ثم ألقى الله على بصيرتهم بنور الإيمان ، أما مشاهدتهم فتقتصر على عالم الملك ، أى عالم الكون والمظاهر الفانية ، فتقتصر مشاهدتهم بذلك على المعانى الإلهية المتجلية فى الموجودات الوهمية .

= (ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ، ص : ٤٢٨) .

ثانيا : عين اليقين : وأصحاب هذا القسم من المعرفة هم أهل الكشف والبيان ، وهم الذين وصلوا إلى مشاهدة نور الحقيقة الإلهية ، أو مشاهدة عالم الملكوت ، وهو عالم التكوين الملحق بأصله ، أى العالم الروحانى ، أو العالم النورانى الفائض من بحر الجبروت . ولكن هذا السالك يشاهده كثيفاً نورانياً بدون ضمه إلى أصله فى اللطافة ، بمعنى أنهم يكونون فى فناء شهود المكونات .

ثالثاً : حق اليقين : والواصلون إلى هذا الحد من المعرفة هم أهل الشهود والعيان الذين يشرق على بصيرتهم نور الرسوخ والتمكين ، وذلك بعد تحققهم بمشاهدة نور الجبروت . أى نور المعرفة الأصلى اللطيف المضموم إلى أصله وهو الحق تعالى حيث يشاهده الواصل سارياً فى عالم التكوين ، ومن ثم فإنه يرى الأشياء كلها قائمة بالله ، فيتحقق بالمعرفة اليقينية به تعالى .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ٤٢٨) .

وهكذا تتدرج حدود المعرفة إلى الكمال تبعاً لما يتمكن به السالك من التحقق به فى أنوار المشاهدة التى تشرق على بصيرته أو قلبه ، فينشأ أول الأمر القدرة الإلهية ظاهرة فى الكون أو عالم الملك ، ثم ينتقل إلى مشاهدة أنوار الحضرة الإلهية بلا أين . أى بلا خبر أو مكان أو حدود فى عالم روحانى سرمدى ، فيفنى بتلك المشاهدة فى ذلك العالم أول الأمر ، ثم يرده الحق إلى عالم البقاء ، فيجمع بين مشاهدة العالمين ، عالم الملك ، وعالم الملكوت ، وبذلك يرسخ فى المعرفة ويجمع بين مشاهدة =

= العالمين ، وبذلك يكون قدوصل إلى أقصى حدود المعرفة التى لا يمكن أن يصل إليها بشر باستثناء الأنبياء عليهم السلام .

هذه هى البصيرة التى هى بمثابة البوصلة الداخلية التى لابد منها لمن يتجاوز طور الأخلاق السلبية المتمثلة فى الناموس إن سمح لى بهذا التعبير .

وقد قيل : البصيرة إنما هى تأديب وتعليم لمن له البصيرة فى دين الله .

كما قيل : إن البصيرة شيئان : شىء قسمته لك ، وشىء صرفته عنك ، فمن اشتغل بهما أو بواحدة منهما فقد قل فهمه وعظم جهله ، وذهل عقله ، واتسعت غفلته ، وقل من ينتبه لمن يوقظه ؛ فإن جاءك محبوب بالشرع أو بالطبع أوبهما ، أوجئته أنت فهو من القسم الأول ، فكن بى ولياً فيما قسمته لك أكن لك بالرحمة فيما صرفته عنك ، وفيما يساق من المكروه إليك ؟ فأشغلك بما هو أولى بك عما هو مصروف عنك ، وأذيقك حلاوة الرضا بقضائى حتى يكون المكروه أحب إليك من كل محبوب بالطبع هو لك ، وإن لم تكن بى ولا لى فيما قسمته لك وكلتك إلى نفسك فيما هو مصروف عنك وفيما يساق من المكروه إليك ، وإن الله ليعجب من عبد يجتهد فى صرف ماهو مصروف عنه وفى دفع مالابد له منه ، فاعمل لله باليقين ، واثبت إلا من حيث أثبته النهى حيث أثبته ، واهتم بالأمر حيث أمرك ، وانته عن النهى حيث نهاك على البصيرة فى اليقين .

(ابن عياد الشافعى : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية ، ص : ١٠٦) .

وقد قيل : إذا أردت أن تنظر إلى الله ببصيرة الإيمان والإيقان دائماً فكن لنعم الله شاكراً ، وبقضائه راضياً .

كما قيل : البصيرة كالبصر أدنى شىء يقع فيه تعطل النظر وإن لم ينته

وقد كلمت شخصاً من أكابرهم فى قلة (اعتقاده أن) [١] يشهد نفسه عاصياً مقصّراً ممن يشهد نفسه من الأولياء المقربين فتأمل وكن ذنباً لاتكن رأساً فإن الضربة أول ما تقع فى الرأس والله يتولى هداك .

وقال : احذر من دعواك طريق الفقر وأنت تجد فى نفسك كراهية لمن لايعظمك ولايناديك بألفاظ السيادة والمشيخة والصلاح بل والإسلام . فإن المسلم الكامل فى هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر ولايكون المسلم كاملاً حتى يسلم لسانه وسمعه وبصره ويده وفرجه وقلبه مما حرم الله تعالى ظاهراً و باطناً [*] .

= = الأمر به إلى العمى ، فالخطرة من الشر تشوش النظر وتكدر الفكر ، والإرادة له تذهب الخير رأساً ، والعمل به يذهب بصاحبه عن سهم من الإسلام فيما هو فيه ويأتى بضده ، فإن استمر الشر تفلت منه الإسلام سهماً سهما .

وقد قيل : عمى البصيرة فى ثلاثة أشياء : إرسال الجوارح فى معاصى الله ، والتصنع بطاعة الله ، والطمع فى خلق الله ، فمن ادعى البصيرة مع واحدة من هذه فقلبه هدفه لظنون النفس ووساوس الشيطان .

(١) زيادة أضفناها حفظاً للمعنى والسياق .

(*) **الظاهر والباطن** : لقد شغلت مسألة التوفيق بين الشريعة والحقيقة الصوفية منذ نشأة التصوف ذاته ، فلم يكن الصوفية يفهمون من الدين حرفيته الظاهرة فقط ، ولا من الشريعة مجرد الرسوم والأوضاع التى =

= تعبر عن ظاهرة الأحكام فقط ، بل كانوا غالباً ما ينحون نحواً مختلفاً شيئا عن نحو الفقهاء مما أثار بعض الفقهاء عليهم « كابن الجوزى مثلاً » . مع أن الالتزام بظاهر الشريعة والاقتداء الدقيق بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانا من دأب معظم الصوفية منذ القدم .

فالقشيرى يبدأ رسالته التى ألفها سنة ٤٤٠هـ مطالباً الرجوع بالتصوف إلى سيرته الأولى ، وذلك لما رأى منهم من التوانى والفتور فى مسائل الشريعة اعتماداً على ما سموه : « بالحقيقة » .

وهنا يقول : « إن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم » .

(القشيرى : الرسالة ، ص : ٤) .

كما قيل : حصلت الفترة (أى الفتور والضعف) فى هذه الطريقة بل اندرست الطريقة بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه . وارتحل من القلوب حرمة الشريعة .

ولم تذهب ضجة القشيرى صرخة فى واد ، ولم تكن دعوته إلى المحافظة على الدين والتزام أحكام الشريعة سدى ، فإن الغزالى الذى أتى من بعد القشيرى بنحو نصف قرن من الزمان قد أخذ على عاتقه مهمة التوفيق بين التصوف وتعاليم الدين ، أو بين الحقيقة والشريعة .

وجد الإمام الغزالى الحقيقة التى كان ينشدها فى الطريق الصوفى ، ولكن لم تصرفه هذه الحقيقة عن الشريعة ، ولاحولته عن عقيدة أهل السلف .

(أبوالعلا عفيفى : التصوف ، الثورة الروحية فى الإسلام . الإسكندرية ،=

= دار المعارف ، فرع الإسكندرية ، سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م ، ص : ١٢٠)
فالحقيقة فى نظر الإمام الغزالى لابد أن تكون مؤيدة بما ورد فى ظاهر الشرع . أما كون الحقيقة فى نظر الغزالى لاتتنافى مع الشريعة فيدل عليه قوله فى « الإحياء » : « من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة ، والباطن يخالف الظاهر ، فهو إلى الكفر أقرب . وكل حقيقة غير مقيدة بالشرع فغير حاصله » .

(الغزالى : إحياء علوم الدين . القاهرة : دار الشعب ، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ، ج١ ، ص : ١٧١ ـ ١٧٢) .

فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق . فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قدر وأخفى وأظهر . فكأن الحقيقة فى نظر الإمام الغزالى تأييد عن طريق الشهود لماورد فى ظاهر الشرع .

فالشريعة تدعوك إلى القيام بأعمال العبادة ونحوها ، والحقيقة تشهدك على معانى الألوهية .

كما هاجم الإمام الغزالى المبتدعة الذين يزعمون أن الحقيقة أفضل من الشريعة ، ثم يغلفون باطلهم بمصطلحات وشطحات وألفاظ خارجة عن الإسلام مخرجة لهم منه .

فمن يقول : أنى متحقق ولست بمتشرع ، ، أو من يزعم أنه سقطت عنه التكاليف لوصوله إلى بحار الحقيقة . فقد ضل وأضل .

(جميل محمد أبو العلا : التصوف الإسلامى نشأته وأطواره . القاهرة : مكتبة قاصد كريم ، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص : ٨١) . =

....

= فالغزالى برسالته الجديدة قام بتصحيح الأوضاع فى آفاق الشريعة والحقيقة على أساس منهجي سليم وكان صاحب الفضل فى هذا .

ولاشك أن الغزالى أدى هذه الرسالة على أكمل وجه كفليسوف صوفى ، وكرجل دين ، وكإمام ، وكحجة للإسلام قبل وبعد كل شيء .

(عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص : ٦٠٨) .

كما رسم الغزالى حدود التصوف ومعالمه سائراً به إلى الدعائم العملية فوصل به إلى القمة فى هذا الشأن ، وهنا يشير إلى الدعامة الأولى وهى الكتاب والسنة ، وعليه فلا مكان فى التصوف الحقيقى لمن يفصل بين الشريعة والحقيقة ، أو يسقط العمل بالشريعة .

لامكان لمن يسقط التكاليف بدعوى أنه وصل إلى الحقيقة ، وهو بدعواه هذا أقرب إلى الضلال منه إلى الإيمان .

فالشريعة عمل الجوارح ، والحقيقة معرفة البواطن . أى أن العبادة التى يقف أثرها عند ظاهر الإنسان غير مقبولة شرعاً .

فالغزالى كانت مهمته الأولى فى فلسفته الصوفية العلمية ، استواء الظاهر والباطن ، أوصدق واتساق الظاهر مع الباطن ، أو تطبيق الباطن فى الظاهر على أساس المنهج الإسلامى .

ولاشك أن الغزالى ردّ للمنهج مكانته ، كما ردّ للتصوف الحق اعتباره على أساس عقلى متأدب بأدب الشرع دون خضوع أعمى للتقليد .

فالغزالى كما ذكرنا كان حريصاً كل الحرص على إعطائنا السند =

....

= الصحيح في دعوته لاتخاذ ميزان العقل كمرجع للتمييز بين المتوهم أو المعقول من المعارف الذوقية .

وقد حدد ابن خلدون مفهوم الغزالي في فلسفة الاستقامة ، أو الصدق ، أو الاتساق ، أو الاستواء بين السر والعلن ، والباطن والظاهر ، والنية والسلوك . فقال : « إن أعمال الباطن مبدأ لأعمال الظاهر ، وأعمال الظاهر آثار عنها ، فإن كان الأصل صالحاً كانت الآثار صالحة » .

وقد أبان ابن خلدون ما توسع في فلسفته الغزالي عن الاستواء بين السر والعلن حيث رأى أن تكون ظواهر الإنسان وبواطنه على اتفاق فيما يقوم به من أعمال .

ولقد كان الغزالي أول من حل مشكلة الظاهر والباطن بفلسفته في استواء السر والعلن ، وتحقيق الحقيقة في الشريعة .

وقد كان المحاسبي من الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة ، أو بين الظاهر والباطن كما عرف عنه ، وربما كان مغلباً لجانب الشريعة على الحقيقة ، أو أن الحقيقة عنده لابد وأن تكون مستمدة من الشريعة موازية لها . توازى القرار العميق مع الظاهر أو السطح .

ومما ينبغي أن يفهم عن المحاسبي أنه كان المقدمة الهامة للإمام الغزالي قمة التصوف السني .

ويذهب الطوسي في : « اللمع » فيقول : « إن علم الشريعة هو علم واحد واسم واحد يجمع معنيين : الرواية والدراية . فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال الظاهرة والباطنة . =

= فأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن ، وتهذيب الجوارح يدل على تهذيب القلوب ، وآداب الظاهرة يدل على آداب الباطن .

ومما يروى عن الجنيد أنه دخل على أبى حفص النيسابورى ، فرأى أصحابه واقفين أمامه عند رأسه كأصحاب الملك . فقال الجنيد : أدبت أصحابك يا أبا حفص أدب الملوك ؟!

فقال : لايا أبا القاسم ولكن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن .

(أبو عبد الرحمن السلمى : أصول الملامتية وغلطات الصوفية ، تحقيق عبد الفتاح الفاوى محمود . القاهرة ، مطبعة الإرشاد ، سنة ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، هامش ص : ١٣٩) .

فكما أن للأدب ظاهراً وباطناً ، فكذلك للعلم ظاهر وباطن ، فالظاهر سماع بالأذن ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح ، والباطن تصديق القلب ، وصحة اليقين ، وثبوت المعرفة ، فإذا صدق القلب استنار بنور الهدى الذى هو من هبات الله عزوجل ، لأن الهدى لايدرك بوقوع علم ، ولابحضور فهم .

قال تعالى :﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾«سورة البقرة : الآية:١٢٠».

من هنا كانت الأعمال بالنيات ، فإذا خلصت السريرة قويت البصيرة ، وكان العلم نافعاً فى الدنيا والآخرة ، وكما لاتصلح الصلاة والعبادة إلا بطهارة الظاهر كذلك لايصلح العلم إلا بطهارة الباطن .

ويقول الإمام على رضى الله تعالى عنه : « إن للقرآن ظاهراً ، وباطناً ، وحداً ، ومطلعاً .

وقد قيل : الظاهر للنحاة والقراء ، والباطن للمفسرين وأصحاب المعانى ، والحد للفقهاء والعلماء ، والمطلع لأرباب الكشف والتحقق . =

••

= (ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية ، ص : ٣٣٢) .

ويذكر أحد العارفين أن العلوم ثلاثة : ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن ، كما أن للإنسان ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن .

ومن الملاحظ على هذا النص السابق أنه جعل علم الشريعة ظاهراً ، وعلم الطريقة باطناً ، وعلم الحقيقة باطن الباطن ، إلا أن القوم من الصوفية حصروا العلم في الظاهر والباطن .

فالشريعة علم واحد يدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة ، فلا يجوز أن يجرد القول في العلم بأنه ظاهر أو باطن ، لأن العلم متى كان في القلب فهو باطن إلى أن يجرى ويظهر على اللسان فهو ظاهر .

وفي هذا يقول سهل : « ما من طريق أفضل من العلم (يعنى العلم بالشرع) . فإن عدلت عن طريق العلم خطوة تهت في بحر الظلمات .

ويقول أبو سعيد الخراز : كل باطن يخالف ظاهر فهو باطل .

(أبو العلا عفيفي : التصوف ، الثورة الروحية ، ص : ١١٩) .

من هنا جاء التنبيه والتحذيرعلى كل من يدعي العلم الباطن ويقتصر عليه.

ونسترشد هنا بمثال يسوقه المحاسبي يقول فيه : « وكثير ممن يدعى العلم الباطن ويقتصر عليه : يذم العلم الظاهر الذى هو الشرائع والأحكام والحلال والحرام ، ويطعن في أهله ويقول : هؤلاء محجوبون وأصحاب قشور! ، وهؤلاء كما قال الإمام الجنيد وغيره من العارفين : وصلوا ولكن وصلوا إلى سقر . وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام . =

••

= ومنهم من يظن أن هذا العلم لايتلقى من مشكاة النبوة ، ولا من الكتاب والسنة ! وإنما يتلقى من الخواطر والإلهامات والكشوفات !! فأساءوا الظن بالشريعة الكاملة ، حيث ظنوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع ، الذى يوجب صلاح القلوب وقربها من علام الغيوب ! وأوجب ذلك لهم الإعراض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالكلية أو التكلم فيه بمجرد الآراء والخواطر ، فضلوا و أضلوا .

(المحاسبى : رسالة المسترشدين ، تحقيق عبد الفتاح غدة . بيروت : دار السلام ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ، ص : ٨٣ ـ ٨٤) .

ولقد كشف الإمام الغزالى دعوى هؤلاء فى كتاب : « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » ، وبين أنهم أكثر من سبعين فرقة منهم : القرامطة ، والثعلبية ، والمحمرة ، والسبعية ، والمزدكية ، والزيدية ، والإسماعلية ، وغيرهم ، وتدعى هذه الفرق جميعاً نفس هذا الادعاء وهو قولهم بأن لظواهر القرآن بواطناً . ويدعون أن الذين يهتمون بالظاهر العوام والأغبياء ، أما الذين يؤلون المعنى القرآنى وينفذون إلى الباطن فهم الأذكياء ، ويشبهون القرآن فى ظاهره بالقشر ، أما باطنه فهو اللب . وهؤلاء جميعاً قد خرجوا عن الشريعة الإسلامية .

ولاشك لدينا فى أن الفصل بين الظاهر والباطن هو الخلاف الأساسى بين المنهج الإسلامى السليم وأى منهج آخر من مناهج الفلسفات الصوفية وغير الصوفية .

فالعقيدة الإسلامية من بين العقائد الموروثة ، هى العقيدة التى تظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين هما : « الظاهر » و « الباطن » . أعنى « الشريعة » .

=

••

= من هنا نوضح أن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالاً يجعل منهما مظهرين لشيء واحد ، أحدهما خارجي ، والآخر داخلي ، أو أحدهما ظاهر والآخر باطن .

وعلى ضوء ماسبق يمكننا القول بأنه : « لايكمل الصوفي في التحقق بالصفات الإلهية حتى يجمع بين صفات الظاهر وصفات الباطن منها ، فتمثل فيه الوحدة والكثرة والحقيقة والشريعة . فإنه لايكفى أن يفنى عن كل ماهو صفة للخلق ، من غير أن يبقى بالحياة الإلهية الأبدية كما هي متجلية في آثار الله عزوجل . والبقاء بالله بعد الفناء عن النفس علامة الإنسان الكامل الذى لايسير إلى الله فحسب .أى يفنى عن الكثرة ويبقى بالوحدة فحسب ، بل يسير إلى الله ، مع الله ، وبالله . أى يبقى على الدوام في حالة الوحدة . فإذا مارجع إلى عالم الظاهر الذى منه ابتدأ ، رجع مع الله وكان في نفسه مجلى الوحدة في الكثرة . وفى حركة النزول أو الرجوع هذه يجعل الشريعة شعاره والحقيقة دثاره ، لأنه يرجع إلى الخلق فيظهر الحق لهم ويقوم في الوقت نفسه بما يقتضيه الشرع .

(رينولد نيكلسون : في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ترجمة أبو العلا عفيفي القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، ص : ٨٢) .

ومن شأن مراعاة ظاهر الشريعة أن يجعل العبد متحققاً بعبوديته ، وبذلك يسلم من الشطح أو تعدى آداب العبودية .

وهذا ما نبه عليه داود بن باخلابقوله : « إذا أكرم الله عبداً طوى عنه شهود خصوصيته وأقامه في تحقيق عبوديته ، فهو أبداً يسير في ذل وانكسار ، لابساً ثوب سكينة ووقار ، سالماً من الغلط عند تجلى شمس الخصوصية =

= وغيبة ليل البشرية ، محفوظاً من الفتن عند سطوات الأنوار ، وإذا كان العبد بشهود خصوصيته غائباً عن مراعاة عبوديته خيف عليه من الشطح والانبساط ، وتعدى حدود الأدب ، والعدول عن سواء الصراط » .

وكذلك أقامت المدرسة الشاذلية التصوف على الفقه كما أمر بذلك الشاذلى ، وتابعه رواد الطريقة ، والذى يؤكد صحة ذلك قول ابن عطاء الله السكندرى : « يلزم الخشية من الله تعالى والوقوف على حدود الله ، وهو علم المعرفة بالله تعالى ، ولكن من استرسل بإطلاق التوحيد ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف به فى بحر الزندقة ، ولكن الشأن أن يكون بالحقيقة مؤيداً ، وبالشريعة مقيداً ، وكذلك المحقق فلا يكون منطلقاً مع الحقيقة ، ولا واقفاً مع ظاهر إسناد الشريعة . وكان بين ذلك قواماً .

(ابن عطاء الله السكندرى : تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس القاهرة : المطبعة اليمنية ، سنة ١٣٢٢هـ/ ، ص : ٣٦) .

فالوقوف مع ظاهر الإسناد شرك ، والانطلاق مع الحقيقة من غير تقيد بالشريعة تعطيل ، ومقام الهداية فيما بين ذلك .

فالشريعة إذن ما ورد به التكليف ، والحقيقة ماورد به التعريف : فالشريعة مؤيدة بالحقيقة ، والحقيقة مقيدة بالشريعة ، فكل شريعة حقيقة من وجه ، وكل شريعة حقيقة من جه آخر باطنى كما يقرر القشيرى فى رسالته .

فمن ادعى كمال الطريقة بغير أدب الشريعة فلا برهان له ، ومن ادعى وجود الحقيقة بغير كمال آداب الطريقة فلا برهان له .

فأدب الشريعة مبنياً على شهود الخلق فى شهود الحق ، وأدب الحقيقة =

••

= مبنياً على فناء الخلق فى شهود الحق ، وتباين الأمران تعين الأمر الظاهر ، وتحتم إيطان الباطن خشية المعارضة والتعطيل ، وهذا هو سبب عدم بناء الحكم فى الظاهر على الحكم الباطنة ، إذا لو ترتب عليها حكم لتعذر على غالب الناس الجمع بينهما ، وأمضى بنا الحرج والتشديد إلى نطاق بعيد .

فعلم الشريعة إذن ظاهر وباطن ، الأعمال الظاهرة فى عمل الجوارح ، كالعبادات ، والأحكام ، أما الأعمال الباطنة فهى أعمال القلوب وهى الأحوال والمقامات .

ومن هنا كان لزاماً الحرص على طلب علم الشريعة قبل الحقيقة ، وذلك لأن طلب التفقه فى الشريعة فرض على كل مسلم .

وأما طالب الحقيقة بعد أداء الشريعة فإنه ينبغى له أن يجاهد متواصلاً . وهنا يصبح ملكاً لله وليس ملكاً للخلق ، فإنه لافرق بين الشريعة والحقيقة ، لكن لابد للسالك أن يتخطى درجات الظاهر إلى الحقيقة .

لذلك يجب تحصيل العلم كما يحصله العلماء وفهم ما قالوه وما جربوه ، ثم الاجتهاد بالرياضات والمجاهدات والمعاناة لتنكشف لهم من المعارف مالم ينكشف عن طريق العلم العقلى أو الكسبى مستخدمين طريق الشريعة والحقيقة ، والظاهر والباطن جميعاً .

وقد ورد فى السنة ما يغنى العبد عن الأدعية المخترعة فلا ينبغى لأحد مزاحمة الشارع فى التشريع فيكون مبتدعاً . والحق أن الذى يدعى أنه يمكن التعرف على الحقائق دون العلم الظاهرى ، أى دون الاعتماد على العلوم العقلية والكسبية فإنه ـ فى واقع الأمر ـ قد ظلم نفسه وضيع عمره .

وعلى ضوء ماتقدم فإن تسمية علماء الشريعة بأنهم علماء الظاهر فيه =

= إجحاف بالشريعة وعلمائها إن أريد بذلك أن الشريعة وعلماءها تقف عند إصلاح ظاهر الإنسان فقط وتقتصر عن إصلاح باطنه .

وأننا لانتفق مع هذا الرأى لأن الشريعة لم تشرع لإصلاح الظاهر فحسب ، بل هى كفيلة بإصلاح ظاهر الإنسان وباطنه .

فالإسلام ظاهر وباطن ، فلا غنى عن الظاهر بالباطن ، كما أنه لاغنى عن الباطن بالظاهر . والصوفية يربطون بين الظاهر والباطن ، أى بين الشريعة والحقيقة .

والسؤال الآن : مامشكلة الظاهر والباطن بين كل من الصوفية والفقهاء ؟

والجواب : لقد أثارت مشكلة باطن الشريعة خصومة بين الصوفية والفقهاء ، حيث يرى الصوفية أن الفقهاء قدوقفوا على الرسوم الظاهرة بينماهم قد تدبروا أحكام الشرع واستنبطوا بذوقهم معانى باطنة تتعلق بفضائل الأعمال التى بنيت عليها مقامات رفيعة فى الدين .

(أحمد محمود صبحى : الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ، ص : ٢٨٧) .

المشكلة بين الصوفية والفقهاء إذن هى :

هل التعاليم الشرعية مجرد عبادات ظاهرة أم لها مغزى أعمق ؟

هل يمكن أن تكون الصلاة مجرد أفعال وأقوال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم ، أم هى مناجاة قلبيه وصلة روحية بين العبد والرب ؟

وماذا عن مبطلات الصلاة : هل هى حركات تتعلق بالجوارح وقت أدائها فحسب ؟ أم أن المنكر يحبطها ومافى الجوف من طعام يبطلها ؟

أما الصوفية فقد استنبطوا من ظاهر الأوامر التعبدية معانى خلقية =

= وجعلوها ـ كعادتهم في اعتبار الباطن أصل الظاهر ـ غاية لما افترض على المسلم من فرائض .

فالمشكلة بين الصوفية والفقهاء في الفهم إذ يفهم الصوفية من حياة النبي وأحاديثه ، ومن القرآن الكريم مالايفهمه الفقهاء والعامة من المسلمين وهم يسمون ذلك بالمستنبطات الصحيحة في فهم القرآن والحديث .

(الطوسي : اللمع ، ص : ١٤٧) .

فالصوفية يرون أن لهم منهجاً في فهم القرآن ، والحديث ، وحياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمكنهم من إيجاد علم ومعرفة جديدة غير علم الفقه ، والكلام ، وسائر العلوم الإسلامية الأخرى ، وهو علم « الإشارة » الذي يكشف للصوفية المعاني المذكورة ، واللطائف ، والأسرار المخزونة ، وغرائب العلوم وطرائف الحكم في معاني القرآن الكريم ، ومعاني أخبار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، من حيث أحوالهم وأوقاتهم ، وصفاء أذكارهم .

قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

« سورة محمد : الآية ٢٤ » .

وأقفال القلوب مايقع على القلوب من صدأ لكثرة الذنوب ، واتباع الهوى ، ومحبة الدنيا ، وطول الغفلة ، وشدة الحرص ، وحب الراحة ، وحب الثناء ، والمحمدة ، وغير ذلك من الغفلات والزلات ، والمخالفات .

لذلك نوضح أن علوم الصوفية اشتركت مع علوم غيرهم في المرتبة الأولى من مراتب العلم ، وهي مرتبة علم اليقين الذي يعطى الدليل بتصور الأمور على ماهي عليه ، وامتازت عليها بمرحلتين أخريين : =

وأين للمدعين هذه الرتبة ولا جارحة لهم إلا وعصت الله مراراً . فتأمل ذلك . فإذا كان هذا فى رتبة الإسلام فكيف تسلم له رتبة الولاية فضلا عن رتبة الإسلام ؟ وكيف يليق بمن لم يحصل له رتبة الإسلام أن يكون داعياً إلى الله تعالى لاينازعه فى الكمال والاسم فإن الولى اسم من أسماء الله تعالى .

ولعَمْرِىَ إبليس أكثر تواضعاً (*) من هؤلاء المدعين وأعرف

= **إحداهما :** مرتبة عين اليقين : وهو ماتعطيه المشاهدة والكشف .

والأخرى : مرتبة حق اليقين : وهو فناء العبد فى الله والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً .

وقد قيل : علم اليقين : ظاهر الشريعة ، وعين اليقين : ظاهر الإخلاص فيها ، وحق اليقين : المشاهدة فيها .

(محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص : ١٢٠) .

(*) **التواضع :** التواضع خلق من أخلاق المسلم الحق الذى يؤمن إيماناً كاملاً بالمنهج الإسلامى . ويتخذه دستوراً له فى حياته . فالتواضع هو الفهم الحقيقى للكتاب والسنة .

من هنا نستطيع القول : إن التواضع إنما يكون للدين . ومعنى التواضع للدين هو أن يتواضع المرء لعظمة الحق سبحانه وتعالى . فيكون التواضع لله عزوجل .

ومن هنا يرى الباحث أنه لايكون تواضع إنسان لإنسان فمن فعل ذلك =

بطريق الله تعالى منهم فإني اجتمعت به وقال لي : كيف تزعمون أنكم أولياء الله وتحبون أن يكون لكم من الكمال مثل ماله وتحبون أن تعظمكم الخلق ؟

= فقد خرج عن دائرة التواضع ووقع في دائرة الذل البشري .

فالتواضع على ضوء ما تقدم هو التواضع للأمر الإلهي والنهي . أي أن يأتمر المرء بما أمر الله سبحانه وتعالى به وينتهي عما نهى الله عنه تعالى .

وفي عبارة أخرى :

فالتواضع هو الانقياد الكامل والإذعان والتسليم للأمر والنهي .

وكذلك التواضع هو اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾

« سورة الأحزاب : الآية ٢١» .

من هنا كان التواضع هو الانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والاستسلام له ، والإذعان . ويتم ذلك بثلاثة أشياء .

الأول : أن لايعارض شيئاً مما جاء به .

الثاني : أن لايتهم دليلاً من أدلة الدين .

الثالث : أن لايجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين القاهرة : دار التراث العربي ، الطبعة الأولى ،١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م ، ج٢ ، ص : ٢٤٨ ـ ٢٤٩) .

وإذا مانفذ المرء هذه الأمور الثلاثة صار من المتبعين لرسول الله صلى الله =

والله إنى لأكـره أن تعظمنى الخلق فى أمـر من الأمـور أو ينسبوا إلىّ فعلاً أو قولاً وأحُب أن ينسب إلىّ جميع النقائص والعيوب التى فى الوجود وأن يحقرونى إلى الطرف الأقصى ليتميز الحق بالكمال المطلق وأتميز أنا بالنقص المطلق لأن تنقيصهم رد إلى أساسى وتعظيمهم لى خروج عنه إلى صفات سيدى . انتهى كلام إبليس .

= عليه وآله وسلم والمنفذين لسنته والعاملين بها علماً وعملاً وسلوكاً وتطبيقاً .

وكذلك يكون من المنفذين للنصوص القرآنية ولايعارض دليلاً من أدلة الدين ولايخالفه فى كل سلوك .

وقيل : التواضع : هو أن لاترى لنفسك قيمة ، فمن رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب .

هذا هو التواضع الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وطبقه على نفسه عندما كان يمنع أصحابه من الوقوف له . وكان يقول أنا أجلس كما يجلس العبد ، وآكل كما يأكل العبد ، أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

ولقد كان منهج الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فى سلوك الطريق الحق متمسكين بالتواضع فى كل قول وعمل لينالوا رضوان الله سبحانه وتعالى .

ولقد قيل التواضع : يتولد من العلم بالله سبحانه وتعالى ، ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله ، ومن معرفته =

= بنفســه وتفاصيلهـــا ، وعيــوب عملهـا وآفاتهـا ، فيتـولد بين ذلك كله خلق هو التواضع .

والتواضع على ضوء ماتقـدم إنما يعنى انكسار القلب لله عز وجل وخفض جناح الذل والرحمة لعباده فـلايرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً ، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله ، وهذ خلق إنما يعطيه الله عزوجل من يحبه ويكرمه ويقربه .

(ابن قيم الجوزية: الروح ، القاهرة : مكتبة المتنبى ، بدون تاريخ ، ص : ٢٣١)

وفى الصـحـيح عن الرسـول صلى الله عليـه وآله وسلم أنه قـال : « **إن الله أوحى إلىّ أن تواضـعوا حتى لايفـخر أحـد على أحد ولايبغـى أحد على أحد** » .

وما أجـمل ما نطق به بعض الحكماء ـ وكان مـن الصالحين ـ لـرجل آخر يفتخر : أيفتـخر من أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو فـيما بينهما وعاء عذرة .

(ابن عربى : مـحاضرة الأبرار ومـسامرة الأخـيار ، القـاهرة : دار الكتاب الجديد ، بدون تاريخ ، ج١ ، ص : ١٨) .

ومما أورده ابن المبـارك : رأس التواضـع أن تضع نفـسك عند من دونك فى نعمة الدنيـا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليـه فضل ، وأن ترفع نفسك عمن فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل .

هذا النص الذى سـجله ابن المبـارك يوضـح حقـيـقة التـواضع فى مـعالجـة النفس فيكون المرء مخالفاً لنفسه عندمن هو دونه وعند من هو فوقه .

وكذلك من الأمـور التى ينبغى أن نتنبـه لها هــى أن الحب والخـوف وذكر الموت يورث لامحـالة التواضع . =

....

= والتواضع فى أسمى مظاهره كما صورناه من قبل هو أن تخضع للحق ، وتنقادله ، وتقبل الحق من كل من تسمعه منه . ولاشك أن هذا تفسير جميل للتواضع يتناسق فى انسجام مع خلق الصدق حسبما نرى .

وعلى غرار ما تقدم نستطيع أن نقول : إن التواضع يرتبط بالصدق ، فمن كان متواضعاً كان صادقاً ، ومن كان صادقاً كان متواضعاً .

ومن هنا فالتواضع يثمر صدقاً فيصبح خلقاً من أخلاقه .

وينبغى أن تعلم أن من يتواضع تكلفاً فهو ثقيل على نفسه وهو عاطل عن خلق التواضع بل الخلق عبارة عن هيئة للنفس يصدر عنها الفعل بسهولة من غير روية وتكلف . لكن التكلف هو طريق تحصيل الخلق فإنه لايزال يتكلف أولاً حتى يصير ذلك طبعاً وعادة . فلاتنظر إلى الفعل بل إلى الهيئة الراسخة التى تصدر منها الأفعال بيسر من غير تكلف .

(الغزالى : الأربعين فى أصول الدين ، ص : ١٩١) .

وتتمثل حقيقة التواضع من النظر لنقص النفس وعيوبها .

وقد قيل : لايبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه فعند ذلك تذوب النفس وعند ذوبانها صفاؤها عن غشى الكبر والعجب .

(ابن عطاء الله : الحكم ، بشرح عبد الله الشرقاوى ، ص : ١١٨ ـ ١١٩) .

ويقول ابن عطاء الله متحدثاً عن حقيقة التواضع : تواضع وانكسر . وحط أشرف ما عندك ـ وهو رأسك ـ فى أخفض ما يكون ـ وهى الأرض ـ لتحوز مقام القرب . كما ورد فى الحديث : « **أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد** » . لأن قرب العبد بتواضعه وانكساره وخروجه عن أوصاف بشريته .

=

فتأمل أدبه فأين أنت منه وأنت تكاد تضيق عليك الدنيا بما رحبت إذا لم يعظمك الناس ولا يعتقدوا . فاعلم ذلك ولا تغش نفسك فإن الإنسان على نفسه بصيرة والله يتولى هداك .

وقال : كن مع إخوانك كما هم فى جميع أحوالهم ولا تتميز عنهم بشىء إلا أن تكون مغلوباً فيه فإن مزحوا فامزح (*)

= فالتواضع هو كل خلق محمود يكون عند أمر الله امتثالاً ، وعند نهيه اجتناباً ، فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره فيبدو منها نوع إباء وشراد هرباً من العبودية وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه ، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية .

كما يكون التواضع لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه فكلما شمخت نفسه ذكر عظمة الرب سبحانه وتعالى وتفرده بذلك وغضبه الشديد على من نازعه على ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله قلبه واطمأن لهيبته وأخبت لسلطانه .

فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس . والتواضع حقيقة من رزق الأمرين والله المستعان .

(ابن قيم الجوزية : الروح ، ص : ٢٣٢) .

(*) **المزاح** : يقول صاحب : « أدب الدنيا والدين » : اعلم أن للمزاح إزاحة عن الحقوق ومخرجاً إلى القطيعة والعقوق يصم المازح ويؤذى الممازح ، فوصمة المازح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرى عليه الغوغاء والسفهاء وأما أذية الممازح فلأنه معقوق بقول كريه وفعل ممض إن أمسك عنه أحزن قلبه وإن قابل عليه جانب أدبه . فحق العاقل أن يتقيه وينزه نفسه عن وصمة مساويه . =

وان تكلموا تكلم ، وإن سكتوا فاسكت ، وهذا من أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم .

= (أبو الحسن البصرى : أدب الدنيا والدين ، ص : ٣١٣)

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى » .

وقال : عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه : « اتقوا المزاح فإنه حمقى ثورث الضغينة » .

وقال بعض الحكماء : إنما المزاح سباب إلا أن صاحبه يضحك .

وقيل : سمى المزاح مزاحاً لأنه يزيح عن الحق .

وقال إبراهيم النخعى : المزاح من سخف أو بطر .

وقال بعض الحكماء : من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلاقه طابت غيبته .

وقال بعض البلغاء : من قل عقله كثر هزله .

واعلم أنه قلما يعرى من المزاح من كان سهلاً . فالعاقل يتوخى بمزاحه إحدى حالتين لاثالث لهما :

إحداهما : إيناس المصاحبين والتودد إلى المخالطين . وهذا يكون بما أنس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل .

والحالة الثانية : أن ينفى بالمزاح ما طرأ عليه من سأم وأحدث به من هم . فقد قيل : لابد للمصدود أن ينفث .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يمزح على هذا الوجه . روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إنى لأمزح ولاأقول إلا حقاً » . =

••

= فمن مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ما روى أن عجوزاً من الأنصار أتته فقالت يارسول الله ادع لى بالمغفرة . فقال : أما علمت أن الجنة لايدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : « أما قرأت من القرآن قول الله عزوجل : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾« سورة الواقعة : الآيات : ٣٥-٣٧ ».

وأتته أخرى فى حاجة لزوجها فقال لها : ومن زوجك ؟ فقالت : فلان .

فقال لها : الذى فى عينيه بياض . فقالت : لا . فقال : بلى . فانصرفت عجلى إلى زوجها وجعلت تتأمل عينيه . فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن فى عينك بياضاً . فقال : أما ترين بياض عينىّ أكثر من سوادهما .

وقد قال بعض الحكماء : إذا مازحت عدوّك ظهرت عيوبك .

وقد قيل : إذا أردت أن توفق للهيبة فاترك المزاح والضحك فإنهما يسقطان الهيبة .

وكان الفضيل بن عياض رضى الله تعالى عنه معنياً بأهل الحديث ، ناصحاً لهم ، موجهاً لسلوكهم . لقد رأى مرة قوماً من أصحاب الحديث ، يمزحون ويضحكون بصورة تتنافى مع وضع الأئمة . فناداهم : مهلاً ياورثة الأنبياء ، مهلاً . ثلاثا . إنكم أئمة يقتدى بكم .

(عبد الحليم محمود : الفضيل بن عياض ، ص : ٥٤)

لذلك يقال : الأخلاق الرديئة التى تعد نقائص ومعايب التبذل ، وهو إطراح الحشمة ، وترك التحفظ عن الهزل واللهو ، ومخالطة السفهاء ، وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش ، والتفوه بالخنا ، وذكر الأعراض والمزح ، والجلوس فى الأسواق ، وعلى قوارع الطرق ، =

= والتكسب بالمعاش الردىء ، والتواضع للسفلة . وهذا الخلق قبيح بجميع الناس .

وكان يزيد بن ميسرة رضى الله تعالى عنه يقول : كنا نضحك ونلعب ونمزح فلما بلغنا المحل الذى يقتدى بنافيه فما بقى إلا الإمساك عن ذلك .

(الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ٣٩) .

ويجوز المزاح ، أو المداعبة بالكلام من أجل السرور ، والمؤانسة ، واستمالة القلوب ، فى حدود الحق والصدق ، وتجنب إيذاء الغير .

وهو الذى كان يفعله النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

روى الترمذى بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قالوا : يارسول الله إنك تداعبنا . قال : إنى وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقاً .

وفى الحديث : « لاتمار أخاك ولاتمازحه ، ولا تعده موعداً فتخلفه » .

(رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما)

وأوصى سعيد بن العاص ابنه فقال : « يابنى لاتمازح الشريف فيحقد عليك ، ولاالدنىء فيجترئ عليك » .

واعلم أنه لابأس بالمزاح مالم يكن سفيهاً . والله تعالى وعد فى اللمم بالتجاوز والعفو فقال : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ « سورة النجم : الآية ٣٢ » .

والمزاح على ضربين : مزاح محمود ، ومزاح مذموم .

فأما المحمود من المزاح : فهو الذى لايشوبه ماكره الله عزوجل ، ولايكون بإثم ولاقطيعة رحم . =

= وأما المزاح المذموم : فهو الذى يثير العداوة ، ويذهب البهاء ، ويقطع الصداقة ، ويجرئ الدنئ عليه ، ويحقد الشريف به .

وقد قيل : إياكم والمزاح ، فإنه يفسد المودة ، ويغل الصدر .

إن اليقين الذى لاشك فيه أن المزاح فى غير طاعة الله مسلبة للبهاء ، مقطعة للصداقة ، يورث الضغن ، وينبت الغل .

(ابن حبان البستى : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، ص : ٧٧) .

ومن الحق أن نقول : إن المزاح سمى مزاحاً لأنه زاح عن الحق ، وكم من افتراق بين أخوين ، وهجران بين متآلفين ، كان أول ذلك المزاح .

من هنا قيل : لاتمازح إلا من يحبك .

ولقد قيل : لاتمازح الغلمان فتهون عليهم ، أو يجترئوا عليك .

وكان ابن بكار يقول : ما رأيت ابن عون يمازح أحداً قط لشغله بنفسه وبما هو صائر إليه .

(الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج١ ، ص : ٥٥) .

مما يروى عن إبراهيم بن أدهم ـ كما يقول أبو عبد الرحمن الأعرج ـ كان يحدثنا ويضاحكنا ، وإذا رأى غيرنا قال : هذا جاسوس .

وأما اليسير من المزاح ، فلاينهى عنه إذا كان صدقاً . فإن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يمزح ولايقول إلاحقاً . فقد اتفق فى مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أشياء أحدها : كونه صدقاً . والثانى : كونه مع النساء والصبيان ، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال . والثالث : كونه نادراً ، فلا ينبغى أن يحتج به من يريد الدوام عليه ، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم .

فاعلم ذلك والزم الأدب وأخفى نظام شيخك عن الخلق، واحذر من ملازمتك لحال من الأحوال لاتتعداه فى ملبسك أو مأكلك أو نومك أو عزلتك (*) أو خلطتك أو غير ذلك من الأمور التى فشت فى فقراء هذا الزمن الخبيث ، فصار[1] دأبهم العبوسة وإطراق الرأس ووضعها فى الطوق والاحتجاب عن الخلق فى أوقات ضبطوها لأنفسهم لايكلمون أحداً فيها وكل من جاء لحاجة يقول له النقيب (**) سيدى الشيخ

(*) **العزلة :** العزلة من اعتزل أي تنحى جانباً . ولقد وردت بهذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

« سورة مريم : الآية : ٤٨ » .

والعزلة من أمارات الوصلة ولابد للمريد فى ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه . ومن حق العبد إذا آثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره .

(حسن محمد الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ، ص : ٢٣٤) .

(١) فى الأصل غير واضحة .

(**) **النقيب :** جمعها نقباء . وهم الذين تحققوا بالاسم الباطن ، فأشرفوا على بواطن الناس ، واستخرجوا خفايا الضمائر لانكشاف الستائر لهم عن وجوه الأسرار .

(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١٠٧) .

وهم ثلاثمائة نفر . =

....

= وأعمال النقيب خدمة النجيب والإخوان ، وقضاء لوازمهم وقت المذاكرة والأذكار والرواتب ، وإعداد مايلزم لذلك ، وينوب عن النجيب عند غيابه .

ويلزم أن يكون النقيب حسن الأخلاق ، هيناً ليناً ، جميل المجالسة ، بشوش الوجه ، حسن الإجابة ، حتى يألفه الإخوان ، ويكون متحملاً جفوتهم وشديد عباراتهم ، يحسن إلى مسيئهم ، ويلين عند قسوتهم ، ويقدمهم على نفسه ـ خصوصاً عندالإجتماع لطعام أو فاكهة ـ فإن النقيب هو الباب للمستجدين ، وبقدر جمال أخلاقه يكون تهذيب نفوسهم وتزكيتها ، إلا أنه لايغفل عن تنبيههم بلطف ورقة على ترك ما يشين وعمل ما يزين .

(أبو العزائم ، محمد ماضي : مذكرة المرشدين والمسترشدين ، ص : ٣٨ ـ ٣٩) .

والنقيب يلزم أن يكون محباً لإخوانه جميعاً كمحبته لنفسه ، وأن يكون زاهداً فإذا قدم له أحد إخوانه هدية أو تحفة مما يأكله الواحد أو ينتفع به الواحد انتفع به ، وإلاَّ قدمه لمصلحة الإخوان بأن يضعه فى الزاوية أو فى بيت النجيب أو البدل ـ إذا كان محلاً جامعاً للإخوان ـ أو قسَّمه بين إخوانه إن كان ممن يستعمل في الحال ، ملاحظاً فى ذلك مراقبة الله فى الغيب والشهود ، وحباً لإدخال السرور على إخوانه ، ولتطمئن قلوب الإخوان العاكفين على طاعة الله ، الذين تركوا الأسباب توكلاً على مسبب الأسباب . وللنقيب رواتب من الصلوات الليلية والنهارية والأذكار اللسانية والقلبية وقراءة القرآن أكثر من رواتب الإخوان .

(المصدر السابق ، ص : ٣٩) .

لايخرج [(١)] هذا الوقت أو لم يقدر أحدٌ أن يكلمه . وليت شعرى أهو [(٢)] فقير أم أمير . فإن قال : فقير . قلنا له : قد أجمع الله تعالى أنه لايجوز لفقير أن يحتجب بل كلما طلب وجد . وإن قال : أنا أمير . قلنا له : مارأينا أميراً قط ادعى الولاية وطاف البلاد يأكل خبز أهلها وينكر عليهم .

وقد أوضحنا هؤلاء الطائفة فى كتاب « الميزان » [(٣)] وهو كتاب لايستغنى فقير عنه .

وكان رحمه الله يقول : من رأى أحواله مستقيمة رأى أحوال إخوانه معوجة . ومن رأى أحواله معوجة رأى أحوال غيره مستقيمة [(*)].

---

(١) فى الأصل : يخرج .

(٢) فى الأصل : هو .

(٣) هذا المؤلف ضمن مؤلفات الإمام الشعرانى . وهو مخطوط ضمن مخطوطات الإمام الشعرانى فى دار الكتب والوثائق المصرية أكثر من عشرة مخطوطات تحت عنوان : « الميزان الشعرية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين .

(*) **الاستقامة** : تدل على الاعتدال . والاستقامة من القيام بالشىء دون اعوجاج أو التواء . وترتبط الاستقامة بالقسط والعدل . لذلك كانت الاستقامة توفيقاً إلى الخير والسعادة والتى بها يستقيم حال النفس وتتصف بالأمن والسكينة .

=

= كما أن الاستقامة طريق الطاعة لله عزوجل فى اتباع الأوامر واجتناب النواهى الشرعية .

وهكذا تصبح الاستقامة على الطاعات واجتناب المخالفات شرطاً أساسياً فى الطريق إلى الله عزوجل .

(ابن عياد الشافعى : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية ، ص : ٢١٧) .

فالاستقامة أن تعمل على ما يرضى الله سبحانه وتعالى بملازمة فعل الواجبات وترك المنهيات .

(النووى : شرح الأربعين النووية . القاهرة : مطبعة الشمرلى ، سنة ١٣٩٧هـ.١٩٧٧م ، ص : ٥٤) .

وقال العلماء : الاستقامة لزوم طاعة الله سبحانه وتعالى .

كما قالوا : وهى من جوامع الكلم ، وهى نظام الأمور .

إن النفس الإنسانية تحتاج إلى الاستقامة أكثر مما تحتاج إلى الغذاء ، وكلاهما ضرورى للحياة . وإذا كان الغذاء هو ضمان لحياة الجسم فإن الاستقامة ضمان لحياة النفس .

من هنا قيل : إن استقامة النفس معناها : اعتدالها وتوازنها .

وأساس استقامتها هو التوازن بين قوى النفس الأربعة وهى : العلم ، والعدل ، والشهوة ، والغضب .

ومن هنا كانت الاستقامة حال النفس السوية المعتدلة المتوازنة . =

••

= ويمكن تشبيه النفس البشرية فى تجربتها الحياتية بالجرة ، فإذا أخلصت واستقامت وامتلأت جرتها بالهواء النقى فإنها تحيا حياة آمنة مطمئنة ، أما إذا نافقت واعوجت ثقلت وامتلأت جرتها بالهواء الفاسد فتحيا حياة الخوف والفزع ، وما دام الأمر كذلك فلابد أن نوضح أن التخبط والإعوجاج فى التفكير والسلوك أمر خارج عن الاستقامة وذلك لبعده عن التعقل والأناة والصبر والصدق ، أما الاعتدال والاستقامة والقوامة فإنها من سمات الشخص المتوازن مع نفسه وعقله جميعاً . فجهازه النفسى منسجم مع بعضه البعض ، وتصرفاته متناسقة ، وسلوكه منضبطاً ، ولذلك فإنه يقرن بالحكمة ، والحكمة دليل الفهم الرشيد والاقتصاد فى الأمور كلها .

لذلك كان طريق الاستقامة هو الطريق الأمثل للإنسان ، فيه يعتدل أمره ، وعن طريقه تتوازن حياته ، وبالسير فيه يعرف حقوقه وواجباته ، وتتأكد له الغاية فى حياته على وجه الأرض .

(حسن الشرقاوى : الطب النفسى النبوى . الإسكندرية : دار المطبوعات الجديدة : سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص : ١٢١) .

وقد قيل فى معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ « سورة الأحقاف : الآية: ١٣ » .

أى استقاموا على المشاهدة . لأن من عرف الله تعالى لايهاب غيره ، ومن أحب شيئاً لايطالع سواه .

(الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج١ ، ص : ١٢٩) .

ولقد سئل الشيخ عبد القادر الجيلانى عن الاستقامة ؟ فقال : هو أن يصل العبد إلى درجة من النضج والكمال لايهدأ له بال ولايقرله قرار إلا بعد =

....

= أن يذكر الله ، فإذا ذكر الله ، حصلت له طمأنينة ، ودخلت فى قلبه بشاشة ، وانبسط كل الانبساط ، فإذا وصل إلى تلك الدرجة أصبح وجوده كله دعوة وتبليغاً .

(أبو الحسن على الحسينى الندوى : ربانية لارهبانية ، ص : ٤٩).

وبذلك تصبح الاستقامة الطريق السوى للمؤمن الذى يتخذ القرآن الكريم إمامه ، سيدنا ومحمداً صلى الله عليه وآله وسلم قائده ، ويعلم أن الله من ورائه يقدر الحسنات ويحصى السيئات ؛ ويقيم الميزان العادل .

(محمد رجب البيومى : علماء فى وجه الطغيان . القاهرة : الدار القومية ، بدون تاريخ ، ص : ٧).

إن النفس الإنسانية تحتاج دوماً إلى الرد السريع الحاسم على خواطرها ووساوسها من خلال التمسك بأوامر الله والقنوت إليه تعالى ، وذلك بمخالفة الأهواء ، والبعد عن الغواية والشهوات ، والانتصار للحق الذى هو فى الاستقامة والقوامة والعدل .

لذلك فإن العاقل من قام بتسليط الأضداد على نفسه عندما تجنح للاغترار أو العجب ، أو الرضا عن ذاتها ، أو الرغبة فى التسلط ، أو التجبر والتكبر .

ولما كانت الاستقامة مجاهدة للنفس ، فإن الاستقامة النفسية هى أن يجاهد المرء نفسه على مخالفة هواه ليبتعد عن الضلالة وحتى لايقع فى الإثم .

وفى هذا المعنى يقول محمد بن المنكدر : كابدت نفسى أربعين سنة حتى استقامت على آثار السلف .

(الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج١ ، ص : ٣٢) . =

= فبالمجاهدة تنال الكمالات النفسية ، ويتحقق هذا إذا ماتأمل المرء نفسه أنه لم يخلق عبثاً ، وأن أعماله محصاة عليه ، وأن أنفاسه معدودة عليه ، ولاملجأ ولامنجى من الله إلا إليه .

ويقول ابن عباس رضى الله تعالى عنه : « جهاد النفس هو استفراغ الطاقة فى الطاعة وألايخاف فى الله لومة لائم » .

(ابن قيم الجوزية : زاد المعاد فى هدى خير العباد . القاهرة : مكتبة المنار الإسلامية ، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، ج٣ ، ص : ٨) .

ومن أقوال المحاسبى فى هذا الصدد : « من اجتهد فى باطنه ورثه الله حسن معاملة ظاهره ، ومن حسن معاملته فى ظاهره مع جهد باطنه ورثه الله الهداية إليه لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ « سورة العنكبوت : الآية : ٦٩ » .

وعلى ضوء ما تقدم فالاستقامة تقوم على التطلع للوصول إلى حد الكمال هذا الحد الذى لن يستطيع الإنسان الوصول إليه إلا بالتخلص تماماً من آفات النفس وعلائق البدن . واجتياز الطريق حتى الوصول إلى آخر مقام فيتحقق صاحبها بالمعرفة اليقينية علماً وذوقاً وشهوداً ، ولكى يتحقق له ذلك فإنه ينبغى عليه أن يعمل على القيام بحق الاستقامة على قدر طاقته واستطاعته .

لذلك ننبه أن الاستقامة لاتتم إلا باستقامة القلب . كما أن القلب لا يستقيم إلا بشيئين هما :

١ ـ أن تكون محبة الله تعالى تتقدم جميع ماعنده من المحاب ، فإن تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه . =

= ٢ـ الذى يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهى . وهو ناشىء عن تعظيم الآمر الناهى ، فإن الله تعالى ذم من لايعظمه ولايعظم أمره ونهيه .

(ابن قيم الجوزية : الوابل الصيب من الكلم الطيب . القاهرة : مؤسسة قرطبة ، بدون تاريخ ، ص : ٣) .

قال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ « سورة نوح : الآية : ١٣ ».

قالوا في تفسيرها : مالكم لاتخافون من الله تعالى .

وما أحسن ماقاله شيخ الإسلام ابن تيمية فى تعظيم الأمر والنهى : هو أن لايعارضا بترخيص جاف ، ولايعارضا بتشديد غال ، ولايحملا علة توهن الانقياد .

ومعنى كلامه : أن أول مراتب تعظيم الحق عزوجل تعظيم أمره ونهيه ، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه عزوجل برسالته التى أرسل بهارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى كافة الناس . ومقتضاها : الانقياد لأمره ونهيه . وإنما ذلك يكون بتعظيم أمر الله عزوجل واتباعه . وتعظيم نهيه واجتنابه ، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهى . ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر .

ولما كانت الاستقامة لاتتم إلا باستقامة القلب فينبغى أن يفهم أن الحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب ، فقال عز من قائل : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ « سورة الأعراف : الآية : ١٧٩ » .

من هنا قيل : فلما فقهوا علموا ، ولما علموا عملوا ، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا اهتدوا ، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة ، وأكثر =

= انقياداً لمعالم الدين ، وأوفر حظاً من نور اليقين .

كما قيل : متى استقام باطن الإنسان استقامت له الأمور .

هكذا تصبح الاستقامة طريقاً للنجاة . ولهذا جاء الدين هادياً فى بعض الأمور التى لايمكن أن تستقيم حياة الإنسان بدونها .

فمن تمسك بالاستقامة اهتدى إلى الطريق المستقيم . فالاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، ومن لم يكن مستقيماً فى حالته ضاع سعيه وخاب جهده . فإذا كانت الاستقامة على النهج الشرعى فى اتباع الأوامر واجتناب النواهى فإن المرء يصبح فى مأمن من الوقوع فى البدع وبرائن الضلال إذا ما تسلح بالعقيدة الإسلامية منهجاً وسلوكاً .

وبذلك ترتبط الاستقامة بالمحافظة على العبادات إذا ما أداها الإنسان الورع حق أدائها وصل إلى حد التقوى لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ « سورة الأنعام : الآية: ١٥٣ » .

هكذا يتضح أن التقوى لاتتم إلا بالورع والاستقامة . فمن كان تقياً كان مستقيماً ، ومن كان مستقيماً كان تقياً .

كما أن الاستقامة لها أهميتها وهى أنها تعدّ شرطاً أساسياً لبلوغ التقوى التى هى لباس كريم لاينال شرف التزيى به إلاأهل الإيمان الحق ولايخلعه الله تعالى إلا على أولئك الصالحين من عباده المكرمين الذين يخشون ربهم بالغيب ، ويأتون ما أمر الله تعالى به ، ويجتنبون مانهى الله سبحانه وتعالى عنه . =

= (عبد الكريم الخطيب : الإنسان فى القرآن الكريم من البداية .... إلى النهاية ، ص : ١٦٤) .

لذلك نقول : من عبد الله بالخوف والرجاء استقام على المحجة البيضاء وهنا يكون صاحب هذه الاستقامة أن قامت استقامته على الطاعة من غير روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب وأن لايحدث نفسه بعود إلى ذنب متى قدر عليه ، وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه كما ارتكبه لأجل هواه مجمعاً عليه بقلبه وشهوته ، فمتى أتى الله بقلب سليم من الهوى وعمل خالص مستقيم على السنة فقد ختم بحسن الخاتمة . وهذه هى التوبة النصوح . وهذا العبد هو العبد التائب المتطهر الحبيب .

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ « سورة هود : الآية ١١٢ » .

فهذا أمر للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالاستقامة فى التوبة ، وأن هذا الأمر له ولأتباعه ولأمته .

وتستهدف الاستقامة الصواب والصدق والحق ، وتبتعد عن الإسراف والغلو ونبذ التقصير والشح .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ « سورة الإسراء : الآية: ٣٥ » .

كما ترتبط الاستقامة بالعدل والاعتدال ، والمقصود به الاستقامة والموازنة أن يكون الشىء معتدلاً ، ومقصوداً إلى هدفه متضمناً الأمن والاستقامة . فالعدل إذن استقامة على الإطلاق .

= وإذا كانت الوسطية فى الإسلام هى الطريق الأقوم حيث لاتفريط ولاإفراط فإن أهل الوسط هم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة فلايرى أحدهم أن يتكلم تذهب عليه ضائعة بلامنفعة فضلاً أن تضره فى الآخرة .

وحين يهتف المسلم من قلبه داعياً مع الداعين : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ « سورة الفاتحة : الآية : ٦ » .

فذلك يعنى الرجاء من المولى سبحانه وتعالى أن يهديه والمؤمنين إلى الصراط القويم الذى لاانحراف فيه ذات اليمين ، ولاذات الشمال ، وهو السبيل الوسط فى التدين الذى لاتشدد فيه ولا انطلاق ، ولا تفريط ولاإفراط ، بل هو الاعتدال الذى يكون المرء فيه واقفاً عندما شرع الله دون أن يبتدع أو يتبع هواه .

من هنا كانت الاستقامة هى سلوك السبيل المعتدل ، المتوسط بين الإفراط والتفريط . أى النهى عن الإفراط ، وكذلك النهى عن التفريط .

هذا هو الأمر بالاستقامة الذى ينبغى أن يتبعه المرء فى سلوكه لفهم الدين الذى هو الصراط المستقيم ، ومنهجه القويم الذى ارتضاه لتنظيم شئون الحياة على المستويين الفردي والاجتماعى .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينهج منهج الاستقامة ، ويدعو إليه . وما أروع حكمته صلى الله عليه وآله وسلم حين كان يخفف على الناس ، ويبين لهم سماحة الإسلام ويسره، ثم حين كان يقف بالناس عندما شرع الله سبحانه وتعالى فلا يوافق من يريد أن ينقص شيئاً من شعائر الإسلام وفرائضه. وهو بهذا يبين لنا أن المسلم فى علاقته بالله ، =

= وفي علاقته بالناس ليس له أن يشرع فوق ما شرع الله ، مهما يكن الدافع إلى ذلك ، ثم مهما تكن الغاية من وراء ذلك .

هذا هو النظام الإبداعي الذي نسميه الصراط المستقيم الذي يرفض اليمين كما يرفض اليسار معاً ، ويقيم سلوكاً تركيبياً فذاً هو صراط الحق .

والعقل السليم يهدف إلى الاستقامة ، والاستقامة هنا إنما تعني الوسط العدل الذي هو العمل الصالح ، والقصد والقسط والاقتصاد والاعتدال .

ولقد كان طريق الاستقامة هو الطريق الذي سلكه السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم .

فالاستقامة قول وعمل ، وعلى ذلك لايستقيم قول إلا بعمل ، ولايستقيم قول وعمل إلا بنية ، ولايستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة ومتابعة صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله وسلم .

لذلك ننبه أن سلوك الطريق إلى الله تعالى لايمكن أن يكون من غير الطريق الذي انتهجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

والطريق المستقيم واحد وإن تعددت أنواع السير عليه . والمقصود أن الطريق إلى الله واحد ، فإنه الحق المبين ، والحق واحد مرجعه إلى واحد . وأما الباطل والضلال فلاينحصر ، بل كل ماسوى الحق باطل ، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل . فالباطل متعدد وطرقه متعددة .

وقد قيل : الاستقامة لها ثلاثة مدارج : أولها : التقويم ، ثم الاستقامة ، ثم الاستقامة فالتقويم ، فالتقويم من حيث تأديب النفوس ، والإقامة من حيث تهذيب القلوب ، والاستقامة من حيث تقريب الأسرار .

وبذلك يكون الطريق هو المنهاج الذي يسلك فيه المؤمن إلى الله تعالى . =

فمن تتلمذ لكل الخلق وجعل نفسه تابعاً لامتبوعاً . ومن رأى أحواله مستقيمة تمشيخ على الخلق وجعل نفسه متبوعاً لاتابعاً فاعلم ذلك واجعل عوجك مشهوداً لك على الدوام تعش سالماً

= وأن يستسلم العبد لله رب العالمين ولايستسلم لغيره .

(ابن تيمية : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ص : ٣٥) .

واعلم أن مدار الأمر كله فى الوصول بالقرب إلى الله تعالى هو الاستقامة والعمل على منهاج الشريعة مع الاقتداء والمتابعة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه والسلف الصالح من أمته .

(السيد دحلان : تقريب الأصول ، ص : ١٣٦) .

من هنا جاءت عناية الإسلام بالصراط المستقيم وبالدعوة إليه ولقد منّ الحق سبحانه وتعالى على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بأن هداهم إلى الصراط المستقيم . ولذلك كان السير على الصراط هوالغاية القصوى من الحياة الدنيا . والصراط المستقيم هو الذى رسمه الله تعالى فى كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم . فكان منهجاً ووسيلة ، وأوضح الحق سبحانه وتعالى مبادئه وقواعده وغاياته وأهدافه .

(عبد الحليم محمود : دلائل النبوة ومعجزات الرسول .القاهرة : دار الإنسان ، سنة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م ، ص : ١٤٢) .

ويفتقر الإنسان دائماً إلى الصراط المستقيم ، ولهذا أمر الإنسان بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم وأمرنا الله تعالى بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ « سورة الفاتحة :الآية : ٥ » . لأن صلاح العبد فى عبادة الله واستعانته . =

ويحصل لك المدد والخير . وهذا [1] طريقنا على الدوام إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أعلى درجات الاستقامة شهود العبد العوج فى نفسه . وأعلى درجات الاعوجاج شهود الاستقامة فى نفسه . فتأمل ذلك فإنه نفيس والله يتولى هداك .

وقال رضى الله تعالى عنه [2]**: المؤمن هو الذى صار الغيب** [*]

= (عبد الفتاح فؤاد : ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفى ، ص : ٢٥٨) .

نخلص من ذلك إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل الإسلام صراطه المستقيم لتكميل البشر فى أمورهم الروحية والجسدية ، ليكون وسيلة للسعادة

(١) فى الأصل : هذا .

(٢) لاتوجد فى الأصل . أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(*) **الغيب** : الغيب كل ما ستره الحق عنك منك لامنه .

(ابن عربى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٢٥) .

ولقد أسماه الكاشانى فى اصطلاحاته : عالم الأمر ، أو عالم الملكوت ، أو عالم الغيب .

وبعبارة أخرى : هو عالم الأرواح والروحانيات لأنها وجدت بأمر الحق لابواسطة مادة ومدة .

(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١١٨) .

كما أورد الكاشاني في اصطلاحاته : الغيب المكنون ، والغيب المصون : هو سر الذات ولكنهها الذى لايعرفه إلاهو . ولهذا كان مصوناً عن =

عنده كالشهادة فى عدم الشك وسرى الأمان منه فى العالم كله فأمنوه على أنفسهم وأموالهم على القطع من غير تخلل تهمة فلا تخالط نفسك وتدخلها فى المؤمنين إلا إذا صرت كما ذكرنا . فاعلم ذلك واحذر من تزلزل اعتقادك فى الله تعالى واتهامه فى وصول رزقك فى شدة الغلاء ونحو ذلك . والله يتولى هداك .

وقال : من علامة رؤيتك نفسك على إخوانك عدم زيارتك لهم ومحبتك أن يزوروك ويمشون إليك . وهذا شأن أصحاب الدعاوى من فقراء هذا الزمان فتراهم لايزورون أحداً من إخوانهم خوفاً أن تقول تلامذتهم لولا شيخنا دون هذه المرتبة فى المشيخة مازاروه فأحوالهم كلها لهوى نفس وتراهم لايطلعون بلداً إلا إن كان أهلها يطعمونهم ويبرونهم ويعتقدونهم . فترك كل من عمل شيخاً زيارة إخوانه وأقرانه وتقاطعوا وتدابروا . فأين الفقر والمشيخة ؟ فاعلم ذلك .

وقال : احذر من دعوتك التوبة (*) لأنها عزيزة الوجود .

= الأغيار مكنوناً عن العقول والأبصار .

(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية : ١٨٢) .

وأورد أيضا : غيب الهوية وغيب المطلق : هو ذات الحق باعتبار اللاتعتين .

(*) **التوبة** : تعنى التوبة فى اللغة : « الرجوع » بوجه عام ، فيقال : تاب وأناب بمعنى : « رجع ». =

= (ابن منظور : لسان العرب ، مادة تاب ، القاهرة : دار المعارف ، بدون تاريخ ، ص : ٤١) .

كما تنص اللغة على أن معنى تاب العبد إلى الله من ذنبه توبة وتوباً ومتاباً ندم على معصيته ورجع عنها واستغفر ربه . هذا عن معنى توبة العبد إلى الله . وتاب الله على عبده . أى قبل توبته ، والله سبحانه وتعالى تواب على عباده .

ويذكر الأصفهانى أن التوبة هى ترك الذنوب على أكمل الوجوه ، وهذا أبلغ وجوه الاعتذار ، فإن الاعتذار إنما يكون على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن يقول المعتذر لم أفعل . **والوجه الثانى** :أن يقول : فعلت كذا لأجل كذا . **والوجه الثالث** : أو فعلت ثم أسأت . وقد أقلعت . وهذا الأخير هو التوبة .

(عبد البارى محمد داود : التوبة فى الإسلام . دراسة منهجية أخلاقية ، دمنهور : الدار المصرية للكتب ، سنة ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م ، ص : ١١)

هكذا يتبين لنامن خلال الوجوه الثلاثة السابقة التى ذكرها الأصفهانى مراحل مرور العبد فى الذنب حتى يصل إلى بداية التوبة التى تعنى عنده ترك الذنب .

وكلمة « التائب » تقال للعبد الذى توجه إلى الله بالتوبة . والتائب أيضاً هو الله سبحانه وتعالى الذى تاب على عبده .

هذا عن كلمة : « التائب » فيما يتصل بالعبد الذى توجه إلى الحق سبحانه وتعالى بالتوبة ، فهو تائب إلى الله تاركا الذنب ، راجعاً إليه ، وكذلك ينصرف هذا الاسم : « التائب » على الله سبحانه وتعالى عندما يتوب =

= على عبده فيقبل منه توبته . فيحق لنا القول : إن الحق سبحانه وتعالى تاب على عبده .

وكلمة : « التواب » تقال للعبد الكثير التوبة ، وذلك بتركه كل وقت الذنوب على الترتيب ، حتى يصير تاركاً لجميعه . والله سبحانه وتعالى من صفاته أنه : « التواب » لكثرة قبوله توبة عباده حالاً بعد حال .

وقد وردت مادة : « التوبة » متصلة بالله سبحانه وتعالى نحو ستين مرة فى القرآن الكريم منها وصفه تعالى بالتواب فى إحدى عشر آية ، تبع فى عشرة منها وصفه بالرحمة بعد وصفه بالتوبة مثل قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ « سورة الحجرات : الآية: ١٢ » .

وجاء وصفه بالحكمة بعد وصفه بالتوبة فى آية واحدة هى قوله سبحانه :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

« سورة النور : الآية : ١٠ » .

أما عن التعريف الاصطلاحي للتوبة فهو الرجوع من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف المحمودة . أى الرجوع من المخالفة إلى الموافقة ، ومن الطبع إلى الشرع ، ومن الظاهر إلى الباطن ، ومن الخلق إلى الحق .

(ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٢٥٩) .

كما أن التوبة هى اللبنة الأولى إلى الله فى طريق إسلام الوجه إليه ، وهى أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله عزوجل . وأول ما يبدأ به المريد السالك إلى الله الذى يريد إسلام الوجه إليه إنما هو التوبة ، وتبدأ التوبة بالاستغفار ، وحقيقته أن لايكون لك مع غير الله قرار . وهى بهذا الوضع أمان للمستغفرين من عذاب الله تعالى .

=

....

= (عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ، ص : ١٢١) .

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ « سورة النور : الآية: ٣٣ » .

ولقدأمر الله تعالى فى القرآن الكريم بالتوبة ، وحث عليها ، وحبب فيها ، وأوجبها حينما يكون هناك ذنب .

(عبد الحليم محمود : بشر بن الحارث الحافى ، القاهرة : دار الشعب ، بدون تاريخ ، ص : ٨٢).

من هنا كانت التوبة باباً واسعاً من أبواب الرحمة فرضه الله لعباده ، بل هى واجبة على كل عبد فى كل حال ، لأنه يظهر دائماً ما فرط فيه من ترك مأمور ، أو اعتدى فيه من فعل محظور فعليه أن يتوب دائماً .

(ابن تيمية : أحكام عصاة المؤمنين ، ص : ٩) .

وعلى ذلك فهى شعور بالخطيئة ، وندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وعزم أكيد على الإقلاع عنها وعدم التفكير فيها .

(عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية فى الإسلام ، ص : ٦٨) .

وبذلك تكون التوبة فرضاً على جميع المذنبين والعاصين ، صغر الذنب أو كبر ، وليس لأحد عذر فى ترك التوبة بعد ارتكاب المعصية ، لأن المعاصى كلها قد توعد الله عليها أهلها ، ولايسقط عنهم الوعيد إلا بالتوبة . وهذا ما يبين أن التوبة فرض .

(أبو عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية ، ص : ٤٧) .

ويقال : من رجع عن المخالفات خوفاً من الله فهو تائب ، ومن رجع حياءً=

= من الله فهو منيب ، ومن رجع تعظيماً لجلال الله فهو أواب .

(عبد الكريم الخطيب : الله والإنسان ، قضية الألوهية بين الفلسفة والدين ، القاهرة : دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م ، ص : ٤٤٣).

وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، وبهذا الاعتبار قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « التوبة ندم » .

(رواه ابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، وصحح إسناده من حديث ابن مسعود . وكذلك رواه ابن حبان ، والحاكم من حديث أنس ، وقالا صحيح على شرط الشيخين) .

التوبة لها مبدأ ونهاية . **فمبدؤها** : الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم ، الذى نصبه الله سبحانه وتعالى لعباده ، موصلاً إلى رضوانه .

وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ « سورة الأنعام : الآية : ١٥٣ » .

ونهايتها : الرجوع إلى الله فى المعاد . وسلوك صراطه الذى نصبه موصلاً إلى جنته . فمن رجع إلى الله فى هذه الدار بالتوبة ، رجع إليه فى المعاد بالثواب .

(ابن قيم الجوزية : مدراج السالكين ، ج١ ، ص : ٢٣٦) .

فالتوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان . وجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها .

ومعني التوبة يتسع ويتسع حتى يكون فيه معنى الرجوع المستمر عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً ، إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً . ويدخل فى مسماها =

= الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . وتتناول جميع المقامات . ولذلك كانت غاية كل مؤمن وبداية الأمر ونهايته .

وعلى ذلك فحقيقة التوبة : الندم على ما مضى من الذنوب ، والإقلاع عن المعصية ، والصفاء بالقلب .

(عبد البارى محمد داود : دراسة إسلامية عند المتكلمين والفلاسفة والصوفية ، ص : ١٥١) .

ولقد قيل التوبة النصوح هى التوبة الصادقة الحاسمة التى تتضمن الرجوع عن المعاصى لأنها مجلبة لغضب الله وعقابه والحرمان من ثوابه ، ويصحبها ندم على ما فرط من ذنب واستحضار لخشية الله ، وعلم بمغبة المعصية ، وألم يوجع فى القلب ، وحزن يطيل البكاء ، وكراهية للذنب أو للذنوب ، وعزيمة صادقة على ألا يعاود التائب ذنبه ، وطاعة لله خالصة ، فهى إذن تتميز بأنها موصولة بالماضى بالندم على ما سلف ، ومتصلة بالحاضر بالإقلاع عن الذنب ، ومرتبطة بالمستقبل بالعزم على اجتناب المعاصى .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾

« سورة التحريم : الآية : ٨ » .

وهنا ينبغى أن نوضح أن التوبة النصوح إنما تعنى التوبة الخالصة . ووجوبها على الفور أمر لاشك فيه .

قال عزوجل : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ « سورة النساء : الآية: ١٧ » .

هكذا يتضح لنا أن التوبة النصوح هى تلك التوبة الصادقة الخالصة الخالية من الآثام والمعاصى . =

= (عبد الحليم محمود : القرآن والنبى ، القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص : ٢٢٨) .

كما أن التوبة النصوح حد فاصل ، وفيصل حاسم بين عهدين ، عهد سيطرة الشيطان ، سيطرة كلية أو جزئية ، سيطرة دائمة أو مؤقته ، وعهد الانطواء تحت لواء عباد الرحمن الذين يقول الله فى حقهم مخاطباً الشيطان : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾

« سورة الإسراء : الآية: ٦٥ ».

والواقع أن الطريق إلى الحق الذى أرسل الله به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إنما يبدأ بالتوبة النصوح .

(عبد الحليم محمود : فاذكرونى أذكركم ، ص : ٢٥) .

والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح ، لأن خوفه حمله على التوبة ، ولولا خوفه ماتاب ، ولو لا رجاؤه ماخاف .

من هنا يتضح أن للتوبة ارتباطاً شديداً بالخوف والرجاء اللذين هما يقعان فى صلب التوبة .

فالخوف والرجاء يتلازمان فى قلب المؤمن ، ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة .

وعندما سئل الحسن البصرى عن التوبة النصوح قال : التوبة النصوح ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، أى ترك المعاصى ، وإضمار ألا يعود إليها .

فكيف بما وراءها من المقامات ؟

وإذا لم تصح لك التوبة فكيف تصلح أن ترشد غيرك وأنت تتقلب ليلاً ونهاراً فى هوى نفسك وحظوظها ؟

فاعلم ذلك وسد باب المشيخة على نفسك فإن إثم أتباعك فى عنقك لأن من هو فى نفسه لايهتدى أن يسلك نفسه إلا ممن هو حظ لنفوسهم فلايخرج تلميذه إلا على صفته فإن كان يحب المشيخة ونظامها وإرخاء العذبة وإطراق الرأس بين يديه فتلميذه يطلع يحب ذلك . ويقولوا : من أراد أن ينظر لمقام شيخ لم يجتمع به فلينظر إلى تلميذه فإنه يدل عليه .

ولذلك ترى كل واحد يحب أن ينفرد بالصيت والاعتقاد من الخلق ، ولا ينظرَ (١) الناسُ إلى شيخ سواه . وإذا مات شيخ من هؤلاء تصير جماعته يتنازعون فى المشيخة بعده ويكرهون بعضهم بالطبع كأنهم على دين خلاف دينهم . بل رأينا أصحاب الملل من اليهود والنصارى يتحابون ويحبون لبعضهم الخير فلا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

فلذا الشيخ من هؤلاء إذا بلغه عن شخص من أقرانه أنه حصل له قبول تام واجتمعت القلوب على محبته وعظموه ينقبض ويصير على وجهه كآبة لاتخفى فهؤلاء كلهم محاطون

---

(١) في الأصل : وأن لينظروا .

فى حظوظ نفوسهم . وما رأينا أحداً منهم يدعو الله تعالى أن يخمد ذكره ويستره فى الدنيا والآخرة فلايحسدون إلا على ما يجىء لهم فى الدنيا ونبذوا الآخرة وراء ظهورهم فالله يلطف بنا وبهم .

وقال : احذر من قولك لتلامذتك إذا عملت شيخاً إذا عرض لكم الشيطان فاصرفوا فإنه يهرب فإنك لست من رجاله كما سأبينه لك وهو أنه لعنه الله ما اجتمع بولىّ قط وناظره إلا وغلبه وعلمه مالم يكن يعلم . فلايجتمع بولى قط إلا صاحب قدم . فهل أنت ولى ؟

فإن قلت : نعم . فيقال لك : هل ذلك بشهادة الله أم[1] بشهادة نفسك ؟

إن قلت بشهادة الله تعالى نقول لك الوحى(*) قد انقطع . فما أنت على يقين(**) من ذلك ولاظن . وإن قلت بشهادة

---

(١) فى الأصل : أو .

(*) **الوحى** : مرتبة الوحى تختص بالأنبياء .

(محمود الشرقاوى : الأنبياء فى القرآن الكريم ، ص : ١٢٣) .

(**) **اليقين** : اليقين فى اللغة : « يعنى العلم الذى ليس معه شك » . ويقال : يقن الأمر : ثبت ووضح فهو يقين ، وأيقن وتيقن واستيقن : علم وتحقق . من هنا كان اليقين : إزاحة الشك وتحقيق الأمر ، أو العلم الحاصل عن نظر واستدلال ، وحق اليقين : واضح اليقين وخالصه . =

نفسك فأنت مسخرة للشيطان يلعب بك أقلّ الردة . فما بقى إلا الأصل وهو أنك غير وليّ .

= (محمد إسماعيل إبراهيم : قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية . القاهرة : دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ، ص : ٤٢٨)

وهو عند العارفين : « روية العيان بقوة الإيمان لابالحجة والبرهان » .

(قاسم غنى : تاريخ التصوف فى الإسلام ، ص : ٥٨) .

وقيل : اليقين : مشاهدة الإيمان بالغيب . كما قيل : هو المشاهدة .

(أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ٤٣ ، ٩٣)

وعن جبير بن نفير عن أبى مسلم الخولانى أنه سمعه يقول إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما أوحى الله إلىّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ، ولكن أوحى إلىّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

(رواه جبير عن أبى مسلم مرسلاً) .

وقد قيل : اليقين : « نور استودع فى القلوب ، مدده النور الوارد من خزائن الغيوب » .

أو بعبارة أخرى : النور المستودع فى القلوب هو نور اليقين .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ٢٧٨) .

واليقين هو روح الأعمال وعمودها ، وذروة سنامها . ولقد خصه ابن القيم بالذكر تنبيهاً على مادونه .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج٢ ، ص : ٤٦) .

كما أن اليقين قرين التوكل . ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين . =

....

= وقال الجنيد : اليقين : هو استقرار العلم الذى لاينقلب ولايتحول ولايتغير ويمكننا أن نقول : إن الاعتقاد والعلم إذا استويا على القلب ولم يكن لهما معارض أثمرا فى القلب المعرفة فسميت هذه المعرفة يقيناً ، لأن حقيقة اليقين صفاء العلم المكتسب حتى يصير كالعلم الضرورى ويصير القلب مشاهداً لجميع ما أخبر عنه الشرع من أمور الدنيا والآخرة .

(الغزالي : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ص : ٤٦) .

وعندما يتمكن السالك في المشاهدة ويستقر فيها وتصير ملكة له ويتحقق في الفناء ويبقي في الله ، يبلغ مقام اليقين .

فاليقين بناء علي ما تقدم هو أصل جميع الأحوال ومنتهاها . أجل يزول كل ريب وشك عن قلب العارف في حال اليقين وتحل البشري محله . ويري كبار الصوفية أن اليقين هو آخر الأحوال وباطنها جميعها .

(قاسم غني : تاريخ التصوف في الإسلام ، ص : ٥٨٠).

وأول مقام اليقين ـ كما قال بعض الصوفية ـ الثقة بما في يد الله تعالي والإياس مما في أيدي الناس . وهو ماقاله الجنيد رحمه الله حين سئل عن اليقين ، فقال : اليقين هو ارتفاع الشك .

وقال أبو يعقوب : إذا وجد العبد الرضا بما قسم الله فقد تكامل فيه اليقين . واليقين ـ كما يري مؤسس المدرسة الشاذلية ـ اسم تدرك به الحقائق بلا ريب ولاحجاب . وبهذا فإنه يعتبر المعرفة الاستدلالية بمثابة كشف العلوم معه ـ أي مع الله ـ بالحجاب ، فإن رفع هذا الحجاب أصبحت المعرفة يقينية ، وتلك هي معرفة المجذوب الذي يرفع عنه الحجاب ، ويعده أبو الحسن صاحب الحقائق ، أي الذي انكشفت له الحقيقة بلا ريب ولاحجاب .

=

....

= ويشبه هذا اليقين عند الشاذلية المعرفة التي يحصل عليها الولي الواصل بالترقي إلي معرفة الله بالمشاهدة .

ومما ينبغي أن يفهم أنه لايمكن تصور نهاية لليقين . وكلما ازداد العارف كمالاً ازداد يقيناً علي يقين آخر .

وهنا يقول التستري : « أول مقام للمعرفة هو أن يمنح العبد يقيناً في رأسه وتطمئن جوارحه جميعاً إلي هذا اليقين . أي أن الخواطر السيئة هي من ضعف اليقين » .

هذا النص يربط فيه التستري بين المعرفة واليقين حيث جعل أول مقام لمعرفة العبد هو أن يمنح يقيناً . فكأن اليقين هنا هو أول قدم للعبد عندما يدخل إلي باب المعرفة ، كما أضاف أن هذا اليقين لايتم إلا إذا صحبه الاطمئنان الذي تطمئن إليه الجوارح .

ويقول التستري أيضاً : إن الحق تبارك وتعالي لم يعط القرب للأفراد بالخيرات وأعطي القرب باليقين .

ولاشك أن هذا القول إن دل فإنما يدل علي علو همة التستري الصوفية ومعرفته الذوقية عندما أوضح أن المرء لايكن في قرب من الله إلا إذا أعطي اليقين . فاليقين حسبما يري أنه أعلي من الخيرات التي يتقرب بها الإنسان من الله .

وقد قيل : أقل اليقين هو أنه حينما يصل إلي القلب يملؤه نوراً ويطهره من كل شك حتي يتولد في القلب الشكر والخوف من الله ، واليقين هو عرفان عظمه الله . كما هو دليل علي عظمة الله وقدره . والعظمة هي معرفة عظمة الله » .

وبناء علي ما تقدم فاليقين عندما يصل إلي القلب فيمتليء بالنور ويتطهر=

= من كل شك وريب فإذا امتلأ القلب بالنور نصب له الحق سبحانه وتعالي طريق الهداية وطهره من كل الشكوك والظنون والأوهام فينبعث في القلب الخوف من الله تعالي عرفاناً بعظمته وذلك لكون اليقين دليلاً وبرهاناً علي معرفة عظمة الحق جلّ وعلا .

وإذا كان اليقين هو الطريق الموصل إلي معرفة عظمة الحق تعالي فإن العظمة هي معرفة عظمة الله .

وقد قيل : « اليقين نور يقذفه الله في قلب العبد كي يشاهد به كل أمور الآخرة وتحترق بقوة ذلك النور جميع الحجب التي بينه وبين الآخرة حتي يطالع بذلك النور أمور الآخرة كلها كأنه يشاهدها عياناً » .

هذا هو اليقين الحق الذي جاء في نصوص الكتاب وكان المصباح المنير الذي يضيء للمرء كيفية السير من دنياه إلي أخراه .

ويحدثنا عمروبن عثمان المكي : « أول المشاهدة هي القربة والمعرفة بعلم اليقين وحقائقه ، وبداية المشاهدة زوائد اليقين ، وبداية اليقين نهاية الحقيقة » .

هذا النص يوضح أول المشاهدة أنها المعرفة بعلم اليقين ، ويفرق بين أول المشاهدة وبداية المشاهدة ، أو إن شئت فقل : الدخول في المشاهدة . فعند البداية أو الدخول في المشاهدة يتسلح المرء بزوائد اليقين . أما عن بداية اليقين فهو نهاية الحقيقة .

من هنا يتضح أن اليقين مقام من المقامات العالية التي وردت في نصوص الكتاب والسنة ، وهو أيضاً من المقامات العالية عند أصحاب الذوق من الصوفية . فما أجمل التعبير : « إن بداية اليقين هو نهاية الحقيقة » .

ومن هنا أيضا كان اليقين هو العلم الثابت الذي لايتغير ولايتحول =

••

= ولا يتبدل لأن اليقين هو الاعتقاد الراسخ والدليل القاطع والبرهان الساطع .

ويقول أبو عثمان الحيري : « اليقين هو أن يكون القصد والتفكير في عمل الغد في الشخص دليلاً » .

وعلي ضوء ذلك يكون اليقين هو الإسلام والتسليم المطلق لله تعالي في كل أمر من أمور الدنيا والدين .

ومما روي عن أحد الصوفية أنه سأل محمد بن الفضل : بماذا تتحقق سلامة الصدور ؟ فأجاب : « بالوقوف في حق اليقين ، وهي حياة يمنحون بعدها علم اليقين حتي يطالعوا بعلم اليقين عين اليقين وتحصل السعادة هاهنا ، ومالم يكن علم اليقين في البداية لايتحقق علم اليقين ، فالذي لم ير الكعبة لايحصل له علم اليقين بوجود الكعبة أبداً ، فبين أن علم اليقين يمكن تحققه بعد عين اليقين ، والعلم الذي يكون أكثر من عين اليقين إنما يحصل بالهمة والاجتهاد .

ومن هنا يقع تارة الصواب وتارة الخطأ . وإذا ماظهر علم اليقين أمكنت مطالعة حقائق وأسرار عين اليقين بعلم اليقين .

وقد قيل : « اليقين هو حقيقة الأسرار بحكم الغيب » .

ولاشك أن هذا النص يبين أن اليقين هو التسليم لله تعالي .

كما قيل : بقوله سبحانه وتعالي : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ « ظهر لك منه التوحيد وبقوله : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ظهر لك منه المعرفة ، وبقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ : ظهر لك منه الإيمان . وبقوله : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ظهر لك منه الإسلام . وبقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ : ظهر لك منه اليقين . =

= (عبد الرحمن الصفوري : نزهة المجالس ومنتخب النفائس ، ج١ ، ص : ٦٢) .

من هنا قال سهل : التقوي واليقين مثل كفتي الميزان والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان .

والملاحظ هنا أن سهلاً متأثر بالقرآن الكريم في ربط التقوي باليقين .

قال تعالي : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ فعندما يتقى المرء الحق سبحانه وتعالى حق تقاته يصل إلى درجة اليقين .

ومن هنا جاءت تسوية سهل بين التقوى واليقين وجعل التوكل اللسان بينهما .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تعلموا اليقين » .

ومعناه : جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين ، وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوى يقينهم .

(رواه ابن أبى الدينا) .

من هنا يفرق الدقاق بين العبادة ، والعبودية ، والعبودة ، حيث يرى أنها مراحل يسلكها العبد فى الطريق إلى ربه مدللاً بقوله تعالى :

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ « سورة الحجر : الآية : ٩٩ » .

فالعبودية من العبادة ، أولها عبادة ، ثم عبودية ، ثم عبودة .

ويفسر القشيرى ذلك بقوله : فالعبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة لخواص الخواص .

ويوضح السراج الطوسى أن اليقين على ثلاثة وجوه : علم اليقين : وهو =

= ما أعطاه الدليل بتصور الأمور على ماهى عليه . وعين اليقين : ما أعطته المشاهدة والكشف . وحق اليقين : عبارة عن فناء العبد فى الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً لاعلماً فقط . فعلم كل عاقل الموت علم اليقين ، فإذا عاين الملائكة فهو فى عين اليقين ، وإذا ذاق الموت فهو فى حق اليقين .

وقيل : علم اليقين : ظاهر الشريعة ، وعين اليقين : الإخلاص فيها ، وحق اليقين : المشاهدة فيها .

وأهل اليقين على ثلاثة أحوال : فالأول : الأصاغر ، وهم المريدون والعموم وفى رواية أخرى : العوام ، وهو كما قال بعضهم :

الأول : مقام اليقين الثقة بما فى يد الله تعالى والإياس مما فى أيدى الناس .

والثانى : الأوساط : وهم الخصوص ويقينهم هو التمكن من اليقين . وفى تلك الحال يأنس السالك ويتحقق ويستمر فى اليقين .

والثالث : الأكابر : وهم خصوص الخصوص ويقينهم هو المرحلة التى قطع فيها السالك كل صلة تربطه بغير الله ولايكون له مراد سوى الله فلاينظر ولايشعر بشىء سواه .

كما يقول جلال الدين الرومى :

أريد عيناً ثاقبة للأسباب

تستأصل الأسباب من عروقها وجذورها

ويقول الهجويرى : « إن كل ما يحصل اليوم بعلم صحيح يتحقق غداً بالرؤية » . =

= **وعلم اليقين :** هو علم معاملات الدنيا بموجب الأحكام والأوامر .

وعين اليقين : هو حال النزع وإبان الخروج من الدنيا .

وحق اليقين : هو العلم بكشف الرؤية في الجنة .

فعلم اليقين : هو درجة العلماء بحكم استقامتهم على أحكام الأمور .

وعين اليقين : هو مقام العارفين بحكم استعدادهم للموت .

وحق اليقين : هو موضع فناء المحبين بحكم إعراضهم عن كافة الموجودات فيكون إذن علم اليقين بالمجاهدة ، وعين اليقين بالمؤانسة ، وحق اليقين بالمشاهدة . فالأول عام ، والثانى خاص ، والثالث خاص الخاص .

فعلم اليقين : هومعرفة الله بك ، إذ أنت عين الدليل عليه ، وهو إثبات ذات غير مكيفة ولامعلومة الماهية ، محكوم عليها بالألوهية ، سلطاناً وحجة لاريب فيه .

(رسالة ابن عربى إلى فخر الدين الرازى ، هامش ص : ٨٨) .

وانظر : (ابن عربى : التنزلات الليلية فى الأحكام الإلهية ، ص : ٧٣) .

وأصحاب هذا العلم : هم الذين اعتمدوا على الأعمال ففنوا فيها ، ومن ثم ألقى الله على بصيرتهم بنور الإيمان ، أما مشاهدتهم فتقتصر على عالم الملك ، أى عالم الكون أو المظاهر الفانية فتقتصر مشاهدتهم بذلك على المعانى الإلهية المتجلية فى الموجودات الوهمية .

وعين اليقين : مشاهدة هذه الموجودات بعينها لابعينك ، فناءً كلياً لايعقل معها نسبة ألوهية ، إثباتاً أو نفياً . وأصحاب عين اليقين : هم أهل =

= الكشف والبيان ، وهم الذين وصلوا إلى مشاهدة نور الحقيقة الإلهية ، أو مشاهدة عالم الملكوت ، أي العالم الروحاني ، أو العالم النوراني الفائض من بحر الجبروت . ولكن هذا السالك يشاهد كثيفاً نورانياً بدون ضمه إلى أصله في اللطافة ، بمعنى أنهم يكونون في فناء عن شهود المكونات .

وحق اليقين : نسبة الألوهية لهذه الذات ، بعد المشاهدة لاقبلها ، وهو الفرق بين العالم والحق ليس إلا ، وحقيقة اليقين : ظهور الانفعالات عند العبد عن غيبته فيه به ، غياباً كلياً ، وفناء محققاً .

وأصحاب حق اليقين : هم أهل الشهود والعيان الذين يشرق على بصيرتهم نور إلى الرسوخ والتمكين . وذلك بعد تحققهم بمشاهدة نور الجبروت . أي نور المعرفة الأصلي اللطيف المضموم إلى أصله وهو الحق تعالى حيث يشاهد الواصل سارياً في عالم التكوين ، ومن ثم فإنه يرى الأشياء كلها قائمة بالله فيتحقق بالمعرفة اليقينية به تعالى .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ص : ٤٢٨) .

وقد قيل : علم اليقين : هو قبول ما ظهر من الحق ، وقبول من غاب للحق ، والوقوف على كل ماقام بالحق .

وعين اليقين : هو المغني بالاستدلال عن الاستدلال . وعن الخبر بالعيان ، وخرق الشهود حجاب العلم .

وحق اليقين : هو إسفار صبح الكشف ثم الخلاص من كلفة اليقين ، ثم الفناء في حق اليقين .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج١ ، ص : ٢٩٩ ـ ٣٠٠) .

وللناس في هذه الأسماء مقالات معروفة منها أن يقال : علم اليقين =

= ماعلمه بالسماع والخبر والقياس والنظر . وعين اليقين : ماشاهده وعاينه بالبصر . وحق اليقين : ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار .

(ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ، الرسالة السابعة ، ج٢ ، ص : ١٤٦) .

ولقد كان نبى الله إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقينياً لايحتمل النقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين فأجابه الله على سؤاله وأعطاه غاية مأموله .

ويقال : من علامة اليقين تسليم القضاء بحسن الصبر والرضا وهو مقام العارفين . فعلم اليقين : هو ما كان بالنظر والاستدلال .

وعين اليقين : هو ما كان من طريق الكشف والنوال .

وحق اليقين : هو ماكان بتحقيق الانفصال عن لون الصلصال بورود الوصال .

وفى هذا الصدد يحدثنا النصراباذى : علم اليقين يدل على الأفعال ، فإذا فعلها وأخلص فيها وظهرت له بينات ذلك ، صار علم اليقين عين اليقين .

(الشعرانى : الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ، تحقيق عبد البارى محمد داود . القاهرة : مكتبة أم القرى ، سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢ م ، ص : ٣٢٨) .

فإذا ترقى من عين اليقين وتحقق العبد به أصبح يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان ، ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق كما أخبر الصديق حين قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : =

= ماذا أبقيت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله .

ولعلنا نستطيع أن نستخلص من ذلك أن الصديق قد أفنى الكل - أى قد انسلخ كلية من كل ماسوى الله ، وانقطع حقيقة إلى الله منتظراً إفناء نفسه فى رضاه .

ويعلق أحد الحكماء على إجابة أبى بكر قائلاً : « فالله جل جلاله ميرائه ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم نديم رؤيته » .

(محمد كمال جعفر : التصوف طريقاً وتجربة ومذهبا ، ص : ٢٢٥) .

وقد قيل : لليقين اسم ، ورسم ، وعلم ، وعين ، وحق . فالاسم والرسم للعوام ، وعلم اليقين للأولياء ، وعين اليقين لخواص الأولياء ، وحق اليقين : للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(السيد المنوفى : التصوف الإسلامى الخالص ، ص : ١٦٨) .

كما قيل : علم اليقين : تصوّر الأمر على ماهو عليه ، وعين اليقين : شهوده كما هو ، وحق اليقين : الفناء فى الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً لا علماً فقط .

وقد قيل : علم اليقين : لأهل الدليل والبرهان ، وعين اليقين : لأهل الكشف والبيان ، وحق اليقين لأهل الشهود والعيان .

مثال ذلك : كمن سمع بمكة مثلاِ ولم يرها ، فهذا عنده علم اليقين فإذا استشرف عليه ورآها ولم يدخلها فهو فى عين اليقين ، فإذا دخلها وتمكن فهو فى حق اليقين .

وكذلك طالب الحق فمازال من وراء الحجاب فانياً فى الأعمال ، فهو =

= فى علم اليقين ، فإذا استشرف على الفناء فى الذات ولم يتمكن من الفناء فهو فى عين اليقين ، فإذا رسخ وتمكن فهو فى حق اليقين .

أو تقول : شعاع البصيرة لأهل عالم الملك ، وعين البصيرة لأهل عالم الملكوت ، وحق البصيرة لأهل عالم الجبروت .

أو تقول : شعاع البصيرة لأهل الفناء فى الأعمال ، وعين البصيرة لأهل الفناء فى الذات ، وحق البصيرة لأهل الفناء فى الفناء . فشعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك . وعين البصيرة يشهدك عدمك . وحق البصيرة يشهدك وجود الحق وحده لاوجودك .

وقد قيل : علم اليقين لأرباب العقول ، وعين اليقين لأصحاب العلوم ، وحق اليقين لأصحاب المعارف .

(خالد محمد خالد : والموعد الله ، ص : ٨٥) .

وعلم اليقين : هو العلم بحقائق الإيمان ، وعين اليقين : درجته التقوى والخشية . أى مباشرة الإيمان بعين القلب . وأما حق اليقين : فهو درجة الشهود والعرفان بالبصيرة ، كلها تدور كما قدمنا فى قطب رحى الإيمان .

ويقسم الشاذلى طريق الوصول إلى المعرفة اليقينية إلى ثلاثة أقسام تبعاً لما تنهجه من سبل ، فهناك أولا طريق العقل ويجعله للعلماء ، ثم طريق الكرامه ويجعله للأولياء ، وأخيراً طريق السر وهو خاص بالأنبياء .

كما يقسم ابن عربى المعرفة إلى ضربين : **الضرب الأول :** معرفة العوام ، وهى المعرفة التى تحصل بالاستدلال ، وتسمى علم اليقين . أى المعرفة المستندة إلى العقل والمنطق ، وهى التى تقابل عند الشاذلى =

وان كنت غير ولى فلا يعرفك لأنك أقل وأخسّ عنده أن يجتمع بك . وإذا كان لايعرفك كيف يهرب من ذكر اسمك فالزم قدرك ولاتفتح على نفسك باب المشيخة على أحد فتكون سبباً لضلالهم .

= المعرفة الكسبية التى يستنتجها الباحث عن طريق العقل .

الضرب الثانى : معرفة الخواص ، ولها قسمان هما : حق اليقين ، وعين اليقين .

فحق اليقين : هو المعرفة التى تحصل لخواص الأولياء بواسطة الشهود ، أى شهود الحقيقة نفسها التى أعطاها إياها علم اليقين ، وتتم بعد تنقية القلب من جميع الأكدار النفسانية والتعلقات البدنية ، وفيها تظهر للروح معرفة الله تعالى بعين المشاهدة .

ويشبه هذ اليقين عند الشاذلية المعرفة التى يحصل عليها الواصل بالترقى إلى معرفة الله بالمشاهدة . أما عين اليقين : فهو التحقق بالحقيقة نفسها ، وذلك بالانفصال عن لون الصلصال بورود وفد الوصال . أى بعد الفناء تماماً عن صفات البشرية . وهذا هو عين اليقين الأوحد المفارق للجزئيات وفيها يرى الواصل « الوجود الأوحد » ، أو « وجود الحق فى الأشياء » .

ويقترب هذا النوع من المعرفة ، معرفة المجذوب فى الطريق الشاذلى حيث يفنى عن نفسه تماماً ، وعن الفناء ذاته ، ولايرى فى الوجود سوى وجه الحق ، فإذا ردّ إلى البقاء فإنه ينظر إلى الموجودات بنور الله الذى أشرق عليه . وبذلك يتحقق بالمعرفة عين اليقين .

من كل ما تقدم نستطيع القول : للصوفية سلمهم المعرفى الذى يبدأ =

وقد أوضحنا ذلك فى (كتاب) (١) : « لواقح الأنوار » (٢). فراجعه تعرف قدرمرتبة إبليس وما أعطاه الله من القوة ولولا ذلك ماحذرنا الله منه . واعلم أن أشد الناس نقباً فى ذلك المتسلقين على الولاية الذين يطلبون أن يصيروا أولياء بالجوع والخلوة فيشتغلوا بإبليس فيشخصوه بين أعينهم ويظنوا أنه لايفارقهم لرؤيتهم أنهم أهل الله وهم أقل عنده من أن يقصدهم لأنهم كفوه

= بالعقل وينتهي بالذوق بعد تحققهم بعلم اليقين واصلين بتجربتهم الروحية الذوقية إلى عين اليقين فيكشف لهم من الله بعض مغيباته ، فيشهدهم شيئاً من تجلياته ، ويتلقون من لدنه علماً ، فيزدادون تحققاً ويقيناً ، وترسخاً ، وعرفاناً .

وهنا نجد أن علوم الصوفية قد اشتركت مع علوم غيرهم فى المرتبة الأولى من مراتب العلم ؛ وهى مرتبة علم اليقين الذى يعطيه الدليل بتصور الأمور على ماهي عليه ، وامتازت عليهم بمرتبتين :

إحداهما : مرتبة عين اليقين : وهو ما تعطيه المشاهدة والكشف

والأخرى : مرتبة حق اليقين : وهو فناء العبد فى الحق . والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً لاعلماً فقط .

(١) زيادة أضفناها لحفظ المعنى والسياق .

(٢) أحد مؤلفات الإمام عبد الوهاب الشعرانى ويوجد بدار الكتب المصرية بالبيانات التالية :

=

المؤنه إذ مجاهداتهم كلها لحظ النفس[١] ولايتوبون[٢] إلى الله بشيء دخلته النفس وإذا خرج عن كونه قربة فلا يحتاج إلى وسوسة . فاعلم ذلك واستغفر الله فى جميع أحوالك .

وقال : كل فقير لايخرج عن تقليد الأئمة ويستغنى عن علمهم بما اعطاه الله من النور الفارق يفرق به بين الحق والباطل [*] . فلا يصلح أن يعمل شيخاً .

=

رقم الحفظ	المؤلف	العنوان
25061 ح عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار
1923 تاريخ طلعت عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار
1924 تاريخ طلعت عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار
1970 تاريخ طلعت عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار
2066 تاريخ طلعت عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار
2096 تاريخ طلعت عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار
2097 تاريخ طلعت عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار
2098 تاريخ طلعت عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	لواقح الأنوار فى طبقات السادة الأخيار

(١) في الأصل : نفس .

(٢) فى الأصل غير واضحة .

(*) **الحق والباطل :** الحق اسم عام ، يطلق على كل صورة فكرية أو قولية ، مطابقة لما عليه حال الشيء ، الذى تحكيه هذه الصورة وجوداً =

....

= وعدماً . ولو ذهبنا نستقصى لفظة « الحق » فى القرآن الكريم لوجدناها أكثر من مئتى مرة .

والباطل اسم عام ، وهو نقيض الحق ، يطلق على كل صورة فكرية أو قولية ، غير مطابقة لما عليه حال الشيء ، الذى تحكيه هذه الصورة وجوداً وعدماً والباطل : معناه الزائل . وقد وردت لفظة « الباطل » و « المبطلون » فى القران الكريم ، أكثر من ثلاثين مرة .

ولنضرب مثالاً على مانحن بصدده : فالصورة الفكرية أوالقولية ، التى تحكى أن الله تعالى موجود ، وهو خالق كل شيء ، حق . أما الصورة الفكرية أو القولية الأخرى التى تحكى أن الله تعالى غير موجود ، أو أن الله تعالى له شريك فى خلقه وأمره . فلا شك أن هذه صورة باطلة .

والدليل على ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ « سورة الحج : الآية : ٦٢ » .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ « سورة يونس : الآية : ٣٢ » .

فالله سبحانه وتعالى وجوده حق ، وهو الذى تحق له الألوهية ، ويستوجب العبادة ، وسواه مما أشرك معه باطل وضلال . والله تعالى الحق ، وذو الحق ، ودينه الحق ، وعبادته حق ، ووعده حق .

والله سبحانه وتعالى هو الهادى إلى الحق لقوله عزوجل : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن

يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ « سورة يونس : الآية : ٣٥ » .

وفي الدعاء المأثور : اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وحببنا فيه . وأرنا الباطل باطلاً ، وارزقنا اجتنابه ، وكرهنا فيه .

لذلك كان من الضروري الالتزام بمبدأ الحق ، لأنه هو الذى جاء به الإسلام . فالإسلام دين الحق .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ « سورة التوبة : الآية : ٣٣ » .

كما أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو الناس إلى الحق الذى جاءهم به .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ « سورة يونس : الآية ١٠٨ » .

وكذلك يوضح القرآن الكريم أن من صفات المؤمنين أنهم يتواصون بالحق لقوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

فالحق هو سلاح المؤمن الذى يتسلح به للدفاع عن عقيدته ضد كل باطل وهو المصباح المنير الذى ينير الطريق للذين سلكوا طريق الهدى والطاعة لله سبحانه وتعالى . وكل من تمسك بالحق هدى إلى الصراط المستقيم . أما من انحرف عن طريق الحق وابتعد عنه فإنه بلا شك وقع فى الضلالة والباطل .

واحذر أن تعمل شيخاً وأنت مقلدٌ لكلام الفقهاء (*) أو لرسالة شيخ من مشايخ الصوفيـة . فإن فى ذلك هلاكاً . فمن لم يكن كتابه قلبه لايصلح لهذا الباب .

= ومما ينبغى أن يفهم أن أكثر الناس خطايا أو ذنوباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً فى الباطل .

وقد قال أحد العلماء : إن أردت أن تكون مرتبطاً بالحق فتبرأ من نفسك واخرج عن حولك وقوتك .

ولقد جاء فى رسالة : « الفرقان بين الحق والباطل » : أن الله سبحانه وتعالى بيَّن ذلك بكتابه ، فمن كان أعظم اتباعاً لكتابه الذى أنزله ، ونبيه الذى أرسله كان أعظم فرقاناً ، ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول كان أبعد عن الفرقان واشتبه عليه الحق بالباطل كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان والنبى الصادق بالمتنبى الكاذب وآيات البيان بشبهات الكذابين .

(ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ، الرسالة الأولى ، ج١، ص :٢).

وكان بشر بن الحارث يقول : « أسد الأعمال ثلاثة ، الجود فى القلة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة عند من يخاف ويرجى » !

وقد قيل : إذا ظهر الحق لم يبق معه غيره .

(عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ، ص : ٦٤) .

(*) **الفقهاء :** هم العلماء الذين درسوا العلوم الشرعية . وهم أصحاب منهج شرعى . ولقد قيل : الناس كثير ، والعلماء فى الناس قليل ، والعلماء كثير ، والفقهاء فى الناس قليل ، والفقهاء كثير ، والحكماء فى=

= فى الفقـهاء قليل . ولقد قـال بعض السلف : إن الفقـيه كل الفقـيه الذى لايُيئس الناس من رحمـة الله ، ولايجـرئهم على معـاصى الله .
(ابن تيمية : أحكام عصاة المؤمنيـن ، جمع وتقديم مروان كجك . القاهرة الدار السعـودية بمصر ، الطبـعة الأولى ، سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص : ٢٣) .

والحق سبحـانه وتعالـى جعل الفـقه صـفة الـقلب ، فقـال : « لهم قلوب لايفقهون بها » . فلما فقهوا علموا ، ولما علموا عملوا، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفـوا اهتدوا ، فكل من كـان أفقه كـانت نفسـه أسرع إجابة ، وأكـثر انقياداً لمعالم الدين ، وأوفر حظاً من نور اليقين .
(كـامــل سـعـفـان : سـبـحـان الله . الـقــاهرة : دار المعــارف ، سنـة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص : ١٣) .

ولقد قـيل : أول التصـوف علم ، وأوسطه عمل ، وآخـره موهبة . فـالعلم يكشف عن المراد ، والعمل يعين على المطلوب ، والموهبة تبلغ غاية الأمل .

فالبداية فـقهية ، والنهاية صوفـية . ومن لم يبلغ من الصوفية مبلغ الـفقهاء وأصحاب الحديث ولـم يحط علماً بما أحـاطوا ، فإنه يرجع فيما وقع له من المسائل إلى العالمين .

(عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية ، ص : ٦٦ ـ ٦٧) .

ويقـول الإمـام الشـاطبى انتـصـاراً للتـصـوف : « وأمـا الكلام فى دقـائق التصوف فليس ببدعـة بإطلاقه ، ولاهو مما صح بالدليل بإطلاق ، بل الأمر ينقـسم ، ولفظ التـصوف لابد من شـرحه أولا حـتى يقع الحكم على أمـر مـفهـوم لأنه أمر مـجـمل عند هؤلاء المتـأخرين ، فلنرجـع إلى ماقـال فـيه المتقدمون . وحاصل ما يرجع فـيه لفظ التصوف عندهم معنيان : =

وقال : كل فقير لايميز الحرام من الحلال بالنظر فليس بفقير فورعه أقبح من ترك ورعه ولايزداد بورعه إلا مقتاً وطرداً على أن الورع لايصح عندنا لأنه لاقدرة للعبد عندنا أن يمتنع من أكل الحرام إذا قسم له أكله .

ومن لم يقسم له لايحتاج إلى ورع (*) . فعلم أنه لايلزم من

= **أحدهما** : التخلق بكل خلق سنى ، والتحرر من كل خلق دني . والآخر أنه « الفناء » والبقاء بربه عن نفسه ، وهما فى التحقيق بمعني واحد ، إلا أن أحدهما يصلح التعبير به عن البداية والآخر لايلزمه الحال .

والثانى : يلزمه الحال . وقد يعبر عنهما بلفظ الآخر .

(*) **الوَرَع :** اختلف الناس فى الورع على ثلاثة أقوال ساقها المحاسبى فى « المكاسب » :

١ ـ ترك ماحاك فى الصدر من جميع الحكايات .

٢ ـ الوقوف عند كل شبهة إذا لم يتبين فيها الحلال من الحرام .

٣ ـ ترك مالابأس به مخافة مابه بأس .

(المحاسبى : القصد والرجوع إلى الله ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا القاهرة : دار التراث العربى ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ، ص : ٦١) .

وقد قيل : الورع : هو الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس مع كل طرفة . (الطوسى : اللمع ، ص : ٥٠) .

كما قيل : الورع مرتبة فوق الزهد وهو أن تدع ما فيه شك من المباح مهماكانت الحاجة إليه .

=

معرفة الحرام اجتنابه ولامن معرفة الحلال أكله . ولا يخرج عن هذا أحد من الأولياء . ولكن الله حمى بعض أوليائه من تناول ما للشرع على أكله اعتراض فظن القاصرون أن ذلك بجهدهم فجهدوا أن يكونوا مثلهم فتشبهوا بما ليس لهم . وكلّ ما قسم لك واستغفر الله . والله يتولى هداك .

= (ابن الخطيب : ملحق روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٣٧) .
فإذا صدقت التوبة ، استلزمت لامحالة الورع ، والورع هو أن يترك الإنسان كل مافيه شبهة . وتوجيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم متناسقاً فى ذلك مع القرآن الكريم ، كثير مستفاض فيما يتعلق بالورع ، من ذلك ماأخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات ، لايعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يوقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

(هذا الحديث متفق عليه).

وعن عطية بن عروة السعدى الصحابى رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به ؛ حذراً مما به بأس** » .

(رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح) . =

= ومن ذلك مارواه الحسن بن على رضى الله تعالى عنه قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » .

(رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وقال النووى : معناه : اترك ماتشك فيه وخذ مالاتشك فيه) .

وفى خبر مسند عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لوصليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ما نفعكم ذلك إلا بورع صادق » .

(رواه أبو ذر رضى الله تعالى عنه مع الإختلاف فى اللفظ ، وأوله : يا أبا ذر كن ورعاً تكن أعبد الناس) .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى تجمع بين توجيه القرآن الكريم ، وتوجيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم متناسقاً مع القرآن الكريم ، ما رواه ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا﴾

« سورة البقرة : الآية : ١٦٨ » .

فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يارسول الله: « ادع لى حتى أكون مستجاب الدعوة .فقال:يا سعد أطب مطعك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به . وأن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ « سورة المؤمنون : الآية: ٥١ » . =

....

= ولقد كان بشر مثلاً واضحاً فى الورع ، فإن من النادر حقاً أن نجد من يماثل بشرا فى تحريه الحلال !.

ومما يروى : جاءت أخت بشـر إلى الإمام أحمـد بن حنبل رضى الله تعالى عنه فقالت : إنا نغـزل علي سطوحنا ، فتمر المشاعل ، فيـقع الشعاع علينا ، فهل لنا أن نغـزل فى شعاعهـا ؟ فقال : من أنت ؟ قـالت : أنا أخت بشر . فبكى الإمام أحمد حتى أبكى من حوله ، وقال : « من بيتكم خرج الورع ، لاتغزلى فى شعاعها ! » .

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه شديد الإعجاب والتقدير لمكانة بشـر في الورع ، وفى ذلك مايرويه ابن عسـاكر : سـئل أحمـد بن حنبل عن مسألة فى الورع ، فقال : أنا أستغفر الله ، لايحل لى أن أتكلم فى الورع ، أنا آكل من غلة بغداد ، لو كـان بشـر بن الحارث حـيـاً لصلح أن يجيب عنه ، فإنه كان لايأكل من غلة بغداد ، ولا من طعام السواد ورعاً .

(عبد الحليم محمود : بشر بن الحارث ، ص : ٩٥) .

وكان بشـر يقول : الصـبر هو الصـمت ، والصمت من الصبر ، ولايكون المتكلم أورع من الصامت ، إلا رجل عالم يتكلم فى مـوضعه ويسكت فى موضعه .

فـالورع هو المجـانبة لكل مـا كـره الله عـزوجل من مقـال ، أو فـعل بقلب أوجارحة ، والمجانبة لتضييع ماعرض الله عزوجل عليه فى قلب أوجارحة .

(المحاسبى : الرزق الحلال وحقيقة التوكـل على الله ، تحقيق محمد عثمان الخـشـت . القـاهــرة : مكتبــة القـرآن ، الـطبـعـة الأولـى ، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص : ٦٧) . =

= وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لايكون العبد فى السماء ولافى الأرض مؤمناً حتى يكون وصولاً ، ولايكون وصولاً حتى يكون مسلماً ، ولايكون مسلماً حتى يسلم الناس من لسانه ويده ، ولايكون مسلماً حتى يكون عالماً ، ولايكون عالماً حتى يكون بالعلم عاملاً ، ولايكون بالعلم عاملاً حتى يكون زاهداً ، ولايكون زاهداً حتى يكون ورعاً ، ولايكون ورعاً حتى يكون متواضعاً ، ولايكون متواضعاً حتى يكون عارفاً بنفسه ، ولايكون عارفاً بنفسه حتى يكون عاقلاً فى الكلام » .

وكان بشر يقول : « أسد الأعمال ثلاثة : الجود فى القلة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة الحق عند من يخاف ويرجى » !

(عبد الحليم محمود : بشر بن الحارث ، ص : ٦٦) .

فالورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه .

وأصل الورع أن يتعاهد المرء قلبه لكى لايفكر فيما لايعنيه فكلما ذهب قلبه إلى مالايعنيه عالجه حتى يرده إلى مايعنيه .

(السمرقندى : تنبيه الغافلين ، ص : ٢٠٧) .

ومن المرويات : دخل الحسن البصرى مكة ، فرأى غلاماً من أولاد على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب عليه الحسن وقال له : ماملاك الدين ؟ فقال : الورع ، فقال له : ما آفة الدين ؟ فقال : الطمع . فتعجب الحسن منه .

وروى أبو هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « **يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن قنعاً تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ماتحب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وأقل من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب** » . =

= وعن الحسن عن عمران بن الحصين رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال الله تعالى : « عبدى أد ما افترضت عليك تكن من أعبد الناس ، واتنه عما نهيتك عنه تكن من أورع الناس ، واقنع بما رزقتك تكن من أغنى الناس » .

ويقول عبد الله بن المبارك : لو أن رجلاً اتقى مائة شيء ولم يتق شيئاً واحداً لم يكن من المتقين ، ولو تورع عن مائة شيء ولم يتورع عن شيء واحد لم يكن ورعاً .

ومن أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : « كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع فى الحرام » .

ولما سئل لقمان : أى عملك أوثق فى نفسك ؟ قال : ترك مالايعنينى . ولاشك أن هذا رباط وثيق بين الحكمة والورع عند لقمان .

ويربط الكرخى بين الصمت والورع فيقول : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم .

(الجيلانى : الغنية لطالبى طريق الحق ، ج١ ، ص : ١٣١) .

ويرى السقطى ضرورة الزهد للورع ، إذ يقول : « لايقوى على ترك الشبهات إلا من ترك الشهوات » .

ولعل هذه الحقيقة هى التى جعلت الطوسى يقرر أن الورع يقتضى الزهد .

وقال الحسن البصرى : مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال ذرة من الصوم والصلاة .

وقال سفيان الثورى: مارأيت أسهل من الورع ماحاك فى نفسك فاتركه. =

= وهذا ماقاله ابن سيرين : مافى دينى شىء أيسر من الورع . كل ما أشتبه عليه تركته .

(أبو سعيد الخراز : الطريق إلى الله « كتاب الصدق » تحقيق عبد الحليم محمود . القاهرة : دار المعارف ،سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ص : ٤٢) .

من هنا قيل : من توقى صغائر الشبهات ، سلم من كبائر الصفات .

كما قيل : الورع : هو الوقوف على حدّ العلم من غير تأويل .

وقال أحد السلف الصالح : لأن أكون ذَنَباً فى الحق ، أحب إلىّ من أن أكون رأساً فى الباطل .

لذلك قال ابن المبارك : لأن أرد درهماً من شبهة أحب إلىّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف .

كما قال سفيان بن عيينه : لايصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال وحتى يدع الإثم وماتشابه منه .

وهذا مانطق به ميمون بن مهران : « لايسلم الحلال لأحد ، حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال » .

كلمات تتفجر ذكاءً ونوراً.. وتضعنا أمام الورع وجهاً لوجه .

كما قال أبو عبد الرحمن العمرى الزاهد : إذا كان العبد ورعاً ترك مايريبه إلى مالايريبه .

ويدلى حسان بن أبى سنان بقوله : ماشىء أهون من الورع ، إذا رابك شىء فدعه .

وقد قيل : علامة التقوى الورع ، وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات . =

= ويحدثنا العطار في : « تذكرة الأولياء » : أساس العبادة الورع ، وأساس الورع التقوى ، وأساس التقوى محاسبة النفس ، وأساس المحاسبة الخوف والرجاء يرجعان إلى العلم بالوعد والوعيد ، وفهم الوعد والوعيد يرجع إلى تذكر الجزاء ، وتذكر الجزاء يرجع إلى الفكر والاعتبار .

(المحاسبي : الرعاية لحقوق الله ، تقديم عبد الحليم محمود . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ص : ٤٧) .

ويتشابك هذا مع ماسجله السلمي في « طبقاته » نقلاً عن الوراق أنه قال : « لايصل العبد إلى شيء من التقوى وعليه بقية من الزهد والورع .

وقد فرق قوم من العلماء بين الزهد والورع فجعلوا الزهد ترك المحرمات والورع ترك المباحات .

(ابن عبد الله الباهلي الأشبيلي : الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، ص : ٦٨) .

ومن كلام بعض الصالحين : لكل عمل كمال ، وكمال الدين الورع .

ولقد أجاب أحد البلغاء عندما سئل عن السخاء فقال : أن تكون بمالك متبرعاً وعن مال غيرك متورعاً .

(أبو الحسن البصري : أدب الدنيا والدين ، ص : ١٨٣) .

وقال صاحب المنازل : الورع هو آخر مقام الزهد للعامة ، وأول مقام الزهد للمريد .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج٢ ، ص : ١٧) .

وبذلك فالورع مرتبة فوق الزهد . وهو أن تدع مافيه شك من المباح مهما كانت الحاجة إليه . =

= من هنا قيل : كيف يكون زاهداً من لاورع له ؟ تورع عما ليس لك ، ثم ازهد فيما لك حسبما يرى يحيى بن معاذ .

(السلمى : طبقات الصوفية ، ص : ٢٦) .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : « لاتنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم » .

وأجاب أحد العلماء عندما سئل عن عقدة الورع فقال : الشريعة تأمره وتنهاه فيتبع ولايخالف .

ولقد صدق الشافعي إذ يقول :

المرء إن كان عاقلاً ورعاً ● أشغله عن عيوب غيره ورعه

كما العليل السقيم أشغله ● عن وجع الناس كلهم وجعه

(الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس : ديوان الشافعي ، جمعه وعلق عليه محمد عفيفي الزغبي . بيروت : دار العلوم الحديثة ، الطبعة الرابعة ، سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ، ص : ٥٦) .

فالإنسان بعد أن يخلى القلب مما ران عليه من الذنوب والآثام فى مقام التوبة يكون على حذر من الذنوب حتى يترك بعض الحلال الذى يكون فيه شبهة مخافة أن يقع فى الحرام .

من هنا قيل : الورع : محاسبة النفس فى كل طرفة والخروج من كل شبهة وبعبارة أخرى كما قال إبراهيم بن أدهم : « الورع ترك كل شبهة ، وترك مالايعنيك » .

أو كما قيل عن الورع أن تطالب نفسك بما يطالب به الشريك الشحيح شريكه فينافسه فى النقير والقطمير . =

= (القشيرى : شرح أسماء الله الحسنى ، ص : ١٣٦) .

وليس الورع فيما بين الإنسان وبين نفسه فحسب ، ولكن ورعه كذلك فى التبرى من مظالم الخلق حتى لايكون لأحد قبله مظلمة ولادعوى ولاطلب (الطوسى : اللمع ، ص : ٥٠) .

ومما يحكى عن الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنه أنه قال : « الورع فى الكلام أشد منه فى الاكتساب » . وهو يدل على تدقيق فى تحرى الشبه . ولاينتبه إلى ذلك إلا القليل .

وقد وضع بجودة تعبيره هذه الحقيقة على هيئة كلمة موجزة ، إذ يقول : « أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفة » .

(محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، ص : ٥٤) .

ولهذا يضع قاعدة هامة من قواعد الورع ، تقوم على أساس التقصى فى تطهير الباطن ، ويقول مابلغ أحد درج الحقيقة إلا وجب عليه التقيد بحقوق العبودية وحقيقتها ، وصار مطالباً بآداب كثيرة لم يطالب الله بها غيره .

فالورع على ضوء ماتقدم . هو أن تتورع عن كل ماسوى الله تعالى .

كما قيل : أن تتورع عن أن يشك قلبك فى الله طرفة عين . فكل ماخطر ببالك فالله بخلاف ذلك .

(عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ، ص : ١٣١) .

ولما سأل المحاسبى أبا جعفر عن الورع ؟ كان جوابه فيه ثلاثة أقاويل :

القول الأول : ترك ماحاك فى الصدر من جميع الحكايات . =

= **القول الثانى** : الوقوف عند كل شبهة إذا لم يتبين فيها الحلال من الحرام .

القول الثالث : ماروواه عطية السعدى ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « لاتكون حقيقة من المتقين حتى تدع مالابأس به مخافة مابه بأس » .

ويؤخذ من حديث المحاسبى فى الكلام على الورع نقلاً عن أبى جعفر أنه عالم ورع زاهد ، حيث دار حديث طويل مثمر بينه وبين المحاسبى فى كتابه : « القصد والرجوع إلى الله » . فكان المحاسبى يسأل وأبو جعفر يجيب من أول الكتاب إلى آخره إجابات تنم على علمه الغزير ، وورعه العظيم ، وزهده الذى قل أن يوجد له مثيل .

ولقد سئل الجيلانى عن أى شيء يقرب العبد إلى الله عزوجل ؟ فقال : لذلك ابتداء وانتهاء ، فابتداؤه الورع ، وانتهاؤه الرضا والتسليم والتوكل .

فالعلاقة بين الرضا والورع ألا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أورضى ، وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى .

وعن أبى بكر الوراق أنه قال : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام ابتدع ، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والورع تفسق ، ومن تفقه فى الأمور كلها تخلص .

(القزوينى : مختصر شعب الإيمان ، ص : ٣٤) .

وللورع علامات أحصاها السمرقندى فى عشرة أشياء :

أولها :حفظ اللسان عن الغيبة لقوله تعالى:﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾

« سورة الحجرات : الآية : ١٢ » . =

= والثانى : الاجتناب عن سوء الظن لقوله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ « سورة الحجرات : الآية: ١٢ » .

ولقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « إياكم والظن فإنه أكذب الحديث » .

والثالث : الاجتناب عن السخرية لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾

« سورة الحجرات : الآية: ١١ » .

والرابع : غض البصر عن المحارم لقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ « سورة النور : الآية ٣٠ » .

والخامس : صدق اللسان لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾

« سورة الأنعام : الآية: ١٥٢ » .

والسادس : أن يعرف نعمة الله لكيلا يعجب بنفسه لقوله تعالى :

﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

« سورة الحجرات : الآية: ١٧ » .

والسابع : أن ينفق ماله في الحق ولاينفقه فى الباطل لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾

« سورة الفرقان : الآية: ٦٧ » .

يعنى لم ينفقوا فى المعصية ولم يمنعوا من الطاعة . =

....

= وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ « سورة الفرقان : ٦٧ » .
أى عدلاً .

والثامن : أن لايطلب لنفسه العلو والكبر لقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ﴾
« سورة القصص : الآية: ٨٣ » .

والتاسع : المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها بركوعها وسجودها لقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ « سورة البقرة : الآية :٢٣٨» .

والعاشر : الاستقامة على السنة والجماعة لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « سورة الأنعام : الآية : ١٥٣» .

والورع ينشأ عن العز نبه عليه ابن عطاء الله بقوله : « أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت فيه طامع » .

كما قال : « أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك ».

ولعلنا إذا رجعنا إلى مايحكيه الشاذلي عن المتورعين نجده يقول : « .. انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله عن الله ، والقول بالله ، والعمل لله ، وبالله ، على البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة ، فهم في عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لايتدبرون ، ولايختارون ، ولا يريدون ، ولايتفكرون ، =

....

= ولاينظرون ، ولا ينطقون ، ولايبطشون ، ولايتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون » .

هكذا أوضح الشاذلي أن التقوى لاتتم إلا بالورع والاستقامة .

والورع كما يعرفه ابن عجيبة : هو كف النفس عن ارتكاب ماتكره عاقبته .

(ابن عجيبة : معراج التشوف إلى حقائق التصوف ، تعليق محمد بن أحمد الهاشمي . دمشق : الطبعة الأولى ، سنة ١٩٣٧م ، ص : ١٠) .

ولقد قيل : الورع إنما يحدث من روعة الله .

والورع له درجات :

الدرجة الأولى : الورع فى الحديث : هو التورع عن اللغو بجميع ضروبه ، إنه ترك كلمات الفضول ، وترك كل حديث ليس سهلاً .

من هنا يقول الإمام القشيرى : « الورع فى الحديث أشد منه فى الذهب والفضة . ولاتدخل الغيبة والنميمة فيما نحن فيه ، وذلك لأننا فى مستوى لاينزل إلى مستوى الآثام والذنوب .

الدرجة الثانية : الورع فى القلب : وهو عدم انشغاله بالتوافه من الخطرات ، ويتسامى الورع فى القلب حتى يصل إلى مايقوله الشبلى : « أن تتورع فى كل ماسوى الله » .

ورع الصالحين : وهو الحذر عما يتطرق إليه احتمال التحريم ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لايبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يترك مالابأس به حذراً مما به بأس » .

وقال عمربن الخطاب رضى الله تعالى عنه : «كنا ندع تسعة أعشار الحلال=

= مخافة أن نقع فى الحرام » .

الدرجة الثالثة: الورع فى الأفعال : وهو يتضمن التحرى فيما يتعلق بالمأكل ، والمشرب ، والملبس ، حتى يكون ذلك من حلال طيب .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله تعالى عليهم يتحرون فى ذلك ما استطاعوا ، وذلك أن النور فى القلب ، والصفاء فى العبادة ، والتيسير فيما يأتى الإنسان وفيما يدع ، كل ذلك له علاقة بطيب المطعم ، والمشرب والملبس . والجو الإسلامى كله يحث على ذلك .

والورع عند الغزالى أربع درجات أدناها ورع العدل وهو ترك كل ماتحرمه فتوى الفقهاء كالربا والمعاملات الفاسدة .

الدرجة الرابعة: ورع الصديقين : وهو ترك ماهو منفك عن الآفات .

(الدمياطى ، السيد بكرى المكى بن السيد محمد شطا : كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م ، ص : ١٠ ـ ١١) .

وقد قيل : ورع الصديقين هو الورع عن كل ماليس لله تعالى .

كما قيل : الورع على وجهين : ورع فى الظاهر ، وورع فى الباطن .

فورع الظاهر : أن لاتتحرك إلا لله . وورع الباطن : هو أن لاتدخل قلبك سواه .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج٢ ، ص : ١٦) .

من هنا يقول يحيى بن معاذ : من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء .

(عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ، ص : ٦٩) . =

وقال : من لازم من يعتزل الخلق اعتقاد التجسيم والقول بالجهة - تعالى الله عن ذلك - علواً كبيراً . فلو كان اعتقاده صحيحاً لرأى الحق سبحانه مع كل الخلق . فأى فائدة للاعتزال . فصاحب الخلوة والعزلة من فقراء هذا الزمان لاشهود عنده للحق ولاإيمان على أن ذلك كله مبنى على رؤية نفسه أنه خير من جميع من يعتزل عنهم . ولو كان يعتقد أن كل الخلق خير منه كما هو شأن الفقراء ما اعتزل عن أحد من الخلق بل كان يأنس [١] مجالستهم ويتبرك بهم .

فعلم أن خلوة هؤلاء وعزلتهم كلها تكبر وحظ نفس ولكن جعلوها قياماً لناموسهم ولولا ذلك ماتميزوا ولا اعتقدهم أحد وتألمهم وتكدرهم لما يطلع شيخ آخر لبلدهم التى

= فالتورع ألا تتحرك ولاتسكن إلا وترى الله فى الحركات والسكنات .

وهذا ورع الخصوص الذى لايفهمه إلا القليل ، فإن من جملة ورعهم تورعهم أن يسكنوا لغيره ، أويميلوا بالحب لغيره ، أو تمتد أطماعهم بالطمع فى غير فضله وخيره . ومن ورعهم ؟ ورعهم عن الخوف مع الوسائط والأسباب ، وخلع الأنداد والأرباب . وورعهم عن الوقوف مع العادات ، والاعتماد على الطاعات ، والسكون إلى أنوار التجليات كما تورعوا عن الدنيا وفاءً وعن الآخرة صفاءً .

(١) فى الأصل : غير واضحة .

يتـردّدون إليهـا لأجل إحسانهم فيـجدهم كلهم انقلبـوا بقلوبهم عنه . فلو كان قصده الخيـر للتـلامذة فرح بـذلك وكثـر اعتـقاد التـلامـذة فيـه وربمـا تـلقن هـو عليـه لأنه كـفـاه المؤنـة ووضـع الهم فى عنقـه لأن كل مـن عـمل شـيـخـا فـى هـذا الزمـان دخـل عليـه كل ريـاء ومداهنـة لأجـل اللقـمـة التـى يجـتـمع عليـهـا تلامذته .

وقـد ذكرنا فـى رسـالة : « الأنوار » : كـون الشيـخ صـاحب هوى وحظ نفس كثرت تلامذته لأنه لو أمرهم بما يخالف هوى نفوسهم ماتبعه إلا قليل فصار كل شيخ له جماعة معينون يطوفون معه البلاد وربما تخلف الشيخ فى تلك السنة عن الطواف فيجيئون إليـه ويقـولون له أهل البلاد كلهم فى انتظاركم ياسيـدى الشيـخ فيقوون قلبه .

وصَدَّق القائل لكن الذين ينتظرونه إنما هم الآكلون معه فى الولائم والصناعات أمـا الفلاح الذى وزن الخـراج الثـقيل سبـعة أمثاله وهاف زرعه بعد ذلك ولم يعرف له بلداً ليرحل [(١)] إليها .

كيف يفرح بمجىء معـاليف كل واحد يطحن ويحبـه يأكل ماعنده أولاده مع كفرانه نعمتهم .

---

(١) فى الأصل : مطموسة .

ويقول لمن يضيفهم حصل لك بركة (*) بأكل سيّدى الشيخ عندك.

(*) **البركة** : تعبر البركة عن النماء والزيادة ، والتبريك هو الدعاء بالبركة ، ويمكن أن يقال : بارك الله لك وفيك وعليك . كما يمكن أن يقال : باركك الله .

للفظ البركة ومشتقاتها أكثر من اشتقاق فى القرآن الكريم وكلها بمعانى الخير الكثير والنعم والمباركة فى الثمرات والأقوات والأولاد والنفع للناس فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ﴾

« سورة فصلت : الآية: ١٠ » .

وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ « سوة الاسراء : الآية : ١ » أى باركنا لهم فى أقواتهم .

وقال تعالى : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾ « سورة الصافات : الآية : ١١٣ » . أى منحه الله وابنه البركة والخير فى الدنيا والآخرة .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ « سورة النمل : الآية ٨ » .

ومعناها : بورك فى مكان النار ومن حولها وهم الملائكة وموسى .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ « سورة الأعراف : الآية : ٩٦ » .

ومعنى الآية : السلامة من الآفات وتأمين الأرزاق ، والأمن =

= والسكينة والغذاء والمطر ... الخ .

وقال تعالى : ﴿ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ « سورة هود : الآية ٤٨ » .أي يانوح اهبط بسفينتك آمناً ببركة الله تعالى وأمن منه تعالى حيث سيكون من ذريتك أمم مختلفة وسينال بعضهم بركة الإيمان ، والبعض الآخر يستمتعون بالدنيا وينالهم فى الآخرة عذاب أليم .

وقال تعالى : ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ « سورة هود : الآية : ٧٣ » .

تلك رحمة الله عز وجل ونعمه الكثيرة التى يمنحها لأهل بيت النبوة فليس بعجيب أن يهب لهم ما لا يهدي لغيرهم .

وقال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ « سورة الأنعام : الآية : ٩٢ » . أى أن هذا الكتاب كثير الخير باق إلى يوم القيامة .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ « سورة آل عمران : الآية : ٩٦ » .

وهو كثير الخيرات والثمرات جعله الله مباركاً إذ هو مكان هداية الناس والحج والاتجاه إليه فى الصلاة .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ « سورة مريم : الآية : ٣١ » .أى جعلنى مباركا معلما للخير نافعا للناس .

=

فهذا كلام خارج عن سياج طريق أهل الله . كما أوضحنا ذلك فى كتاب : « الميزان » (١). وقال : أحسن أعمال العبد أن يرى نفسه عاصياً وقلبه قاسياً فإنه يصير حينئذ لادعوى عنده فتأمل .

وهذا ما درج عليه أهل الله لأنه وصفهم على الدوام .

= وقال تعالى : ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ « سورة النور : الآية : ٣٠ » .

وهى شجرة كثيرة البركات طيبة التربة والموقع ألا وهى شجرة الزيتون .

(١) هذا المخطوط للإمام عبد الوهاب الشعرانى يوجد بدار الكتب المصرية تحت البيان التالى :

رقم الحفظ	المؤلف	العنوان
77 فقه المذاهب عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
239 فقه شافعى عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
334 فقه شافعى عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
407 فقه شافعى عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
408 فقه شافعى عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
1783 فقه شافعى عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
21635 ب عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
26301 ب عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
654 فقه تيمور عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
81 فقه المذهب طلعت عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
1 فقه شافعى ق عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
2 فقه شافعى ق عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
47 فقه شافعى ق عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
48 فقه شافعى م عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين

أمَّا منْ يرى أحواله حسنة وهو مطيع وقلبه رقيق فالله أقرب إليه من حبل الوريد .

قال تعالى ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾(أ) .

وقال : كيف تطلب أن تكون من المؤمنين وأنت طالب لأوصاف المتكبرين من الصلاة على السجادة الرفيعة والمشى على أشرف البقع من المساجد بالناسوتة وربما دخلت المسجد قلت عند الصلاة : أين السجادة ؟

فلو كنت من أهل حضرة الله تعالى ما شعرت لابسجادة ولابناسوتة فصارت الطريق إلى الله تعالى بالتكبر(*) والفخامة

(أ) سورة القلم : الآية : ٤٤

(*) **التكبر** : الكبر أو التكبر آفة من الآفات النفسية التى لايسلم منها البشر ، لكن أسوأ أنواعه الكبر الخفى . والكبر آفة كثير من العلماء ، وهو باب المفاسد والضلالات ، والمدخل الذى يتصور الإنسان أن فيه الراحة والأمن ولايعرف أنه دليل البعد عن الله ، وسبيل الكذب والنفاق والرياء ، وأكبر مغريات الكبر التظاهر بالتواضع ، والقلب خال ، والشيطان يحسن للمرء سوء عمله ليوقعه فى حبائل مكائده .

فالمتكبر الظاهرى قد تمتلكه الدنيا بمظاهر خداعة ، وملذات مؤقتة ، وشهوات عابرة ، يمكن أن ينفر عنها وأن ينصح أمره ، ويعرف نفسه ، ويرجع عن غيه وذلك عن طريق العلم ، أو بالنصيحة الصادقة فيترك المداهنة والنفاق ، ويهجر المدح الكاذب والرياء ، ويعرف أن كل ذلك لايقود إلا إلى الخسران أو الضلال .

=

والدعوى والجبة البيضاء والعمامة الرقيقة وإرخاء العذبة ووضع الرأس فى الطوق وشبه ذلك من أوصاف المنافقين .

= أما صاحب الكبر الخفى ، فإنه أعظم فحشاً ، فهو عكس المتكبر الظاهرى تماماً ، مظهره التواضع ، وظاهره الحياء ، وكلامه الرجاء ، وحديثه الخوف من الله ، يجتمع مع إخوانه فى المحافل فيظهر غير ما يخفى ، ويعلل النفس بالورع والتقوى ، ويبث نفاقاً فى الحاضرين الخشية والرهبة من الله ، فيجلس فى أدنى مقعد من الناس ، ويقدم من هو أقل منه جاهاً وأعز مقاماً ، ويرفع صغار القوم منه حتى يلقب بالتواضع ، ويطلب الدعاء من فقراء الناس حتى ينعت بالصلاح والتقوى ، ويوهم غيره بأنه طالب الآخرة ، بعيداً عن مطالب الدنيا وما فيها ، ويقرن ذلك بالصلاة كذباً وخداعاً ، وبالإحسان نفاقاً ورياءاً ، وبالتذلل لله تعالى طمعاً فى المغانم والمكاسب الدنيوية .

فهو المتكبر بإظهار التواضع ، المتجبر بإخفاء العدوان والاستعلاء ، الحريص على أن يظهر غير ما يبطن ، المتقرب إلى عامة الناس وقلبه بعيد عنهم .

(عبد البارى محمد داود : التواضع فى الإسلام . القاهرة : دار النهضة الشرق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢ م ، ص : ١٥٣ ـ ١٥٤) .

ولقد قيل : لفلح الجبال بالإبر أيسر من إخراج الكبر من القلوب .

وقال الحسن رضى الله تعالى عنه : إن أقواماً جعلوا التواضع فى لباسهم والكبر فى قلوبهم ولبسوا مدارع الصوف والله لأحدهم أشد كبراً بمدرعته من صاحب السرير بسريره وصاحب المطرف بمطرفته .

قال رجل للحسن البصرى : إنك متكبر . فقال : لست بمتكبر ولكنى عزيز : (ابن قيم الجوزية : طريق الهجرتين ، ص : ٨٥) . =

= وقرأ قول الحق تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

« سورة المنافقون : الآية : ٨ » .

وقد قيل : الكبر أثر من آثار العجب والبغى من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم . ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت فنظره إلى الناس شزر ، ومشيه بينهم يتبختر .

وكان أبو مسلم الخولاني يقول : ماتكبر إلا وضيع ، ولاافتخر إلا سقيط ، ولاتعصب بالباطل إلا دنيء الأصل .

ويؤكد هذا ماذهب إليه سفيان بن عيينة عندما قال : من تكبر بغير حق حرم الفهم فى القرآن ، ومن اكتسب عزاً بغير حق أورثه ذلك ذلاً بحق .

(عبد البارى محمد داود : التواضع فى الإسلام ، ص : ٣٦ ـ ٣٧) .

وكان حاتم الأصم رضى الله تعالى عنه يقول : لايخرج الله المتكبر من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل خدمه وجيرانه ويتمرغ فى بوله وقذره قبل الموت .

وهذا القول يذكرنا بمقالة أبو تراب التحشبى : تحقير الفقير هو عين التكبر وكذلك الوقوع فى حق الفقراء من أخلاق الكلاب .

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله يقول : التكبر على من تكبر عليك بماله تواضع لله عزوجل .

ولما كان الكبر والتعالى على الناس مما يتنافى مع الخلق الكريم ، ويغرس الفرقة والعداوة ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل من صلات ، شن الإسلام عليه حرباً شعواء ، ليطهر منه النفوس والقلوب .

فالله سبحانه وتعالى يبغض المختال المتبختر ، المعرض عن الناس كبراً =

= قال تعالى : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾
« سورة لقمان : الآية : ١٨ » .
وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾
« سورة لقمان : الآية: ١٨ » .

ومهما أعجب المرء بنفسه ، واختال في مشيته ، فأخذ يطأ الأرض بشدة ، ويرفع رأسه تطاولاً على الناس ، فهو لن يخرق الأرض ، ولن يبلغ الجبال طولا .

قال تعالى : ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ « سورة الإسراء : الآية : ٣٧ » .

وقد يتعالى المرء بنسبه العالي ، وحسبه الرفيع ، فأراد الإسلام أن يطارد هذه الجاهلية ، ويقضي على هذه العصبية التي أورثت الأحقاد ، وأثارت الفتن ، وأشعلت الحروب زمناً طويلاً .

والمتكبر يرى أنه متميز على غيره بفضيله العلم ، أو العمل ، أو المال ، أو الجاه ، أو الصلاح ، أو القوة ، أو الجمال ، أو غير ذلك من النعم الظاهرة ،

فيصرفه ذلك عن إصلاح نفسه ، وعدم الالتفات إلى نصيحة غيره ، وبذلك يتعطل نشاطه عن التقدم والرقي .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٢٠٦ » .

وأكبر ما يجازى به المتكبرون أن يصرفهم الله عن فهم آياته القائمة في =

= الآفاق وفى أنفسهم .

قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾

« سورة الأعراف : الآية : ١٤٦ » .

والكبرياء صفة مختصة بالله وحده ، لاينبغى أن ينازعه فيها منازع .

عن أبى هريرة رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال الله تعالى : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى النار » . (رواه مسلم فى صحيحه ، وأبو داود فى سننه) .

وأكثر ما يتمثل الكبر فى ردّ الحق ودفعه ، كما يتمثل فى ازدراء الناس واحتقارهم .

روى مسلم والترمذى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل يارسول الله : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس .

من هنا قال ابن عطاء الله : لايخرجك عن الوصف إلاّ شهود الوصف .. والمقصود : لايخرجك أيها المسلم عن الوصف .. أى وصف نفسك من مثل الكبر و العجب . إلاّ شهود الوصف .. أى شهود وصف ربك . كشهود عظمته تعالى .

فالوصف المذكور أولاً كما قال ابن عطاء الله هو وصف العبد ، والوصف المذكور ثانياً هو وصف الرب ، فلاخروج للعبد من صفات نفسه =

= إلا بشهوده لصفات ربه ، فمن شهد كبرياء الحق لم يبق به كبر ، ومن شهد غناه لم يبق له غنى ، ومن شهد قدرته لم تبق له قدرة ، فيبقى بربه لابنفسه ، فإن من شهد أوصاف ربه لم يبق له خبر عن نفسه .

(ابن عطاء الله : الحكم ، بشرح محمد مصطفى أبو العلا ، ج٢ ، ص : ١١٢ » .

فلايخرجك أيها الإنسان عن شهود القدرة والقوة من نفسك إلا شهود قدرة الله تعالى وقوته ، ولايخرجك عن شهود الغنى لك إلا شهود غناه جل علاه ، ولايخرجك عن شهود العزة لنفسك إلا شهود عزته جلّ علاه ، فتبقى بربك فى كل وصف لابنفسك ، والسعيد الذى تحققت له الإرادة لربه يتدبر ذلك ، ويجد فى مرضاة مولاه تبارك وتعالى قبل أن يفارق الحياة ويتأمل قوله سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ « سورة الملك : الآيتان ١ ـ ٢ » .

أما من ادعى لنفسه التواضع فهو المتكبر حقاً . إن كان لايعرف الله إلا فى النعمة فهو لايعبده وإنما يعبد نفسه . خلق الله له الدنيا لتكون فى خدمته فتحول إلى خدمتها ، أراده الحق عزوجلّ ملكاً وأراد لنفسه أن يكون مملوكاً .

وقد قيل : المتكبر كالواقف على قمة جبل يرى الناس صغاراً ويرونه صغيراً .

فالتكبر كما أوضحنا فى ماضى قولنا أنه صفة من الصفات الإلهية ويجب على المرء أن ينخلع منها . =

= وينبغي أن نوضح في هذا الصدد أن أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين : الكبر والحرص . فكان الكبر ذنب إبليس اللعين . فآل أمره إلى ما آل إليه . وذنب آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام : كان من الحرص والشهوة . فكان عاقبته التوبة والهداية ، وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار .

وذنب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه ، والاعتراف به والاستغفار . فأهل الكبر والإصرار ، والاحتجاج بالأقدار : مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس . وأهل الشهوة : المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب ، الذين لايحتجون عليها بالقدر : مع أبيهم آدم في الجنة .

ويقول ابن قيم الجوزية : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : التكبر أشر من الشرك ، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى ، والمشرك يعبد الله وغيره .

ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين .

قال تعالى : ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ « سورة الزمر : الآية : ٧٢ » .

وقال تعالى : ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ « سورة غافر : الآية : ٧٦ » .

وقال تعالى : ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ « سورة النحل : الآية : ٢٩ » . =

= وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

« سورة الزمر : الآية :٦٠ ».

وأخيراً إن أهل الكبر والتجبر هم الذين يطبع الله على قلوبهم .

قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

« سورة غافر : الآية: ٣٥ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » . (رواه مسلم فى صحيحه) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾

« سورة النساء : الآية : ٤٨ » .

تنبيهاً على أن الله سبحانه وتعالى لايغفر الكبر الذى هو أعظم من الشرك . وكما أن : من تواضع لله رفعه .. فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق ذاته أذله الله ووضعه ، وصغره ، وحقره ، ومن تكبر عن الانقياد للحق ولوجاء على يد صغير ،أو من يبغضه أو يعاديه ـ فإنما تكبره على الله . فإن الله هو الحق ، وكلامه حق ، ودينه حق ، وصفته حق ، والحق منه وله . فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله ، فإنما ردّ على الله وتكبر عليه .

ولهذا فسر النبى صلى الله عليه وآله وسلم الكبر بضده . فقال : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

فبطر الحق : ردّه وجحده ، والدفع فى صدره . كدفع الصائل . وغمط الناس .. احتقارهم وازدراؤهم . ومتى احتقرهم وازدراهم : منع حقوقهم وجحدها ، واستهان بها .

=

ولعمرى هل رأيت عبداً آبقاً طال الهجران من سيده والغضب عليه ثم دعى للوقوف بين يديه هل أمره (١) بفرش سجاده وجلب ناسوته يمشى بها على بساط سيده . فتأمل ذلك . فإن هذا من أفعال الغافلين المحجوبين فكيف يكون صاحبه داعياً إلى الله تعالى وهو لايعرف طريق بابه . فاعلم ذلك واحذر من اقتضاء آثار المتظاهرين فى هذا الزمان بالمشيخة فإنهم لايسلكون بك إلا من

= لذلك نوضح أن مجالسة أهل الإنكار وأهل الجهالة تذهب الأنوار . فلا ينبغى ألا يتكبر أحد على أحد لأن التكبر يورث الهبوط ، وذلك لأن الكبر تعظيم شأن النفس ، واحتقار الغير ، وذلك يكون بسبب الترفع على من هو دونه ، إما فى النسب ، أو المال ، أو العلم ، أو العبادة ، أو غير ذلك . (أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ٤٤ » .

وعلامة التكبر الأنفة ممن يتكبر عليه ، والاختيال والفخر ، ومحبة التعظيم من الناس له .

وقال ابن المبارك : التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع .

وفى جامع الترمذى مرفوعاً عن سلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه : « لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب فى ديوان الجبارين . فيصيبه ماأصابهم » .

(١) فى الأصل : غير واضحة . والواضح فى هذا المخطوط إغفال الهمزة فى جميع كلماتها . ولاشك أن إغفال الهمزة أمر ملحوظ فى جميع مخطوطات الإمام الشعرانى . وكذلك هذه الملاحظة وجدناها فى مخطوطات أخرى .

طريق المقت وقلة الأدب مع الله كما هو مشاهد نسأل الله أن يمن(*)

(*) **المنة** : منَّ عليه بكذا : أى أنعم عليه به .

(محمد إسماعيل إبراهيم : قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ، ص : ٣٦٣) .

كأن المنعم يقطع بإحسانه حاجة المحتاج . ولقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ « سورة آل عمران : الآية :١٦٤ » .

وقال تعالى : ﴿ أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا ﴾

« سورة الأنعام : الآية : ٥٣ »

وقال تعالى : ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾

« سورة القصص : الآية: ٨٢ » .

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ « سورة طه: الآية: ٣٧ ».

فهو إنعام إلهى ومنّة ربانية ، وعطية إلهية ، ومنحه رحمانية .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ « سورة إبراهيم : الآية: ١١ »

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ « سورة المدثر : الآية: ٦ » . = =

وقال تعالى : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ « سوة الشعراء:الآية :٢٢ » .

وقال تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ ﴾

« سورة الحجرات : الآية: ١٧ ».

وقال تعالى : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

« سورة ص : الآية: ٣٩ » .

وقال تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾
« سورة البقرة : الآية :٥٧ ، وسورة الأعراف : الآية :١٦٠ » .

من هنا نوضح أن المريد الصادق إذا اجتهد بالإخلاص والطاعة ، أثمر عمله بمنّة إلهية ، أومنحة ربانية ، أو كشف رحمانى ، فإن ذلك يعد ميلاداً جديداً على القبول من الله .

فالثمرات والنعم التى يحظى بها المريد الصادق إنما هى تأكيد على أنه يسير فى طريق الله فيجد لذة حلاوة الطاعة واستئناس بما يلقى فى قلبه من المعارف والتجليات وهى منن وعطايا . ولذلك نبين أن المنة الإلهية إنما هى تأكيد للمريد أنه يسير فى طريق الحق .

والناس فى ورود المنن عليهم من الله سبحانه وتعالى على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : يفرحون بالنعم من حيث أن فيها قضاء أوطار نفوسهم ونيل أغراضهم والتمتع بشهواتهم ولذاتهم ، فأحوال هؤلاء مذمومة جداً أشبه شيء بهم الأنعام والبهائم . وهذه أحوال أهل الطرد والبعد =

= والاستدراج والمكر والغفلة . ويصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ « سورة الأنعام : ٤٤ » .

وحال هؤلاء الطبقة بعيده من الشكر منافية له .

القسم الثانى: هذا القسم له نصيب من الشرف والجلالة. وهم الذين فرحوا بالنعم من حيث أنها منّة من الله أرسلها ونعمة أوصلها ، فمن حيث شهودهم للمنة من ربهم شرفوا وجلت أقدارهم وكانت أحوالهم محمودة وهى شكر منهم لائق بهم . ومن حيث نظرهم لأنفسهم وبقاؤهم مع حظوظهم كان لهم نصيب من الدناءة والخسة فانحطوا بهذا الوصف عن مراتب الأعلين وارتقوا بالوصف الأول عن أحوال الأدنين فخوطبوا بما خوطب به عامة المؤمنين . وعليهم يصدق قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾« سورة يونس : الآية: ٥٨» .

فا الفرح من حيث بروزها من الله تعالى كمال ، والنقص من حيث أنه ملتفت إلى النعمة .

القسم الثالث: هذا القسم أصحابه كانوا فى غاية الشرف والجلاله . وهم الذين فرحوا بالمنعم فقط ولم يلتفتوا إلى ظواهر النعم من حيث أن فيها متعتهم ولذتهم ولاإلى بواطنها من حيث كونها دلائل على عناية الله تعالى بهم حيث منّ بها عليهم كما هو حال القسمين السابقين ، فإن القسم الأول التفت إلى ظاهر النعمة من أجل أن فيها لذتهم وغابوا عن المنعم . والقسم الثانى : التفت إلى باطنها من حيث بروزها عن الله تعالى وأن فى حصولهم لها فضل من الله عليهم . وأما أهل القسم الثالث فما شغلهم عن الله تعالى ظاهر التمتع بالنعم ولاباطن المنة بها ، بل شغلهم =

علينا بالقوت ولايعذبنا بغلاء فلو كان (كل)[(١)] من يعمل شيخاً يظل اليوم واليومين لايجد رغيفاً ما اعتد قط بعذبة

= النظر إلى الله تعالى عما سواه وجمعية قلوبهم عليه فهم فرحون بالله ولاتشهد قلوبهم إلا إياه ويصدق عليهم قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ « سورة الأنعام : الآية: ٩١ » .

وحال هؤلاء الشكر الحقيقي الخالص الخالى من المزج والشوب لأن المشاهد للمنعم فَانٍ عن حظوظ نفسه ، فهو يرى الأشياء كلها نعماً ، فلا تفرقة عندهم بين وجود ولاعدم ، ولاعطاء ولامنع ، ولايخاف عليه التغير والانقلاب لتغير الأفعال والأسباب ما يخاف على غيره الباقى على حظه .

(السيد دحلان : تقريب الأصول لتسهيل الوصول ، ص : ١٤٧) .

ولقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يادواد قل للصديقين بى فليفرحوا أى حيث كنت لهم رباً وكانوا لى عبيداً خالصين من حكم بشريتهم وبذكرى فلينعموا ، أى لايتنعمون إلا بذكرى لابلذات الدنيا وشهواتها فإن المشتغل بذكر الله تعالى يحصل عنده من اللذة والأنس بالله تعالى مالايوازيه لذة من لذات الدنيا .

(المصدر السابق ، ص : ١٤٨ ـ ١٤٩) .

وكان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أكمل من أوتى الفرح بالله .

ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : « **وجعلت قرة عينى فى الصلاة** » . لما فيها من القرب إلى الله لأن الصلاة فضل من الله وبارزة من عين منّة الله . فكيف لاتكون قرة عينه بها . وكان فرحه صلى الله عليه وآله وسلم فيها بالله .

(١) لاتوجد فى الأصل ، زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

ولاسجادة ولاقال للخلق تعالوا ألقنكم الذكر وتتخذونى أستاذاً لكنه وجد الرغيف والأكل موجود فتطاول وادعىّ وتكبر وتمشيخ. (قال تعالى)(١): ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (أ). والله يهدى من يشاء إلى ما يشاء.

وقال: كل من نهيته عن نقص فيه وزجرته (*) وحذرته فقال

---

(١) لاتوجد فى الأصل، زيادة أضفناها حفظاً للمعنى وسياق اللفظ.

(أ) سورة العلق: الآيتان: ٦ ـ ٧.

(*) **الزاجر**: أو الضمير من الكلمات التى شاع استعمالها بين كثير من علماء النفس وفلاسفة الأخلاق، على أساس أنها تعبير يدل على القوة الباطنة، التى يختار بها الإنسان طريق الحق والخير والجمال، أو ما يتعارض مع ذلك فى علاقته بنفسه وبغيره من الناس.

وعلى مقتضى هذا الاختيار يكون الثواب أو العقاب، والاطمئنان، أو القلق، أو السعادة، أو الشقاء.

واصطلاح الضمير بشقيه النفس والأخلاقى اصطلاح حديث مأخوذ عن الكلمة Conscince الأجنبية، ولانجد لهذا المصطلح أصلاً فى الشريعة الإسلامية.

وقد تبيَّن لكثير من المفكرين والباحثين غموض هذا التعبير، إذا مايزال يشق فهمه على وجهه الصحيح بالرغم من انتشار استخدامه عند العلميين باعتباره من ناحية شعوراً داخلياً فى النفس بالواجب عمله وهو مايسمى: « بالضمير الأخلاقى ».

(حسن الشرقاوى: نحو منهج إسلامى، ص: ٣٠٥). =

هذا لايقال لمثلى إنما يليق ذلك بالعوام والفقهاء فاعلم أنه سقط من عين الله عزوجل وحجب عن الإيمان .

= كما يستخدم من ناحية أخرى باعتباره حكماً على الأعمال والأفعال الخيرة منها والشريرة ، فهو أداة لرفض كل ماهو مذموم ، وللإقبال على كل ماهو محمود وهنا يسمى : « بالضمير النفسى » .

وواضح من هذا التقسيم أنه من الصعوبة بمكان التمييز تمييزاً واضحاً بين الضمير النفسى والضمير الأخلاقى ، إذ يكاد لايعرف ما يقصد به على الحقيقة بالرغم من تلك التعريفات المتعددة التى تظهره على أنه كل شىء فى الإنسان . (محمد العفيفى : الضمير ماهو ؟ ص : ٥٧) .

ويختلف تحديد العلماء والفلاسفة للضمير وفق معتقداتهم الدينية ، فالمؤمنون بالله تعالى ، يعلمون أن هذه القوة الباطنة ، وثيقة الصلة بفطرة الله فى خلقه ، ولذلك فهى ليست ناشئة من الفكر البشرى ، وليست مختلفة باختلاف البيئات والعصور .

وإنما هى حقيقة ثابتة ينتفع بها الإنسان ، على قدر ما يجتهد فى معرفتها ، وتوجيهها الوجهه الصحيحة التى أوجدها الله من أجلها .

ولوتتبعنا تفسيرات الفلاسفة وعلماء النفس ، لما يسمى الضمير لفتحت أمامنا أبواب كثيرة للحقائق العلمية الصحيحة ، أو النظريات التى لم تثبت صحتها بعد ، أو الأخطاء التى لايخلو منها أى فكر بشرى ، بعيد عن هدى الوحى الإلهى .

ومن أكبر الأخطاء وأخطرها فى قضية الضمير أن بعض الفلسفات التى ضلت الطريق إلى الدين ، تعتبر الضمير كافياً للاستغناء عن مطالب الإنسان الدنيوية . (المرجع السابق ، ص : ٥٨) . =

....

= لهذا كان من الضرورى ، أن نناقش هذه المشكلة وأن نعالج مافيها من غموض ، أو أخطاء ، ببعض الحقائق الإسلامية المناسبة لها .

ونتساءل :هل كلمة « الضمير » كافية فى دلالتها على مكنونات النفس الإنسانية ، وما يتصل بها من حقائق ؟!!

والجواب : أن كلمة الضمير تعنى من الناحية اللغوية معنيين :

أولهما : الاضمار وهو التضييق والتضليل والإضعاف ، كما فى الحديث النبوى :(فإن ذلك يضمر ما في نفسه) أي يضعفه ويقلله ، من الضمور ، وهو الهزال والضعف .

وثانيهما : الغيب الذى لايرجى ظهوره كما جاء فى الحديث : « المال الضمار » وهو الغائب الذى لايرجى تحصيله .

(محمد العفيفي : الضمير ماهو ؟ ص : ٥٨) .

وفى أساس البلاغة للزمخشرى ارتبطت كلمة الضمير بنفس المعنيين السابقين :

أولاً : الهزال وتضييق النطاق فيقال (فرس ضامر) . أى هزيل لاينمو جسمه وتضمر وجهه من الهزال .

ثانياً: ارتباط معنى الضمير بالغيب فيقال : « عطاء ضمار » أو« موعد ضمار » بمعنى أن هذا كله غيب لايرجى تحققه .

وعلى هذا فإن كلمة:« الضمير » لاتفى فى اللغة العربية بالغرض الذى ربطناه فى هذا المجال . فآفاق النفس الإنسانية أعم وأشمل من ذلك ، وأعماق النفس أعمق من وصفها بالضيق أو القصور .

(المرجع السابق : نفس الصفحة) . =

....

= وإذا ماحاولنا سير غور واستجلاء معنى الضمير ، خفى علينا أمره ، وإذا أردنا تحديد وظائفة لبس علينا الأمر وغمض ، وتفرقت بنا السبل وأضلنا ضلالاً مبيناً، ومع ذلك فإنه يقال إن الضمير محكمة الإنسان المستعجلة وأنه يصدر أحكامه على القضايا المعروضة دون تباطؤ ، كما أنه أمره واجب التنفيذ ، غير قابل للطعن أو النقض .

إلا أنه يبقى واضحاً لنا أن الضمير الإنسانى ـ كمادلت التجارب عبر العصور المختلفة ـ لايعد ميزاناً عدلاً ولاخيراً فاضلاً وليس بصالح للتطبيق فى الزمان والمكان .

لقد نزلت شريعة الحق لتبين للناس الطريق الواجب الإتباع . إذ أنه لوترك الإنسان حراً، لطغى وتكبر وأفسد في الأرض وادعى لنفسه العصمة كذباً وافتراءً ، لذلك كان الخطاب موجهاً من الله سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لتبليغ الرسالة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعدم إتباع آراء الناس الفاسدة التى عبر عنها بالأهواء التى هى جهل وفساد . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ « سورة الجاثية : الآية: ١٨ » .

فلوكان ضمير الإنسان كافياً لمعرفه الحق الواجب الإتباع ، وانتهاج الطريق القويم ، ما كان هناك داع للأنبياء والرسل من قبله تعالى ليبلغوا رسالاته على الأرض مبشرين ومنذرين ، ولكان الضمير الإنسانى كافياً بذاته ليحقق الخير والحكمة دون حاجة إلى الأديان والشرائع والرسالات .

لقد بلغت الشرائع والأديان السماوية لتهدى العقل إلى الحق ، وتبيِّن للناس السبيل الأقوم إلى الأمور، وتهديهم إلى طريق الاستقامة والعدل .=

•••

= إذ النفس لو تركت دون توجيه أو إرشاد إلهي لتخبطت في الجهالة ولاتعرف صالحها على الحقيقة ، ومن ثم كان خالقها أدرى بما يتوجب عليها علمه . لذلك بين تعالى حكمته البالغة المؤدية لخيرها :

قال تعالى : ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾

« سورة البقرة : الآية :٢١٦ » .

وقال تعالى : ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾

« سورة البقرة : الآية: ٢١٦ » .

ويبصر الحق سبحانه وتعالى الناس بمنهجه الأقوم ، وطريقة الأرشد الذى ينشده الساعى إلى الخير والذى يشرف فى نفس المتأمل فى الناموس الكونى وحجج الله البالغة .

ومن لطف الله تعالى ونعمه ورحمته أنه لايكره الناس على الإيمان حتى يكون التوحيد قائماً على التعقل والتأمل والتدبر والتفكر ، وليس تسلطاً أو إجباراً أو تعسفاً ، فلا يحاسب المخطىء إن اضطر مكرهاً مع إيمانه إلى الوقوع فى الانحراف لأن ما تم من إثم لم يكن عن طريق الاختيار الإرادى . وهذا دليل قاطع على كفالة الله لحرية الإنسان فى أروع صوره .

قال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٢٥٦ » .

وقال تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

« سورة يونس: الآية : ٩٩ » .

وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

« سورة النحل : الآية: ١٠٦ » . =

....

= يبين الحق تعالى أن ما أنزله للناس من الدين إنما هو مواكب للفطرة السليمة ، والقلب السليم ، والعقل الرشيد . والله سبحانه وتعالى يدع الإنسان بعد ذلك يختار ما يشاء دون قهر أو إكراه .. وهو إذ يضرب له الأمثال ، ويبيِّن له الآيات ، ويمده بالأسانيد الدافعة والحجج البالغة ، إنما يحميه من الدعاوى والمزاعم حتى لايكون على الله حجة بعد البلاغ ، ولايكون الإنسان مطية للأهواء ، فيزين به سوء عمله فيراه حسناً .

وإذا كانت هناك حرية فى الاختيار منحها الله للناس ، فليس معنى ذلك أن اختيارهم للأفعال والأعمال والأحكام صحيح ، وأنه مادامت ضمائرهم راضية بما يفعلون فإنهم سائرون إلى الحق المبين .

لقد فرق الحق سبحانه وتعالى بين طائفتين من الناس ، أحدهما تحظى بقلوب رحيمة وأخرى تحمل قلوب قاسية ، ثم فتح باب التوبة ليرجع الآثم عن إثمه ويلتحق بركب الصالحين .

قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾

« سورة الحديد : الآية : ٢٧ » .

وقال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ « سورة الحج : الآية: ٥٣ » .

وقال تعالى :﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ « سورة المائدة : الآية: ٣٩ » .

كما بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن هناك طائفة من الناس تتظاهر بموافقتهم للمؤمنين لكن قلوبهم على الكفر والفسق والضلال. =

....

= قال تعالى :﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ « سورة التوبة : الآية: ٨ » .

يبقى بعد أن اتضح لنا عدم صلاحية مصطلح الضمير ليكون حكماً عادلاً يجعل من صاحبه بالضرورة أخلاقياً ، أن ندعو إلى مصطلح إسلامي بديل للإنسان واعظاً وحكماً .

وإذا تأملنا الآيات البينات وجدنا أن هناك تعبير الزاجر بمعنى الواعظ فى الإنسان ، إذ الزجر أعمق معنى وأكثر انطباقاً على ما يجرى داخل النفس الإنسانية وما يشغل باطنها من أحوال وما يصدر عنها من أحكام .

ولقد ورد لفظ : « الزاجر » فى القرآن الكريم ومعناه لغوياً : الدفع والطرد فيقال : ازدجر وزجره أى انتهره ومنعه ونهاه ، وزجر الراعى غنمه أى صاح بها ودفعها ، والزاجر جمعه الزاجرات . وقد وردت بهذا المعنى فى قوله وتعالى : ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ « سورة الصافات : الآية: ٢ » .

والزاجرات هى الملائكة التى تدفع السحاب أو تطرد الشياطين ، أو تنهى عن المعاصى بإلهام الخير كما وردت فى قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ « سورة القمر : الآية: ٩ » .

كما وردت فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ « سورة القمر : الآية :٤ » .

وقال تعالى :﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾« سورة النازعات: الآية : ١٣ ».

ويبدو أن لفظ الزاجر صالح للاستخدام باعتباره مانع للإنسان من الإقدام على اقتراف المعاصى ، وأنه بدونه يظلم نفسه ويتعدى حدود الله ، ويسرف فى أمره ويغفل ويبخل ويعتدى ويأثم . =

= (محمد إسماعيل إبراهيم : قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ، ص : ١٥٧) .

فالزاجر فى الإنسان إذن قوة إذا تكامل كان نعمة ورحمة وهدىً له ، فيه يستقيم حاله فيكون الصدق شعاره ، والإخلاص بابه ، والطاعة خلاصة ، فالزاجر بهذا المعنى واعظ فى القلب يدل على خوف العبد من وعيد الله تعالى ورجائه فى وعده .

وانقداح الزاجر فى قلب العبد علامة على التوبة ، وكلما قوى فى الإنسان ازداد صلاحاً واستقامة .

فالزاجر إذن تنبيه وتأنيب للإنسان يأتيه فى صورة واعظ ، ويدخل إلى قلبه ويهتف فى أعماقه ، ويرشده إلى سبيل الاستقامة ، ويبيِّن له طريق الحق ليتبعه ، والباطل ليتجنبه .

ويطيع المؤمن الزاجر ، فلا يذكر نفسه ، ولايحسن سوء عمله ، فيركن للأهواء بدعاوى مغرضة ومزاعم فاسدة ، إذ أنه واعظ الحق إلى القلب السليم ، والنفس المستقيمة ، والعقل المسترشد بنور الإيمان .

والسؤال الآن : ما المصطلحات التى جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية لتحقق لنا مالا تحققه كلمة : « الضمير » ؟

والجواب : إنه جاءت كلمة النية أو النيات ، وكذلك كلمة الإرادة ، أو المشيئة ، أو القصد، وارتبطت كلمة « النفس » بحقائق موضوعية لها دلالاتها تستوعب كل مانتشده فى هذه المجالات السابقة .

ففى بيان وحدة النفس وثبات خصائصها والتكاليف الملقاه عليها يقول =

= الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ « سورة النساء : الآية :١٠ » .

وفي مجال الربط بين اختيارات النفس وبين الثواب أو العقاب ، يقول الله تعالى :﴿ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ﴾

« سورة الأنعام : الآية : ١٦٤ » .

وفي مجال ارتباط النفس بالمكان والزمان ، وقدرتها على التفاعل مع حركة الحياة ، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ « سورة الحشر : الآية: ١٨ » .

وفي مجال حقيقة القوة الباطنة ، ومصدرها وغايتها يقول الله تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ « سورة الشمس : الآيات ٧ ـ ١٠ »

وفي مجال يقظة النفس ، وحوارها مع صاحبها ومناقشته الحساب ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ « سورة القيامة : الآية:٢ » .

والنفس اللوامة تختلف باختلاف الدوافع الإنسانية فقد تكون دوافعنا نبيلة صالحة ، فينصب اللوم على التفريط فى عمل الصالحات ، وقد تكون دوافعنا مجانبة للصواب فينصب اللوم على التفريط فى ارتكاب الموبقات ثم نسعد بهذا التفريط الأخير إذا انكشفت الأمور على وجهها الصحيح .

والأهواء لها دورها فى حقائق النفس كما يقول الله تعالى : =

= ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ « سورة النازعات : الآيتان: ٤٠ ـ ٤١ » .

وهكذا استقلت هذه الآية ببيان حال الهوى المخالف للحق .

أما السنة فقد جاء في بعض نصوصها أن الإيمان لايكمل إلا لمن كان هواه تبعاً لما جاء به النبي صلي الله عليه وآله وسلم .

وقد وصفت النفس بالرضا والاطمئنان ، في حال قيامها بماكلفها الله به ، قال تعالي : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ « سورة الفجر : الآيتان: ٢٧ ـ ٢٨ » .

أما إرادة الإنسان فتختلف دوافعها وغاياتها كما يقول الله تعالي :

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾

« سورة آل عمران : الآية: ١٥٢ » .

وارتباط الإنسان بالمكان والزمان ، يمكن له في تحقيق إرادته بما يتناسب مع قدراته . قال تعالي : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ « سورة الفرقان : الآية : ٦٢ » .

وإرادة الإنسان بدوافعها واختياراتها لها ثوابها في الدنيا والآخرة .

قال تعالي : ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ « سورة آل عمران : الآية: ١٤٥ » .

وإرادة الإنسان إرادة نسبية ، ولكنها متي وجهت للإصلاح وجدت من =

....

= الله عوناً وتأييداً . (محمد العفيفي : الضمير ماهو ؟ ص : ٦) .

قال تعالي : ﴿ إن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾

« سورة النساء : الآية: ٣٥ » .

أما المشيئة فتتجلي فيها حـرية الإنسان التي جعلها الله مناسبة للناس جميعاً وفرادي . قـال تعالي : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ « سورة الكهف : الآية: ٢٩ » .

ويستطيع الإنسان أن يوجه مشيئته إلي التقرب إلي الله فتتسع الآفاق أمامه ، ويتسامي دائما إلي ماهو أعلي وأرقي .

قال تعالي : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ « سورة الصافات : الآية: ١٠٢ » .

وكـذلك التقـدم والتأخـر حين كل منهـما بدوافع المشيئة التي يسـرها الله للإنسان . قال تعالي : ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ « سورة المدثر : الآيتان: ٣٦ ـ ٣٧ » .

أما السـنة النبوية فـقد جاء فـيهـا تعبـير النيـة والنيات وارتبط هذا التـعبـير بالعمل ونتائجه .

قـال رسول الله صلي الله عليـه وآله وسلم : « إنما الأعـمـال بالنيـات وإنما لكل أمريء مـا نوى ، فمن كانت هجـرته إلى الله ورسوله فهـجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبـها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه » (رواه البخارى عن عمر بن الخطاب) . =

= فى هذا الحديث الشريف ربط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين النية وبين فكر الإنسان وإرادته وعاطفته ورغبته ورغباته ودوافعه .

وكذلك الربط بين النية وبين حركة الحياة ممثلة فى الهجرة . ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا كله فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ «سورة الحج: الآية:٤٦»

وفى هذا قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « **ألا أن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب** » .

هذه النصوص التى أوردناها من الكتاب والسنة من مصلحة البشر جميعاً أن يحتكموا إليها وأن يصححوا بها أخطاءهم فى التفكير والتعبير والاتجاهات والأعمال وغير ذلك .

ففضلاً عن الخطأ فى استعمال الضمير فى هذا المجال أصلاً هناك أخطاء فى تعبيرات كبار الفلاسفة العالميين فى هذا المجال نذكر منها :

١ ـ أخطرها خطأ الاستقلال بما يسمى الضمير بدعوى أنه يغنى الناس عن دين الله .

٢ ـ وهناك أخطاء جزئية تأتى فى كلام الفلاسفة ولويحسن نية مثل قول جان جاك روسو كما هو مترجم بالمعجم الفلسفى .

ج١ ، ص : ٧٦٣ (الضمير صوت النفس والهوى صوت الجسد) .

(محمد العفيفى : الضمير ماهو ؟ ص : ٦١) .

« إن توزيع الضمير والهوى بهذا الشكل السابق بين النفس والجسد يحتوى على أخطاء كثيرة ، فالنفس تهوى وتتمنى » . = =

••

وهذا الخطأ يعالجه قول الحق تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾

« سورة النازعات : الآية : ٤٠ » .

وفى نفس المرجع السابق يقول جان جاك روسو « أيها الضمير ... أيها الحاكم المعصوم الذى يفرق بين الخير والشر ، أنت الذى تجعل الإنسان شبيهاً بالله » .

وللجواب على بعض الأخطاء الفادحة فى هذا النص العالمى علينا أن نتساءل : لوكان ضمير الإنسان معصوماً . فلماذا يخطىء الإنسان ؟!

والخطأ الأكثر فداحة هو إدعاء هذا الفيلسوف العالمى الشهير أن الضمير يجعل الإنسان شبيها بالله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

« سورة الشورى : الآية : ١١ » .

إن الله زود الإنسان بالقوة الباطنة ليستطيع إدارة الحوار بين اختياراته فإن أصاب سعدت نفسه واطمأنت ، وإن أخطأ لم ييأس من رحمة الله سبحانه وتعالى .

وليس فى ذلك أى شبه بين العبد وربه نعوذ بالله من هذا الخطأ الكبير ؟!

وعلى النقيض من ذلك يقول هيجل فى : « المعجم الفلسفى » إن الضمير قد يكون واضحاً أو غامضاً أو متشككاً أو ضالاً ، إلا أن المربى الصالح يستطيع أن يصلح كل هذه الآفات .

وهذا الكلام فيه كثير من الصواب ، ولكنه ينقصه تحديد المصدر اليقينى =

(قال تعالى)(١) : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(أ) .

= الذى نحتكم إليه لنتأكد من الفرق بين الصواب والخطأ والفضائل والرذائل وإلالاختلفت سبل الإصلاح أمام المربين فإذن لامفر من الرجوع إلي نصوص الوحى الإلهى من الكتاب والسنة النبوية الشريفة .

نعود فنقول : إن الزاجر هو تنبيه وتأنيب للعبد الصادق يأتيه فى صورة ما وهو كالواعظ ، ويدخل قلبه فيهتف فى أعماقه ، ويرشده إلى طريق الحق ، ويبين له طريق الباطل لتجنبه ، فيطيع العبد الصادق الزاجر ، فلا ينقاد لشهوة ولايتبع معصية .

وأخيراً نحن نرفض مصطلح الضمير بشقيه الأخلاقى والنفسى ، وذلك لأن معنى الضمير كما أورده المتفلسفين والعلميين غامض ، بالإضافة إلى أن شيوع استخدامه لتحقيق وجهه نظر معينه ، شعوراً داخلياً يعمل النفس فى الداخل ، يعد خلطاً والتباساً يبعده عن الصدق ، ويحيد به عن الغاية التى يستهدفها .

والحق كثيراً ما يتجبر الإنسان ويتغافل ويضل ويضلل ، وهو يفعل كل ذلك وهو مرتاح الضمير ،أما المؤمن بالله فإن زاجره يأتيه عن مداومة تمسكه بالعروة الوثقى واسترساله مع الله أبداً ، وانشغاله بما أمر ونهى فإذا أخطأ أو نسى دعى الله مستغفراً : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

« سورة البقرة : الآية: ٢٨٦ » .

وخاتمة القول : فالزاجر إذن واعظ فى القلب يرشد إلى الحق والاستقامة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويعاون الإنسان على سلوك طريق الخير فى الدنيا والآخرة .

(١) لاتوجد فى الأصل ، زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(أ) سورة الذاريات : الآية: ٥٥ » .

فاعلم ذلك واحذر منه والله يتولى هداك .

وقال : من برز إلى الخلق بمنام رآه أو أذن له أحد من صوفية هذا الزمان فصار كل من رأى مناماً عمل شيخاً ولا نعرف الآن أحد من مشايخ عصرنا معه إذن صحيح أبداً لأن الإذن إنما يكون من الأولياء أصحاب القدم من أصحاب التوبة . أما إذن هؤلاء الذين جلسوا فى الزوايا وجعلوا لهم تلامذة فهو إذن لا عبرة به .

وقد سأل شخص من إخواننا سيدى عبد القادر الدشطوطى (١) رضى الله تعالى عنه عن المشايخ الذين فى الزوايا فى عصره وعين منهم الشيخ المرصفى (٢) .

---

(١) **عبد القادر الدشطوطى** : ذكره الإمام الشعرانى أنه من أكابر الأولياء . ومما ذكره عنه فى : « الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية » : أنه قال : « من تأمل ونظر بعين الإنصاف وجد جميع ما ينكره بعض المجادلين على القوم جهلاً ، أو جحداً ، أو عناداً ، أو حسداً ، لايخرج عن واحد مما ذكر . فإن حقيقة الصوفى أنه عالم عمل بعلمه اليقينى على وجه الإخلاص لاغير . توفى سنة ثلاثين وتسعمائة .

(٢) **المرصفى** : هو الشيخ على نور الدين المرصفى . كان من أساتذة الإمام الشعرانى أشار إليه فى كثير من كتبه ، وقد اعتبره الناس جنيد عصره . ومن أقواله : العارفون بيقين أعلم بالشريعة من شيخ الإسلام ، ولكنهم اكتفوا فى تدريس علم الشريعة بأهلها ، وتصدروا لإرشاد المريدين وتعليمهم حسن العمل بما تعلموه من العلماء طلباً لتكميل الناس فى بواطنهم كما كملوا فى ظواهرهم ، فيحصل لهم الكمال ظاهراً وباطناً . توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

والشيخ الذاكر[١] هل هم أولياء أم [٢]لا . فقال : والله ياولدى هؤلاء كلهم لم يشموا رائحة طريق الفقراء ، هؤلاء بعيدين عن المقصود إنما هم فقراء قليلين الأدب .

ولكن الأولياء أصحاب القدم ياولدى كثير وعدّ منهم جماعة طباخين ، وجماعة زياتين ، وعدّ منهم شيخنا الشيخ على البُرلس رحمه الله تعالى أمين .

واذا نوزع القاصرين من هؤلاء المدعين وقيل له : لست وليًا. قال طريقنا ليس للقطب عليها ولاية ، نحن خارجين عن دائرة القطب [*].

---

(١) **الذاكر** : هو تاج الدين الذاكر ، ذكره الشعرانى أنه مكث لايضع جنبه إلى الأرض منذ سبع وعشرين سنه . وسمع منه ذلك فى مرض موته حين قالوا له : من يكون بعدكم من أصحابكم نجتمع عليه ، فقال : ليس بعدى أحد ، قد طويت سجادة طريقي ، ثم قال من باب التحدث من النعم ماقال . توفى سنة نيف وعشرين وتسعمائة .

(٢) فى الأصل : أو .

(*) **القطب** : يسمى الشيخ قطباً عندما يبلغ درجات الكمال العالية ويحصل له الاستغناء التام بالكمال .

(قاسم غنى : تاريخ التصوف الإسلامى ، ترجمة صادق نشأت ، مراجعة أحمد ناجى القيسى ، ومحمد مصطفى حلمى . القاهرة : دار النهضة المصرية ، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م هامش ص : ٣١٩) .

والقطب حسبما يرى ابن عجيبة هو القائم بحق الكون والمكون وهو =

***

= واحد . ومن الواضح أنه يقصد بذلك القطب الغوث الواحد المتمكن فى مقام الفردية ، والحاكم على كافة الدوائر الخاصة بالأولياء . ويسمى ذلك القطب الغوث بسبب إغاثته للعوالم بمادته ، حيث يقبض منه المدد على كافة دوائر الأولياء .

ويستطرد ابن عجيبة ليطلق اسم القطب على كل من تحقق بمقام ، كما بين أنه يترتب على ذلك تعدد الأقطاب فى الزمان الواحد ليكون هناك أقطاب فى المقامات ، وأقطاب فى الأحوال ، وآخرين فى العلوم . فيقال : فلان قطب فى العلوم ، أو قطب فى الحال ، أو قطب فى المقام ، وذلك إذا غلب عليه شيء منها ، فإذا أريد بالكلام عن القطب ذلك المقام الذى لايتصف به إلا واحد عبر عنه بالغوث .

وهذا القطب الفرد الغوث هو الذى يصل منه المدد الروحانى إلى دوائر الأولياء من نجيب ونقيب وأوتاد وأبدال ، وله الإمامة والإرث والإرشاد والخلافة الباطنة ، كما أنه روح الكون الذى عليه مداره .

ويمكن التمثيل بأنه بمثابة إنسان العين من العين ، ولايستطيع أن يصل إلى معرفة صفات ذلك القطب ومكانته إلا من وصل إلى حال البقاء بالله ، أى وصل إلى أعلى مرتبة فى الطريق الصوفى وتحقق بمقام المعرفة .

وللقطبية مفهومان : القطبية الحسية ، والقطبية المعنوية .

أولاً : القطبية الحسية : وهى ذلك النوع من القطبية المرتبط بتدرج السالك خلال السلم الروحى حتى الوصول إلى أعلى المنازل أومقامات الطريق ، ونوال مرتبة الولاية بفضل الله تعالى ومنته ، ومن ثم فقد يزيده الله فوق ذلك مرتبة التقديم فى بعض العلوم أو الأحوال أو المقامات فيصبح =

= قطباً لذلك العلم أو الحال أو المقام الذى قدمه الله فيه على سائر المتحققين به ، ومن ثم يصبح هو الحاكم عليه والمتولى أمره .

وهناك أيضاً من الأقطاب الحسيين من يصلون عن طريق الجذب ، وهؤلاء هم المرادين المحظوظين بتمام النعمة الإلهية ، تكون درجاتهم أعلى من النوع السابق ، ومن هؤلاء يختار الله تعالى القطب الغوث ، الذى هو الحاكم المقدم على الطريق الصوفى بأكمله ، بما يشمله من أقطاب وأولياء وسالكين ومريدين . وبالجملة كافة الدوائر الصوفية .

ويطلق الشاذلى على هؤلاء الذين وصلوا عن طريق الجذب اسم : « الصديقين » . ويرى أنهم أبدال الرسل . أما الواصلين عن طريق الترقى فهم « الصالحين » . أى أبدال الأنبياء .

ثانيا : القطبية المعنوية : ويقصد الشاذلية بالقطبية المعنوية ما يعرف بالحقيقة المحمدية ، وهى عبارة عن حقيقة كلية جامعة تمثل القبضة النورانية المحمدية التى هى أصل العوالم الروحانية حيث يشرق عليها نور المعرفه الربانية ليمتد منها إلى سائر حقائق الأنبياء ، وبالتالى يمتد منها إلى دوائر الأولياء ، وتزداد مرتبة الولى كلما قربه الله تعالى إلى تلك الحقيقة ، ووهبه نعمة الاستمداد المباشر منها .

ولايصل من الأولياء إلى التحقق بالاستمداد المباشر التام من الحقيقة المحمدية سوى القطب الغوث ، وبذلك فالحقيقة المحمدية تمثل الينبوع الذى تفيض منه الأنوار المعارف والعلوم على كافة الأنبياء والأولياء تبعاً لقدرة كل منهم على القبول والاستمداد .

وتفصيل ذلك على ما بينه ابن عجيبة هو أن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد اجتمع فيه علم الحقائق وعلم الشرائع وعلم الأولين =

****

= والآخرين ، ومن ثم فقد عجز الناس عن معرفته ، ولزم الانقياد والإذعان لحكمه في الأمور الظاهرة .

أما من أراد أن يأخذ شيئاً من الحقائق فعليه أن يرتقى الطريق للوصول إلى حقيقته .وبذلك يختلف الناس فى الأخذ عنه صلى الله عليه وآله وسلم على النحو التالى :

١.**أهل الرسوخ والتمكين** : وهؤلاء يدركون سره صلى الله عليه وآله وسلم. أي يصلون إلى مرتبة التحقق بالحقيقة المحمدية . وبذلك يكونوا فى جمع دائم على حقيقته صلى الله عليه وآله سلم فلا يغيب عنهم طرفة عين .

كماعبرعن ذلك أبو العباس المرسى بقوله : « لوغاب عنى رسول الله صلى الله عليه وآله سلم طرفة عين ماعددت نفسى من المسلمين » .

(ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن . القاهرة : مكتبة القاهرة . الطبعة الأخيرة ، سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ص : ١٧٤) .

٢.**أهل الشهود والعيان من السائرين** : وهؤلاء يدركون روحه صلى الله عليه وآله سلم بمعنى أنهم تصل إليهم أنوار حقيقته عبر الوسائط من الأنبياء والأقطاب .

٣.**أهل المراقبة** : ويطلق عليهم ابن عجيبة أهل الاستشراف. أى المقبلين على الطريق، ومازالوا فى أول عتباته يجاهدون أنفسهم لسلوكه ، وهؤلاء يدركون عقله صلى الله عليه وآله وسلم . أى يتلقون علومه من شيوخهم ويحاولون التحقق بفهمها فهم أهل البدايات الذين لم يتم صقل قلوبهم بعد لكى تشرق عليها الأنوار ، بل إنهم مازالوا فى طور الفهم العقلى .

٤. **أهل الحجاب** وهم أهل الدليل والبرهان الذين يدركون من الرسول =

فانظر جهله . وهل يخرج أحد من المسلمين عن نظيره ودائرته . واعلم أن أقوى الأدلة على عدم ولاية هؤلاء المشايخ عدم معرفتهم للأولياء أصحاب التصريف لأنهم لوكانوا منهم عرفوهم كما هو شأن أصحاب كل حرفة وإن لم يعرفوا كلهم عرفوا [1] بعضهم . فهؤلاء ليس لهم اسم فى الولاية إلا عند العوام الذين يعتقدون أن كل من قعد فى زاوية يلقن الذكر فهو شيخ .

= صلى الله عليه وآله سلم إلا مظهره الشخصى . ونهاية الصالحين منهم يرونه متميزاً فى صورته التى كان عليها فى الدنيا .

وهكذا تستمد كل طائفة من حقيقة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله سلم ماتيسر لها تبعاً لمقامها فى التحقيق ، ويكون الرسول صلى الله عليه وآله سلم سر الأسرار ، ومنبع الأنوار ، فمنه قد انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار ، لأنه هو الجامع لما افترق فى غيره . فروحانيته صلى الله عليه وآله سلم جامعة لأوصاف الكمالات ، وبشريته جامعة للأوصاف والمحاسن ، وشريعته جامعة لجميع الشرائع . ومن ثم فهو حقيقة كلية جامعة ، جعلها الحق سبحانه وتعالى بمثابة الواسطة بينه وبين خلقه وعلى تلك الواسطة تشرق أنوار الذات الإلهية مباشرة ، فتنور بها ، وتشرق بدورها على من دونها من دوائر الأنبياء والأولياء لتصل من خلالهم إلى كافة الخلق .

من هنا كان الهدف الذى يتبعه الصوفية من وراء وصولهم إلى التحقق بالحقيقة المحمدية هو إحاطتهم بالمعرفة اليقينية بالله عن طريق مباشر ، وذلك حتى تشرق على قلوبهم مباشرة ، وبدون وسائط ، وبذلك تتجلى لهم الحقائق كأشد ماتكون وضوحاً .

(١) فى الأصل : غير واضحه .

ولذلك يعملون له تابوت وستر وشخا شيخ وغير ذلك من علامات الأولياء . نسأل الله العافية .

وقال : احذر من رؤية نفسك على أحد من الخلق فإنك إن فضلت نفسك لكثرة نفعك فالحمار أنفع منك بيقين . وإن نظرت إلى كثرة علمك ومعرفتك وعبادتك فإبليس أعلم منك وأعرف وأكثر عبادة ، وهكذا فى جميع الصفات .

واعلم ذلك واحذر من الخوض فى التفاضل بين الخلق ومشايخهم فإن ذلك كله حديث بالظن لايعلم إلا بوحى والسلام .

وقال : احذر أن تقتصر على شيخ واحد فى هذا الزمان فإنه تحجير عليك وقلة نفع لك بل اعتقد فى كل شيخ يحصل لك منه الخير . وإنما كان أهل العصر يقيّدون بذلك على تلامذتهم لأنهم كانوا أولياء عارفين بالله وبالأحكام .

أمّا مشايخ هذا الزمان فليس معهم من العلم اللدنى إنما هم مقلدون لأضعف الفقهاء ولو بحث معهم فقيه لايدرون له جواباً . فأين هم من الأولياء الذين كانوا إذا فقدوا الجواب من طريق النقل أجابوا من طريق الكشف كما وقع لسيدى أحمد البدوى(*) ، وسيدى عبد الله

(*) **أحمد البدوى** : هو أبوالفراج السيد أحمد البدوى . توفى سنة ٦٧٥هـ ودفن بطنطا . (الشعرانى : الأجوبة المرضية ، ص : ٣٦٠ ، والطبقات =

البلتاجى (*) وأضرابهما . فاعلم ذلك ولايغرك تقييدهم على تلامذتهم إلا أن (١) يجتمعوا بغيرهم فإن ذلك خطأ منهم ومحبة لانفرادهم بالصيت دون غيرهم . والله يتولى السرائر .

وقال: من علامة الداعى إلى الله بصدق أن لايتغير على من انقلب من تلامذته إلى شيخ آخر من أقرانه . فمتى وجد فى قلبه حرارة وضيقاً من ذلك فمشيخته حظ نفس لايصلح أن يلقن أحداً . فاعلم ذلك . واحذر إذا عملت شيخاً أن تتكدر ممن لايتلمذ لك ولايسمع لك كلاماً ولا يؤهلك للمشيخة .واحذر من هجر أحد من الخلق تسبب ذلك تشبيهاً بالأولياء الذين كانوا يهجرون التلميذ لمصلحة حاله فإن وبال ذلك يرجع عليك .وأنت شيخ معمول ولاأنت شيخ إلا بأحوالك .

فاحذر أن تنفرهم فتزول مشيختك المعمولة .

واعلم أنك لو رأيت لحالك الناقص لعذرتهم فإنك أقل أدب

= الكبرى : ج١ ، ص : ١٥٨، والكواكب الشاهق ، ص : ٢٣١ ، والأخلاق المتبولية ، هامش ص : ١٠٠) و (النبهانى : جامع كرامات الأولياء ، ج١ ، ص : ٥١٢) ، و (سعيد عبد الفتاح عاشور : السيد أحمد البدوى ، المقدمة) و (صلاح عزام : أقطاب التصوف الثلاثة ، ص : ٢٣١) و (حسن محمد الشرقاوى : الحكومة الباطنية ، ص : ١٤٨) .

(*) **عبد الله البلتاجى** : من العارفين العاملين بالكتاب والسنة .

(١) فى الأصل غير واضحة .

منهم لأنك منازع لله تعالى على خلقه فلزم من ذلك ازدرائك للخلق ومنازعتك للحق وكفى بذلك كفراً وجهلاً . فاعلم ذلك .

وقال : تعظيم الخلق للعبد سم قاتل يؤديه إلى الهلاك .فليحذر العبد من الركون إلى تقبيل الأيدى والأرجل والإطراق بين يديه وغير ذلك من أوصاف الملوك . وليعلم أن إخوانه المعتقدين فيه إنما هم أعوان إبليس بل أسرع فى هلاكه منه فهم أعدى الأعداء فإنه لايسمع منهم إلا نشر محاسنه وستر مساويه . وهذا أمر يغيب عنه رشد الرجال وعقولهم .

فكيف بمن ليس له قدم فى الرجولية[١] .

وقد قال سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله لبعض أصحابه : كن ذنباً ولاتكن رأساً فإن الضربة أول ماتقع فى الرأس . فكم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس وأذهبت من دين . ولو لم يكن من تعظيم الخلق للعبد إلا أنه يحكم عليه بالرياء والمداهنة وأكل أموال[٢] الناس على رغم أنفه خوفاً من خرق مرتبته لأنه لو فتح باب النصح للخلق وأغلظ عليهم فعلوا معه مثل فعله فيزول تمييزه عنهم وتعظيمه فى قلوبهم فتزول مشيختهم لهم وإطعامهم له وخدمتهم له لأن الخلق من شأنهم عدم

(١) فى الأصل : غير واضحة .

(٢) فى الأصل : غير واضحة .

الإذعان [١] لبعضهم وكراهة التمييز عليهم فلا يذعنون له إلا بعد جهد ونصب وحيل أو ظهور (خارقة من الخوارق) [٢] وهيهات إن حصل لهم اعتقاد بعد ذلك ، بل ربما قالوا : هذا ساحر وتأمل الخلق لو اطلعوا على زلة من يعمل شيخاً باطلاعهم عليه وهو (يعمل عملا رديئاً) [٣] أويعشق جارية هل يَصيرُون يذبحون له ذبيحه أو يقبلون يديه أو يسألونه الدعاء [*] تعرف يقيناً أن كل من عمل شيخاً صار يأكل بدينه إلى أن يقدم على الله مفلساً ليس معه إلا أوزار من أكل طعامهم .

---

(١) فى الأصل مطموسة .

(٢) زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(٣) زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(*) **الدُّعَاءُ :** الدعاء هو الذكر المقرون بالطلب . أو هو استدعاء العبد ربه بالعناية واستمداده المعونة . وحقيقته إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة . وهو شيمة العبودية . (اليافعى ، أبو عبد الله أسعد : الدر النظيم فى خواص القرآن الكريم ، القاهرة : مكتبة الجمهورية ، بدون تاريخ ، ص : ٤٣) .

وفى البداية ينبغى أن نوضح أن الدعاء كان مطلباً للأنبياء والمرسلين أجمعين . فإذا تتبعنا حال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين نجد أن نبى الله آدم عليه السلام عاش فى جو من أجواء الدعاء وهو جو التوبة . فكان آدم عليه الصلاة السلام يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء المصطبغ بالتوبة .

=

= أما نبى الله نوح عليه السلام فكان جوه الاستغفار ، وهو أول من أعلن موضوع الاستغفار فى قول الحق تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ « سورة نوح : الآية :١٠ » .

فهذه هى مقدمة موضوع الاستغفار أو القاعدة الأساسية . والنتيجة هى :

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ﴾ « سورة نوح : الآية : ١١ » .

ولقد أوضح لنارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زاوية هامة من زوايا قانون الاستغفار وهى عدم وقوع العذاب على المستغفر .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

« سورة الأنفال : الآية: ٣٣ »

ألا ترى أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام لما قال له ربه أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين . فلما زج به فى المنجنيق استغاثت الملائكة قائلة : ياربنا هذا خليلك قد نزل به ماأنت به أعلم . فقال الحق سبحانه وتعالى : اذهب إليه ياجبريل فإن استغاث بك فأغثه وإلا فاتركنى وخليلى . فلما كان جبريل عليه السلام فى أفق الهواء قال : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى . قال : فاسأله . قال : حسبى من سؤالى علمه بحالى ، فلم يستنصر بغير الله ولاجنحت همته بغير الله ، بل استسلم لحكم الله مكتفياً بتدبير الله له عن تدبيره لنفسه ، وبرعايه الحق له عن رعايته لها ، وبعلم الله سبحانه وتعالى عن سؤاله علماً منه أن الحق به لطيف فى جميع أحواله .

(ابن عطاء الله السكندرى : التنوير فى إسقاط التدبير، ص : ٤٠ ـ ٤١) .

....

= وقال صلى الله عليه وآله وسلم لما ألقى يوسف عليه السلام فى الجب أتاه جبريل عليه السلام . فقال : ياغلام من ألقاك فى هذا الجب ؟ فقال : إخوتى . قال : ولم ؟ قال : لمودتى أبى إياى حسدونى . قال جبريل عليه السلام : قل اللهم إنى أسألك باسمك المكنون المخزون يا بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ؛ أن تغفرلى وترحمنى وأن تجعل لى من أمرى فرجاً ومخرجاً ، وأن ترزقنى من حيث لااحتسبت ، ومن حيث لاأحتسب ! فسبحان القريب المجيب الذى يجيب المضطر إذا دعاه .

قال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ « سورة النحل : الآية : ٦٣ » .

ولقد وصف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا الدعاء بأنه دعاء المصطفين وحث عليه .

ومن دعاء موسى عليه السلام : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وعليك التكلان ، ولاحول ولاقوة إلا بك .

(ابن قيم الجوزية : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، ص : ١٣) .

وحكى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أن هب لى قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينيك الدموع فإنى قريب .

ومما قاله وهب بن منبه لماتاب الله على داود عليه السلام كان يبدأ إذا دعا فيستغفر للخاطئين قبل نفسه فيقول : « اللهم اغفر للخاطئين فعساك أن تغفر لداود معهم » .

هذا هو دعاء الأنبياء والمرسلين تقربوا به إلى الله عزوجل . فكان الدعاء خالصاً لله عز وجل . =

= وينبغى أن نوضح فى هذا المقام الفرق بين الدعاء والاستغاثة والمناجاة .

فإذا كان الدعاء عام فى كل الأحوال فإن الاستغاثة هى الدعاء فى حالة الشدائد .

(عبد الرحمن يوسف الإفريقى : الأنوار الرحمانية لهداية التيجانية . السعودية : الرياض ، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م ، ص : ٥٩) .

هكذا يتضح الفرق بين الدعاء والاستغاثة فى أن اللجوء إليها لايكون إلا عندما يصاب صاحبها بالابتلاء فى حياته . فيلجأ إلى الله سبحانه وتعالى بالاستغاثة أن ينجيه من هذا الموقف الذى أصابه .

أما المناجاة فيها يناجي العبد ربه سبحانه وتعالى بالدعاء والاسترسال فى مناجاته . فالمناجاة هى مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار .

(محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، هامش ص : ١٩٣) .

وكان داود عليه السلام يصرخ كثيراً فى مناجاته ويقول : « علمنى يارب طرقك ، فهمنى سبلك » .

وظاهر مما أوضحنا أن المناجاة طريقاً من طرق العلم ، وسبيلاً من سبل الفهم . ولذلك تأتى عند صفاء الأذكار .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **اللهم أرنى الحق حقاً وارزقنى إتباعه ، وأرنى الباطل باطلاً وارزقنى اجتنابه ، ولاتجعله متشابهاً علىّ فأتبع الهوى** » .

وعن طليق بن حبيب كان يقول فى دعائه :«اللهم إنى أسألك علم =

= الخائفين لك ، وخوف العالمين بك ، ويقين المتوكلين عليك ، وتوكل المؤمنين بك ، وإنابة المخبتين إليك ، وإخبات المنيبين إليك ، وشكر الصابرين لك ، وصبر الشاكرين لك ، ونجاه الأحياء المرزقين عندك .

(أبو نعيم الأصبهانى : حلية الأولياء ، ج٣ ، ص : ١٠٧) .

هذا الدعاء السابق اشتمل على جملة من المقامات عند أصحابه استفرغوا كل طاقاتهم فى طاعة الله سبحانه وتعالى . ومن ناحية أخرى أن هذا الدعاء يدل على علو همة هذا العالم وقوة ذكائه واتساع علمه .

ومن دعاء المؤمن الموحد : اللهم خذنى إليك منى ، وارزقنى الفناء عنى ، ولاتجعلنى مفتوناً بنفسى ، محجوباً بحسى ..

ومن دعاء الإمام الجنيد : اللهم إنى أسألك : ياخير السامعين ! وبجودك ومجدك يا أكرم الأكرمين ! أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع ، اشتدت إليك فاقته ، وأنزل بك على قدر الضرورة حاجته ، وعظمت فيما عندك رغبته ، وعلم ألا يكون شيء إلابمشيئتك ، ولايشفع شافع إليك إلا بعد إذنك ، فكم من قبيح قد سترته ! وكم من بلاء قد صرفته ! وكم من عثرة قد أقلتها ! وكم من زلة قد سهلت بها ، وكم من مكروه قد رفعته ! وكم من ثناء قد نشرته !

أسألك ياسامع أصوات المستغيثين ، وعالم خفى إضمار الصامتين ، ومطلع فى الخلوات على أفعال المتحركين ، وناظر إلى مادق وجل من آثار الساعين .

أسألك ألا تحجب بسوء فعلى عنك صوتى ، ولاتفضحنى بخفى ما اطلعت عليه من سرى ولاتعاجلنى بالعقوبة على ما علمته من خلواتى ، =

= وكن بى فى كل الأحوال رافقاً ، وعلىّ فى كل الأحوال عاطفاً .
(محمد مصطفى: دراسات عن الجنيد البغدادى ، ص :٢٩٤ـ ٢٩٧).

إلهى ، وسيدى ، وسندى !

أنك بك عائذ ، لائذ ، مستغيث ، مستجير من تكاثف مخاوف علل سرى ، ومن لزوم ذلك ضميرى وقلبى ، حتى يكاد ذلك أن يملأ صدرى ، ويوقف عن الانبساط إلى ذكرك عقلى ولسانى ، ويمنع من الحركة إلى الخدمة جسمى ، فأنا فى حبس ما يعارضنى من ذلك بالنقص والتقصير .

أسألك أن تخرج ذلك عن ذكرى ، وتمنعه من قلبى ، واجعل أوقاتى من الليل والنهار بذكرك معمورة ، وبخدمتك وعبادتك موصولة حتى يكون الورد ورداً واحداً ، والحال حالاً واحداً ، لاسآمة فيه ولافتور ولاملل ولاتقصير ، حتى أسرع به إليك فى حين المبادرة ، وأسرح بذلك إليك فى ميادين المسابقة ، وارزقنى من طمع ذلك اللذائذ السابقة ياأكرم الأكرمين .

إلهى ! تريد أن تخدعنى عنك بقربك أم تريد أن تقطعنى عنك بوصلك! هيهات !هيهات!

لقد أوضح الإمام الجنيد فى هذه النصوص ذوقاً عالياً ومشرباً كافياً وارتواءً خصباً عندما دقق النظر فى استخداماته أساليب الدعاء ذات التجربة الروحية الخالصة .

ولما سئل بعض العارفين : ماعلاقة قبول الدعاء ؟ فأجاب : نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية بدلالة قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ « سورة فاطر : الآية : ١٠ » .

ويقول أحد العارفين فى دعائه : « إلهى أنت لطيف لمن قصدك فى =

= إرادتك ، ورجاك فى ملماته ، فيا منتهى آمال الراجين أرحنا راحة عاجلة توردنا مناهل مسرتك تؤدينا إلى قربك .

(الطوسى : اللمع ، ص : ٩٢) .

والدعاء مظهر من مظاهر الخضوع والتواضع والعبودية ، ومن أجل ذلك يكثر الصالحون من الدعاء لأنفسهم ولأهليهم ولأصدقائهم وللمسلمين على وجه العموم ، وهم فى ذلك يستحيبون لله سبحانه وتعالى فى حثه المؤمنين على الدعاء .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ « سورة غافر : الآية: ٦٠ » .

كما أن الدعاء طريق إلى رحمة الله تعالى ورضوانه ينفع مما نزل ومما لم ينزل . إن الدعاء ـ قبل أن يتبلور فى الجمل والكلمات ـ إنما هو نور مضىء ينقدح فى القلب فيفيض على اللسان ، ولو كان القلب كدراً لم ينقدح فيه ذلك النور ، فأين له أن يظهر الدعاء على لسان صاحبه ؟!

ولايكون المؤمن مخلصاً فى دعائه حقيقة الإخلاص ، مادام له تدبير وحول وقوة فى رفع مايدعو لكشفه ، حتى يتحقق بالعجز عن دفعه بحوله وقوته وماله وأهله والناس أجمعين .

وقد يحصل الإخلاص الحقيقى فى الدعاء للأفراد الذين كوشفوا بحقيقة التوحيد ، وتحققوا أن الضار والنافع هو الله فإنهم لخشيتهم من الله لايتحققون بنفع الأشياء النافعة ، ولابضر الأشياء الضارة ، فهم يدعون الله مخلصين أن يدفع عنهم الضر ، ويمنحهم النفع .

(أبو العزائم ، محمد ماضى : إلهى ، ص : ١٢) . =

= ولاتخلو الأحوال التى تصيب بنى آدم فى أبدانهم وأموالهم وأهليهم من الحكم الربانية ، فيفزعون إلى الله تعالى ويسألونه فيكشف الله عنهم ماألم بهم .

قال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

« سورة النمل : الآية: ٦٢ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **مامن داع يدعو مؤقناً بالإجابة فى غير معصية ولاقطيعة رحم إلا أعطاه الله تعالى إحدى ثلاث : إما أن يجيب دعوته فيما سأل ، أو يصرف عنه من السوء مثله ، أو يدخر له فى الآخرة ماهو خير له** » .

كما أن الدعاء من أنواع العبادات التى يظهر فيها العبد بالذل والخضوع لله عزوجل .

وفى المسند والترمذى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله لايستجيب دعاء من قلب غافل لاه » .

قال الأوزاعى رحمه الله تعالى : كان يقال أفضل الدعاء الإلحاح على الله والتضرع إليه .

وفى الطبرانى عن ابن عباس رحمه الله أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم دعا يوم عرفه فقال : « اللهم إنك ترى مكانى وتسمع كلامى ولايخفى عليك شىء من أمرى أنا البائس الفقير المستجير الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه . أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير دعاء من خشعت لك رقبته وذل لك جسده ورغم =

= لك أنفه وفاضت عيناه . اللهم لاتجعلنى بدعائك رب شقياً وكن بى رؤوفاً رحيماً ياخير المسؤولين وياخير المعطين » .

وكان أحد الحكماء يقول فى دعائه : « بعزتك وذلى وبغناك وفقرى » .

واخرج ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول فى دعائه : « اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً، واحشرنى فى زمرة المساكين » .

والمراد بالمساكين فى هذا الحديث ونحوه من كان قلبه مسكيناً خاضعاً لله خاشعاً له وظاهره كذلك .

قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ « سورة الكهف : الآية: ٢٨» .

وقال تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ « سورة السجدة : الآية: ١٦ » .

وقال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ « سورة الأعراف : الآية: ٥٥ » .

ففى هذه الآيات دعوة خفية من الله سبحانه وتعالى لعباده أن يكثروا من الدعاء ، وأن يخلصوا فيه ، وأن يلتزموا آدابه وشروطه ، لكى يكونوا أهلاً للقبول ومحلاً للإجابة .

كما أن الدعاء طريق إلى رحمة الله تعالى ورضوانه ينفع مما نزل ومما لم ينزل .

ويرتبط الدعاء بالتدبير وإسقاط التدبير لله سبحانه وتعالى . =

= ويقول أحد العارفين في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زوراً ، أو أغشى فجوراً ، أو أن أكون بك مغروراً ، وأعوذبك من شماته الأعداء وعضال الداء ، وخيبة الرجاء ، اللهم إنى أعوذ بك من شر الخلق ، وهم الرزق ، وسوء الخلق يا أرحم الراحمين آمين .

ومن دعاء ابن عطاء الله السكندرى : اللهم اغفر لى واسترنى ولاتفضحنى في الدنيا والآخرة ، وعلمنى ، ذكرنى ، وفهمنى ، وارحمنى ، وفرحنى ، وبرئنى ، وفرغنى من كل شيء إلا من ذكرك وطاعتك وطاعة رسولك ومحابك ومحاب رسولك صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن دعائه عقيب كلامه : اللهم كن بنا رؤوفاً وعلينا عطوفاً وخذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك وقومنا إذا اعوججنا وأعنا إذا استقمنا وخذ بأيدينا كلما عثرنا وكن حيث كنا .

ويدعو الشاذلى فيقول : اللهم إنا نسألك حسن اللب ، ودوام الذكر والفكر ، واللجأ والافتقار إليك ، والدعاء لك ، والاستجابة منك ، والثقة بك ، والتوكل عليك ، والزهد الواقع على الرد القاطع ، والمحبة والرضا .

(ابن عياد الشافعى : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية ، ص : ٨٦ ـ ٨٧) .

ولقد جاء في أحد الأدعية : « اللهم ارحمنى بترك مالايعنينى أبداً ما أبقيتنى . وارحمنى بترك المعاصى أبداً ما أبقيتنى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى ، وألزم قلبى حفظ كتابك ، كما علمتنى ، ونور به بصرى ، واشرح به صدرى ، واجعلنى أتلوه كما يرضيك عنى ، وافتح به قلبى ، وأطلق به لسانى . =

لأنه من حيث يشتهر بالصلاح لايقدر على عمل حرفة تقوم به ونهايته أن يكون راقد على جنبه يسبح الله بسبحه فتدخل له الخلق فتقول له خاطرك علينا ياسيدى الشيخ . وقد

= ومن الدعاء أيضاً : يامن لاتراه العيون ، ولاتخالطه الظنون ، ولا يصفه الواصفون ، ولاتغيره الحوادث ، ولايخشى الدوائر ، اجعل خير عمرى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم ألقاك .

اللهم اجعل عملنا مؤنساً لنا فى الخلوة إذا وحشنا المكان ، ولفظتنا الأوطان ، وفارقنا الأهل والجيران ، وانفردنا فى محل ضنك ، قصير السمك ، على غير مهاد ولاوساد ، ولاتقدمة زاد .

اللهم إنا نسألك بالقدرة العظمى ، وبالمشيئة العليا ، وبالآيات الكبرى ، والأسماء كلها ، وبهذا العظيم منها أن تسخر لنا هذا البحر وكل بحر هولك فى الأرض والسماء والملك والملكوت ، وبحر الدنيا وبحر الآخرة ، وسخر لنا كل شيطان من الجن والإنس ، وسخرلى نفسى ، وسخرلى كل شىء ، يامن بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولايجار عليه ، ياعلى ياعظيم ياحليم ياعليم .

اللهم إن الدنيا حقيرة حقير مافيها والآخرة كريمة كريم مافيها . وأنت الذى حقرت الحقير وكرمت الكريم . فأين يكون كريماً من طلب غيرك ؟ أم كيف يكون زاهداً من اختار لدنياه معك ؟ فحققنى بحقائق الزهد حتى أستغنى عن طلب غيرك وبمعرفته حتى لاأحتاج إلى طلبك .

اللهم أدخلنا مدخل صدق وأخرجنا مخرج صدق واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً .

أوضحنا الكلام على ذلك فى (كتاب)[١] : « لواقح الأنوار »[٢] وغيره .

وقال : احذر من أن تظهر لله مقاماً أو حالاً[*] فى هذا الزمان

---

(١) لاتوجد فى الأصل ، أضفناها حفظاً للمعنى والسياق .

(٢) فى الأصل غير واضحة .

(*) **الحال** : يطلق لغة على الوقت الذى أنت فيه وماعليه الشخص من خير أو شر . ويطلق اصطلاحاً لدى الصوفية على المعنى الذى يرد على القلب بلاتصنع ولااكتساب .

(عبد الحفيظ فرغلى على القرنى : ابن عربى ، ص : ١٢٩) .

كما أن الحال هو مايحل فى القلب من صفاء الأذكار بدون مجاهدة أو تفكير .

(أبو عبد الرحمن السلمى : أصول الملامتيه وغلطات الصوفية، ص: ٣١).

وقد قيل : إن الأحوال هى المعانى التى ترد على القلب وهو فى طريقه إلى الله ، وأنها مواهب تنزل من الله على عبده ، وهى كثيرة .

كما قيل : الحال هومايرد على القلب من غير تعمد ولااجتلاب . ومن شروطه أنه يزول ويعقبه المثل ، إلى أن يصفو ، وقد لايعقبه المثل . ومن هنا نشأ الخلاف . فمن أعقبه المثل ، قال بدوامه .

وقيل : الحال تغير الأوصاف على العبد .

(ابن عربى : اصطلحات الصوفية ، ص : ٩) . =

= ويجدربنا أن نبين أن الملامح المميزة للمذهب الصوفى فى القول بنظريه المنازل أو الأحوال والمقامات .

(شاخت وبوزورث : تراث الإسلام ، ص : ١٠١) .

ومن نصائح أحد العارفين أنه قال: « اركب الحال ، لاتدع الحال يركبك».

فالحال هو منزلة العبد فى الحين فيصفو له فى الوقت حاله ووقته . وهو ما يتحول فيه العبد ، ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قيل له : حال .

وقال بعضهم : الحال لايزول فإذا زال لم يكن حالاً .

فالأحوال هى الثمرة الحقيقية التى ينتظرها السالك من وراء قيامة بالرياضة والمجاهدة إبان سلوكه الطريق ، وهى ليست نتيجة مترتبة على تلك الرياضة ، أو المجاهدة بل هى منة ربانية ، وهبة من الله تعالى يلقيها على من أخلص من عبادة ، وقد اقتضت المشيئة الربانية أن تكون الرياضة والمجاهدة هما السبيل أو الواسطة التى يمكن للسالك أن يعرض نفسه لتلك الهبة الربانية عن طريقها .

كما أن الأحوال فى حقيقتها ثواب من الله تعالى على الأعمال ، فإذا دام العمل واتصل بالحال صار مقاماً ، لأن الأحوال فى بدايتها تذهب وتجىء ، فإذا سكن القلب فيها وتمكن منها وداوم العمل عليها صارت مقاماً له .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ١٠٠) .

ومما سجله الطوسى فى : « اللمع » قول الجنيد : الحال نازلة تنزل بالقلوب ، فلا تدوم .

(محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، ص : ١) . =

****

= إن الحال معنى يرد من الحق إلى القلب دون أن يستطيع العبد دفعه عن نفسه بالكسب حين يرد ، أوجذبه بالتكلف حين يذهب . كما أنه عبارة عن فضل الله تعالى ولطفة إلى قلب العبد دون أن يكون لمجاهدته تعلق به ، والحال من جملة الأفضال ، وكذلك الحال من جملة المواهب .

(الهجويرى : كشف المحجوب ، ج٢ ، ص : ٤٠٩) .

وقد قيل : الأحوال أمانات عند أهلها ، فإذا أظهروها خرجوا عن حد الأمناء .

(أبو العلاعفيفى : الملامتيه والصوفية وأهل الفتوة ، ص : ٦٤) .

وهذه الأحوال تكون للعارفين كل حسب درجته وإخلاصه وطاعته ونيته واستعداده وجلائه وتصفيته لقلبه ، وذلك بالذكر الدائم ودفع الوساوس والخواطر الشيطانية .

وقد قيل : أرباب الأحوال هم أصحاب الولايات الناقصة ، أما أرباب الأعمال فهم أصحاب المقامات العليا . ويقال عنهم : أصحاب التمكين في مقابل أصحاب التلوين .

(حسن الشرقاوى : الحكومه الباطنية ، ص : ٨٧) .

فإذا كان لكل مقام منهجاً فإن لكل حال علماً وذوقاً .

(طه عبد الباقى سرور : الحلاج ، ص : ٦٤) .

والأحوال هى النسمات الروحية التى تهب على السالك ، فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة ، ثم تمر تاركه عطراً ، تتشوق الروح للعودة إلى تنسم أريجه .

وبعبارة أخرى : الأحوال هى المواهب الفائضة على العبد من ربه ، إما =

= واردة عليه ميراثاً للعمل الصالح المزكي للنفس المصفى للقلب ، وإما نازلة من الحق إمتناناً محضاً .

ولقد سمى الحال حالاً لكونه عارضاً سريع الزوال . وكذلك لتحول العبد بها من الرسوم الخلقية ودركات البعد إلى الصفات الحقية ودرجات القرب وذلك هو معنى الترقى .

(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٤٥ ـ ٤٦) .

فالحال عند القوم : معني يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب أو اكتساب لهم . والأحوال تأتى من عين الجود ، وصاحب الحال مترق عن حاله .

ومما ينبغى أن يفهم أن الترقي الصوفى فى الأحوال يتم من حال النفس ، إلى حال القلب من غير أن يشعر الطبع بذلك . ومن حال القلب إلى حال السر من غير أن تشعر النفس بذلك ، ومن حال السر إلى حال الروح من غير أن يشعر القلب . فإذا وصل السالك إلى حال الروح حصلت له المكاشفة والمشاهدة .
(أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة مرجع سابق ، ص : ٦٤) .

ولعل هذا ما يفسر قول أحد الصوفية : « كنت أقرأ القرآن لاأجد له الحلاوة التى أشهدها ، فقلت لنفسى اقرئيه كأنك تسمعينه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأته ، فجاءت حلاوته ، ثم قلت لنفسى اقرئيه كأنك تسمعينه من جبريل عليه السلام ، ينزل به على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فقرأته ، فنزلت حلاوته ، ثم قلت لنفسى اقرئيه كأنك ؛ تسمعينه من رب العالمين جل وعلا فجاءت حلاوته كلها .

(عبد البارى محمد داود : الفتوحات الربانية ، ص : ٩١) . =

....

= ومن هنا نرى أن هذه أحوال نفسية تنبعث منها مشاعر في كل حال بقدرها ووزنها ، حتى تكون أكمل الأحوال تلك الحال التي يبلغ فيها قارىء القرآن مقام المناجاة من ربه .

(عبد الباري داود : الفناء عند صوفية المسلمين ، ص : ٢٩٦) .

وهذا المعنى وارد في قوله تعالى : ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾

« سورة المجادلة : الآية :٩ » .

والصوفي كعبد صادق مسترسل بنفسه وقلبه وعقله وروحه جميعاً مع الله ، يشعر دائماً باحتياجه إليه فيناجيه ويتقرب إليه بالأذكار والنوافل والعبادات والطاعات .

(ابن عطاء الله السكندري : تاج العروس ، ص : ٤٣) .

وتلك منزلة يترقى فيها الإنسان صعداً في درجات لانهاية لها .

وقد قيل : الحال هو تغير الأوصاف على العبد . وواضح من هذا التعريف أن الحال : هو ما يتحول فيه العبد ، ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة ، وتغير أخر ى قيل له حال .

كما قيل : الحال هو ما يحل في القلب من صفاء الأذكار بدون مجاهدة أو تفكير . والحال يهجم على القلب كما أنه يزول عنه فجاة حسبما يروى الطوسي في : « اللمع » .

كما أن الحال هو مايرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل ولا اجتلاب كحزن . أو خوف ، أو بسط ، أو قبض ، أو شوق ، أو ذوق ، ويزول بظهور صفات النفس سواء يعقبه المثل أولاً ، فإذا دام وصار ملكاً سمي مقاماً . =

= لذلك يقال : إن الحال هو ما يقع بعد العلم من الهيام بالمحبوب ، والوله به ، والتجرد إليه عن كل ما سواه ، والشوق الشديد إلى لقائه ، والقلق لبعده ، و الدهش منه ، والتهيب له ، والعمل ملازمة لمرضاته ، ومسارعة لطاعته ، واحتمال مايرد منه ، والتلذذ بجميع فعله عند حركاته وسكناته بأمره ، والأنس بذكره المؤدى إلى الغيبة فيه ، ثم الحضور به ، وتولد الحال عن العلم والعمل مما عَدُّوهُ ضرورياً .

فالعلم مبدأ المقام الفاعلي ، والحال مبدأ المقام الصورى ، والعمل مبدأ المقام الغائى .

(ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٣٧٧) .

ولقد كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك .

حيث إنهم لم يتفقوا فى هذه المسألة برأى قاطع . ووجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسهما وتداخلهما ، فتراءى للبعض الشيء حالاً، وتراءى للبعض الآخر مقاماً .

وكلتا الرؤيتين صحيحة لوجود تداخلهما ، ولابد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة منهما يشعران بالفرق بينهما . فالحال سمي حالاً لتحوله ، والمقام سمي مقاماً لثبوته واستقراره . كذلك الحال إذا ارتقى صارت مقاماً ، وأن الحال موهوب والمقام مكتسب بمجهود الفرد .

وهنا نستطيع أن نوضح المسألة فنقول : إن الفارق بين الحال والمقام هو أن الحال يتحول فيذهب ويجيء بخلاف المقام فإنه رسوخ وتمكين . فباطن الطريق إذن الأحوال والمقامات فى السير لذى الجلال رب العالمين .

وبعبارة أخرى : باطن السائر إلى الله بين حال ومقام . وهو انتقال دائم =

....

= من حال إلى مقام ، ومن مقام إلى مقام . وهذا كله هو باطن الطريق .

ولقد أوضحنا فيما تقدم أن الحال سمى حالاً لتحوله . والمقام مقاماً لثبوته واستقراره . و قد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً . مثل أن يبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ،ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ، ثم تعود ، ثم تزول ، فلا يزال العبد فى حال المحاسبة تعاهده الحال ، ثم يتحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ، ويغلب حال المحاسبة فتنقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه ، ثم ينازله حال المراقبة ، فمن كانت المحاسبة مقامه تصير له المراقبة حالاً . ثم يتحول عنه حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونه فتصير مقام المراقبة مقاماً بعد أن كانت حالاً ، ولايستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ، ولايستقر مقام المراقبة إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد نازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه . ونازل المشاهدة أيضاً يكون حالاً ويحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاماً وتتخلص من كسوف الاستتار ، ثم فى مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء . والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين .

وكذلك التوبة والورع والزهد والتوكل والرضا والتسليم تكون أحوالاً ثم تصير مقامات ، فما دامت مجاهدة فهى أحوال فإذا كانت ذوقاً فهى مقامات .

(سعيد حوى :تربيتنا الروحية ، القاهرة : مكتبة وهبه ، سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ ، ص : ١٨٩ ـ ١٩٢) . =

....

= وقال بعض مشايخ خراسان : الأحوال مواريث الأعمال .

ولقد اعتبر السهروردي الحب أساساً للأحوال ، كالتوبة بالنسبة للمقامات ، فمن صحت توبته على الكمال ، تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل ، ومن صحت محبته ، تحقق بسائر الأحوال ، من الفناء ، والبقاء ، والصحو ، والمحو .

(طه عبد الباقي سرور : الحلاج ، ص : ٢٦) .

وقد يكون الصبر والشكر حالين . وقد يكونان مقامين . فمن كان مقامه الصبر كان حاله الشكر عليه فهو أفضل لأنه صاحب مقام . ومن كان مقامه الشكر كان حاله الصبر عليه ، فحاله مزيد لمقامه . فقد صار الصبر مزيداً للشاكر في مقامه .

(أبو طالب المكي : قوت القلوب ، ج١ ، ص : ٢٠٠) .

والمعروف في المصطلح الصوفي أن الحال والمقام مظهران للشعور الصوفي يتغاير معه من حال عارضة إلى مقام ثابت ، يمكن أن يصبح حالاً ، حسب درجة التوتر الصوفي . فحال الخوف أو القلق أو الرجاء : إذا ثبتت أصبحت مقاماً . فإذا تحولت إلى سكينة أو أنس أو يأس وحيرة مثلاً أصبحت حالاً .

(عبد القادر محمود : دراسات في الفلسفة الدينية ، ص : ٣٣٩) .

وتتوارد على السالك العديد من الأحوال ، كالرغبة ، أو الرهبة ، أوالفرح ، أو الهجرة ، أو الخوف ، أو القبض ، أو البسط ، أو الجمال .

(أبو العزائم ، محمد ماضي : رسالة الشفاء ، ملحق كتاب دستور آداب السلوك إلى مسالك الملوك ، ص : ١٠٠) . =

= وعندما يحدثنا الجنيد عن الأحوال نجده يبدأ بالمراقبة ، والمراقبة تقتضي القرب ، والقرب يقتضي المحبة والخوف ، والرجاء مقرون بالخوف ، والرجاء والحب يقضيان الشوق ، والشوق يقتضي الأنس ، والأنس يقتضي الطمأنينة ، والطمأنينة تقتضي المشاهدة ، والمشاهدة تقتضي حال اليقين . (الطوسى : اللمع ، ص : ٦٨) .

كما أن أرباب الأحوال كالسفن المسرعة فمادام الريح باق فالشراع قائم والسير دائم فإذا فقدوا الريح وقفوا . وهذا هو رأى الخواص .

(الشعراني : كشف الحجاب والران ، ص : ١٠٥) .

فالأحوال هي التي ترد على العبد على وجه الابتداء ولكن صفاءها بعد زكاء الأعمال ، فهي كالأخلاق من هذا الوجه ، لأن العبد إذا نازل الأخلاق بقلبه فيفنى بجهده منّ الله عليه بتحسن أخلاقه ، وكذلك إذا واظب على تزكيه أعماله يبذل وسعة منّ الله عليه بتصفية أحواله ، بل لتوفيقه أحواله .

فمن يترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال إنه فنى عن شهواته ، فإذا فنى عن شهواته بقي بنيته وإخلاصه في عبوديته . وإذا زاهد في دنياه يقال إنه فنى عن رغبته .فإذا فنى عن رغبته فيها : بقى بصدق إنابته . ومن عالج أخلاقه فنفى عن قلبه الحسد ، والحقد ، البخل، والشح ، والغضب ، والكبر ، وأمثال ذلك من رعونات النفس .

ويقال : فنى عن سؤال الخلق . فإذا فنى عن سؤال الخلق بقى بالفتوة والصدق .

ومن شاهد جريان القدرة في تصاريف الأحكام يقال : فنى عن حسبان الحدثان من الخلق : فإذا فنى عن توهم الآثار من الأغيار بقى بصفات =

= الحق ، ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لاغيباً ولارسماً ولاطللاً يقال إنه فنى عن الخلق وبقى بالحق .

ففناء للعبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة يكون بعدم هذه الأفعال . وفناؤه عن نفسه وعن الخلق يكون بزوال إحساسه بنفسه وبهم .

فإذا فنى عن الأفعال والأخلاق والأحوال فلايجوز أن يكون ما فنى عنه من ذلك موجوداً .

وإذا قيل : فنى عن نفسه وعن الخلق . فنفسه موجودة ، والخلق موجودين . ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين ، غير محس بنفسه وبالخلق .

من هذا التوصيف نرى أن الفناء لايتأتى إلابمجاهدات ومراقبة يستمر فيها السائر إلى الله حتى يتخلى عن صفاته المذمومة ليبقى بالصفات المحمودة ، ثم يفنى عن نفسه فلايحس بها ، ويفنى عن الأفعال ليرى الفعال . وهو نهاية السير ليعود إلى البقاء بالله ، وبداية هذه الحال تكون الذوق والشرب . وهذه هى وحدة الشهود عند الصوفية .

(عبد الباري محمد داود : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى ، دراسة مقارنه ، ص : ٩٨) .

ومما رواه ابن عطاء الله : « حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال » .

ويعلق ابن عجيبة على هذا النص فيقول : الأعمال حركة الجسم بالمجاهدة ، والأحوال حركة القلب بالمكابدة ، والمقامات سكون القلب بالطمأنينة . =

= ويضرب لذلك مثالاً فيقول : مقام الزهد مثلاً ، فإنه يكون أولاً عمله مجاهدة بترك الدنيا وأسبابها ، ثم يكون مكابدة بالصبر على الفاقة حتى يصير حالاً ، ثم يسكن القلب ويذوق حلاوته فيصيرمقاماً . وكذلك التوكل يكون مجاهدة بترك الأسباب ، ثم يكون مكابدة بالصبر على مرارة تصرفات الأقدار ، ثم يصير حالاً ، ثم يسكن فيه ويذوقه فيصير مقاماً . وكذلك المعرفة تكون مجاهدة بالعمل فى الظاهر كخرق العوائد من نفسه ثم تكون مكابدة بالمعرفة والاقرار عن التصرفات ، ثم يصير حالاً ، فإذا سكنت الروح فى الشهود وتمكنت صارت مقاماً ، فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب . يعنى أن الأحوال مواهب من الله جزاء لثواب الأعمال ، فإذا دام العمل واتصل الحال صار مقاماً ، فالأحوال تتحول وتذهب وتجيء ، فإذا سكن القلب فى ذلك المعنى صار مقاماً وهو مكتسب من دوام العمل .

واعلم أن الحال والمقام لكل واحد علم وعمل ، فالمقام يتعلق بالعلم أولاً ، ثم السعى فى عمله حتى يكون حالاً ، ثم يصير مقاماً ، وكذلك الحال يتعلق بالعلم أولاً ، ثم يصير مقاماً فحالاً .

فعلامة التحقق بمقامات الإنزال ، هو حسن الحال ، وعلامة حسن الحال هو حسن العمل ، فاتقان الأعمال ، وحسنها هو ثمرة ونتيجة حسن الأحوال ، وحسن الأحوال واتقانها هو نتيجة التحقق بمقامات الإنزال . أى التحقق بالإنزال فى المقامات .

ويختلف الصوفية فى حقيقة الأحوال والمقامات ، فبعضهم يجعل من المقامات أحوالاً ، والبعض الآخر يجعل بعض الأحوال مقامات . والأمثلة على ذلك كثيرة وأولها مايورده القشيرى الذى أدخل كثيراً من الأحوال =

بقصد انتفاع الناس بك . فذلك طمع كاذب وقد عم البلاء الحاضرة والبادية، وصار سلوك الخلق بما هم عليه فيه من البلاء على اختلاف طبقاتهم ، فإن فائدة السلوك تهذيب النفس وتمهيدها حتى تذل . وتأمل الخلق تجد كل شخص مهتم (١) بحرفته لاسّيما الفلاحين والتراسين والطباخين من سائر الحرف الشاقة فتجد الفاعل منهم آخر(٢) النهار قد تخذلت أعضائه وضعفت نفسه إلى الطرف الأقصى . فأى شيخ من مشايخ هذا الزمان يقدر أن يوصل شخصاً إلى هذا الحد فى يوم بكلامه الذى يحكيه له عن الصالحين وقس عليه القرآن فى شدة الحر والسقا ، فى شدة البرد وغيرها .

فاعلم ذلك واستر نفسك وعورتك واتهم نفسك فى دعواها الصلاح . فإن من عمل شيخاً لولا ظن بنفسه الخير ما ادعى

= فى عداد المقامات . وكذلك يختلف الصوفية فى عدد هذه الأحوال والمقامات .

أما صاحب حكمة الإشراق فإنه يجعل المقامات أربعة عشر ، آخرها مقام الولاية الخاصة .

نعود إلى ما قررناه من قبل وهو أن المقام ينال بالمجاهدة ، أى هو أمر كسبى ، أما الأحوال فهى مواهب أو نفحات إلهية . والمقامات أحوال ثبتت .

(١) فى الأصل مكسورة . (٢) في الأصل غير واضحة.

ولاتمشيخ فإنه لو ظن بنفسه الفسق والعصيان كما هو الحق ماصدر منه دعوى .

(قال تعالى)[1] : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[أ].

وقال : احذر من قصدك بالذكر تنزيه الله تعالى فإنه سبحانه له الكمال المطلق فما ثم شيء تنزهه عنه . فمتى قصدت تنزيهه فقد ألحقت به القبيح بوهمك . تعالى الله عن ذلك . واحذر أن تقصد به ما يطلبه القاصرون من المحجوبين ممن طلب الحق فإنه تعالى موجود . والموجود لايطلب إنما يُطلب المفقود .

فياليت شعرى ! هؤلاء المدعين ماحال إيمانهم بالقرآن وهو سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[ب] .

فإذا كان معهم أينما كانوا فكيف يطلبونه فإن لم يكن شهوداً كان إيماناً ؟ فإن لم يصح إيمان هؤلاء فكيف يدعون الولاية ؟!

واحذر من المداومة على الذكر فى أوقات مخصوصة وأن

---

(١) لاتوجد فى الأصل ، زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(أ) سورة الشعراء : الآية: ٢٢٧ .

(ب) سورة الحديد : الآية :٤ .

تختلى وتذكر بوصل ليلة متوالية أو أيام فإن ذلك يقسى[(١)] القلب . وقد جربنا ذلك لأن هذا الذكر لايكون إلا مع الغفلة[(*)] إذ حضرة الحق حضرة بهت وسكوت لالفظ فيها ولايمكن فيها رفع صوت بذكر ولاغيره . والمراد بذكر الله كثيراً أن يتوالى على العبد شهوده أن الله ناظر إليه وأنه فى حضرته . وهو أولى من شهوده الحق لأن فى ذلك سوء أدب كما لايخفى .

---

(١) في الأصل غير واضحة .

(*) **الغفلة** : يذكر أبو بكر بن أبي سعدان أن الاعتصام بالله تعالى هو الامتناع به عن الغفلة والمعاصي والبدع والضلالات .

(أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ١٠٣) .

وانظر :(ابن قيم الجوزية : الروح ، ص : ٢٤٣) ، و (الشعراني : درر الغواص ، ص : ٢٦) ، و (تنبيه المغتربين ، ص : ٤٣) ، و (المنح السنية ، ص : ١٥) ، و (الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ، ص : ٦٥) ، و (الطبقات الكبرى ، ج١ ، ص : ٥٨) .

ويقول أبو بكر الكتاني : « روعة عبد عند انتباه من غفلة وارتعاد من خطيئة أعود على المريد من عبادة الثقلين » .

ولقد قيل : لاتدخل الغفلة إلا من الأمن . ولايوجد المزيد إلا من الحذر . حذر قوم فسلموا . وأمن قوم فعطبوا.

قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ « سورة الكهف : الآية: ٢٨ » .

=

قال تعالى فى وصف نبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾(أ) . فاعلم ذلك فإنه من باب المعرفة . والله تعالى يتولى هداك .

وقال : احذر من استدلالك على علوّ مرتبتك بإقبال الخلق عليك واعتقادهم فيك وقبولهم لمراسمك فإن فى ذلك هلاكاً . واحذر من قولك فى نفسك لولا أنى من الأولياء ما انقاد الخلق لى هذا الانقياد واعتقدوا فىّ هذا الاعتقاد . وكم من شخص يريد أن يكون مثلك عند الناس لايقدر ولايتيسر له ذلك . وهذا الأمر ماهو سدى . وهل فى قدرتك أنك كنت تجمع هذه القلوب على محبتك فإن فى ذلك كله غرور وضلال .

= والفرق بين الغفلة والنسيان أن الغفلة ترك باختيار العاقل ، والنسيان ترك بغير اختياره . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ « سورة الأعراف : الآية: ٢٠٥ » .

ولما سئل الواسطى عن الذكر فقال : هو الخروج من ميدان الغفلة إلى فناء المشاهدة على غلبة الخوف وشدة الحب .

وقال الإمام الجنيد فى قوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ « سورة البقرة : الآية :١٥٢ » .

أى يميتنى بالغفلة ويحينى بالذكر .

(أ) سورة النجم : الآية : ١٧ .

فاعلم ذلك وكن على حذر من سوء الخاتمة إذا كثر إقبال الخلق عليك فإنه على قدر الصعود يكون الهبوط ومن هو جالس على أساسه فعاقبته إلى خير إن شاء الله تعالى لأن المكر والاستدراج إنما يكون لمن تعدى حده وتجاوز وضعه والله يفعل ما يشاء .

وقال : احذر أن تقر أحداً من المعتقدين على وصفه لك بالولاية والصلاح بل ازجره(١) عن ذلك وأنى لك بهذه الدرجة وقد قرره غير ما أمره أن درجة الإسلام عزيزة في مشايخ هذا الزمان لكثرة المنازعة في بواطنهم لله تعالى في صفات الكمال بما يستحق له المدح ورفع المنزلة على الخلق .

والإسلام هو الإستسلام والانقياد لله تعالى ولعباده ظاهراً وباطناً وأن لايكون عنده منازعه في شيء من الكمالات وأن يسلم اعتقاده وإيمانه من الشكوك والأوهام المضلة عن طريق الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين .

إذا(٢) علمت ذلك فتيقظ لنفسك ولاتقلد أحداً في علمك بها فإن الخلق لايعلمون منك إلا ظاهرك والمدار على السرائر لاعلى الظواهر .

وقد كثر في هذا الزمان المدعين وصار كل مدع ينصب له نقباء وكذابين ويقولون أن شيخنا هو صاحب العصر وكل ذلك

---

(١) في الأصل : ازجرهم .
(٢) في الإصل : إذ

مصيدة للدنيا وتأمل مرجعهم (١) لشيخهم إنما يكون دائما عند الأمراء كبراء البلاد ونحوهم ممن يتوهمون قوله البر. فما ترى منهم أحداً يمدح شيخه عند صنايعى فقير(٢) أبداً ولاعند فلاح صعلوك لعلمهم أن هؤلاء ليس عندهم شىء يأخذوه لهم ولالشيخهم.

وفى الأمثال (*) السائرة أن كلب السوق تناظر مع كلب الصيد. فقال كلب السوق لقلب الصيد: مالك لاترضى بالكِسر التى على المزابل مثلى وتجنبت الملوك والأمراء وأبناء الدنيا. فقال كلب الصيد لكلب السوق: أنا وإن خالطت الملوك وغيرهم فأنا متعفف عما بأيديهم لاآكل منهم شيئاً واصطاد لهم لالنفسى ولذلك عظمونى وأكرمونى وقربونى وأجلسونى على فراشهم ولم ينظروا إلى خسآتى حين رأوا شرف همتى وأنت لما كنت كثير الشره والحرص فيما بأيديهم ولاتصطاد إلا لنفسك طردك الخلق إلى

---

(١) فى الأصل غير واضحة.

(٢) فى الأصل مطموسة.

(*) **الأمثال:** لقد اتصف العرب فى جاهليتهم بالفصاحة والبلاغة، وهو ما نلحظه فى كلامهم المنثور الواصل إلينا، وذلك نتيجة طبيعة الجزيرة العربية القاسية، وحالة المجتمع القبلى الاجتماعية، فالحاجة فى ذلك المجتمع كانت توجب على القبيلة أن يكون لها خطباء وحكماء. =

المزابل ومقتوك فتأمل ذلك ولاتغتر بمدح الخلق لك . والله يتولى هداك .

وقال : أدب العبيد شهودهم سوء أدبهم فى جميع معاملاتهم مع الله تعالى ومع الخلق ، فاعلم ذلك واحذر إذا فتح الله بصيرتك وعلمت قلة أدبك وعدم استقامتك أن تترك باب النصح والإرشاد لإخوانك وتقول الأعوج لاينبغى له أن يتصدر لإرشاد أحد فإن ذلك جهل بل انصح وارشد غيرك مع رؤيتك أنه خير منك . فعلم أنه من ترك النصح مؤاخذ بذلك لأنه منازع لله فى الألوهية لاطالب أن يكون مالله على عباده من امتثال أمره واجتناب نهيه هذا شأن كل من

= ولقد شاع بين العرب فى الجاهلية ذكر لقمان ، واتخذوه شخصية هى مثال الحكمة ينسبون إليه من الأمثال كثيراً مما يعرف قائلة . وفى القرآن الكريم سورة باسمه وزعم بعض العلماء أن هناك لقمانين : لقمان الحكيم ، ولقمان عاد ، وأن لكل وردت أمثال .

(عبد البارى محمد داود : اللسان ميزان بين الصمت والكلام . القاهرة : دار قباء ، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م ، ص : ١٣٥ـ ١٣٧) .

فالأمثال العربية غاية فى البلاغة والفصاحة من حيث إيجاد ألفاظها ، وإصابة معانيها ، وحسن تشبيهاتها . فقد أوصلت إلينا الأمثال حكم العرب وإرشاداتهم وحسن أفكارهم ونتائج أعمالهم وتجاربهم ، وأعطتنا فكرة كاملة بكلام موجز عن الأشخاص الذين استعملوها . وصورت لنا أخلاقهم وعاداتهم لذلك كانت الأمثال والحكم سجلاً من سجلات =

نصح بغير أمر إلهى فافهم .

(قال تعالى)(١) : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(أ) .

وكان يقول : من علامة الجهل بطريق أهل الله تعالى البروز للدعوى بغير داع إلهى يدعوه إلى ذلك . ويقال لهذا المحجوب المدعى هل أمرك بالبروز للدعوة على من ضل ؟ أهو(٢) على من دونك، أو مثلك ، أو أعلى منك ؟

فإن قال على من دونى . قلنا له : أنت جاهل لاتصلح لشىء من هذا الباب لأن من ذاق من الطريق شيئاً لايتصور منه أن يرى أحداً من الخلق دونه فى المرتبة . والذى لم يذق شيئاً كيف يربى ويسلك فتأمل .

وان قال على مثلى أو من هو أعلى منه . قلنا له : هذا كلام لايصدر من عاقل فإن كلاً منهم لايحتاج إليك فلا فائدة لتمشيخك عليهم . فاعلم ذلك واحذر من استنادك لمنام تراه أو إذن قاصر من مشايخ هذا الزمان .

= العرب التى نقلت إلينا أحداثهم الهامة وحروبهم وبطولاتهم وثقافاتهم المختلفة .

(١) لاتوجد فى الأصل ، زيادة أضفنها حفظاً لسياق المعنى .

(أ) سورة البروج : الآية :٩ .

(٢) فى الأصل مطموسة .

(قال تعالى)[١] : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[أ] .

وكن ناصحاً لإخوانك ما استطعت من غير رؤية نفس ومنة عليهم . والله يتولى هداك وهو يتولى الصالحين .

وكان يقول : ماأنفع مايشتغل به العبد من العلوم الكونية ماكان متعلقاً بالأدب مع الله تعالى ومع خلقه وما عدا ذلك فهو اشتغال بما لايعنى وجميع ذلك كله أن يشهد العبد نفسه غارقاً فى كل وصف مذموم عارياً عن كل وصف محمود . ومن شهد هذا المشهد فقد أعطى كل ذى حق حقه وميز وصفه من وصف سيده ودخل فى حضرة النعيم المقيم أبد الآبدين . فهذه طريقة نفيسة سهلة لأن ذلك إن لم يكن شهوداً قائماً ناف[٢] من الحظ عن درجة الإيمان فلا كلام لنا معه لغالب ممن يتمشيخ فى هذا الزمان فإنه لايصير شيخاً إلا بازدراء إخواته ورؤية أنهم دونه بدرجات .

فيرد قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [ب].

---

(١) لاتوجد فى الأصل ، أضفناه حفظاً لسياق المعنى .

(أ) سورة الأنفال : الآيتان ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) فى الأصل : زاو

(ب) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (أ).

وقوله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (ب).

ويجعل نفسه خيراً من إخوانه ولياً على الخلق دون الله تعالى وأولى بالمؤمنين من النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا خرق لسياج العبودية (*) على الإطلاق. وفى هذا القدر كفاية. وقد أوضحنا ذلك فى: « رسالة الأنوار »، و« لواقح الأنوار » وغيرهما.

(أ) سورة البقرة: الآية: ٢٥٧.

(ب) سورة الأحزاب: الآية: ٦.

(*) **العبودية**: إن الله سبحانه وتعالى بيَّن طريق الهدى وطريق الضلال، وخلق الإنسان من الاستعداد مايختار به هذا أوذاك. ويسرله الطريقين سواء، وهو بذلك يختار لأن إرادة الله اقتضنت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة يملك معها الهدى والضلال، ويختار الهداية أو يحيد عنها. ويؤدى دوره فى هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة =

= التى فطره الله عليها لغرض وحكمة فى طبيعة هذا الوجود لكن الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز : ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ « سورة الأنعام : الآية: ١٢ » .

هذا التفضل الإلهى الذى يتفضل به الله سبحانه وتعالى على عباده ، ووعدهم به ، فوعده الحق وكلامه الصدق ،يؤكد وجود رابطة بين العبد وربه ، رابطة بين العبودية والربوبية ، وهذه الرابطة هى رابطة المحبة والرجاء فى وعد الله سبحانه وتعالى . وهذا مايجعل هناك علاقة بين العبودية والربوبية بدون واسطات أو توسلات ، فإذا دعى الإنسان ربه بإخلاص وتوبة نصوح استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائه وأنزل رحمة من عنده لتشمله فيعفو عن آثامه .

كما أن هذه الرابطة تعني أن الله تعالى أوجب على نفسه الرحمة كما أوجب على الإنسان من قبل أن يهبط إلى الأرض .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ « سورة طه : الآية: ١١٥ » .

فإذا نسى الإنسان ما تعهد به كما نسى من قبل آدم عليه السلام ، فإن عليه أن يلتجىء إلى الله تعالى ، فلا ملجأ من الله إلا إليه .

ولقد أوجب الحق تبارك وتعالى الرحمة للإنسان ، والدليل على ذلك أنه لايستجيب للإنسان إلا بعد دعاء العبد إياه .

قال تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ « سورة غافر : الآية :٦٠) .

لكن الذى ينبغى توضيحه أن استجابة الله لدعاء الإنسان مقترنه بالعمل =

= الصالح لله سبحانه وتعالى ، فلايكون العبد مجاباً لدعائه للحق إلا إذا استجاب العبد للأمر الإلهى . وهذه هى الحقيقة التى دعا إليها القرآن الكريم ، وقام بها أهل التحقيق والكمل من أهل العرفان من السلف الصالح . ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم إمام هؤلاء وأكملهم فهم المؤمنون الذين لايهتدون إلا بهدى الكتاب والسنة لايكون فى قلوبهم سوى محبة الله وإرادته وعبادته . لأن عندهم من سعة العلم والتمييز مايشهدون به الأمور على ماهى عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله ، مدبرة بمشيئة ومستجيبة له وقانته له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى . ويكون مايشهدونه من ذلك مؤيداً وممداً لما فى قلوبهم من إخلاص الدين ، وتجريد التوحيد لله ، والعبادة له وحده لاشريك له .

هناك رابطة إذن بين الربوبية والعبودية ، فالعبد عليه أن يأتمر بأمر الله فيطيعه ويعمل له ، فإذا أخطأ أو نسى أو غوى عليه أن يرجع إلى ربه داعياً مستغفراً أن يعفو عنه وأن يحسن له .

وهنا ينبغى أن نوضح أن الدعوة لاتكون مستجابة إلا إذا امتثل المرء للأمر الإلهى . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ١٨٦ » .

ومن ناحية أخرى فإن الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه الرحمة ، فإذا وجد عبده انحرف عن الصراط المستقيم أو ظلم نفسه فإنه بواسع رحمته يغفر له .

ما أحرى الإنسان بأن يمتثل كلمات الله التامات المباركات ويقتدى بآياته =

= البينات الواضحات التي تنير له طريق الهدى والرشاد . إن الله سبحانه وتعالى أوجب على نفسه الرحمة يتفضل بها على عباده فينعم عليهم بنعم كثيرة رغم أنه الحق تبارك وتعالى فهو رب كل شيء ومليكه ، وأن كل شيء مخلوق لله تعالى . ومادام الله سبحانه وتعالى مالك كل شيء ومليكه وأن كل ماسوى الله مخلوق له تعالى . ومادام الله مالك الملك فكل العالم تحت تصرفه يفعل به مايشاء على من يشاء من غير اعترض أو تجبر .

والله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض ، يتصرف في الكل كيف يشاء وأنه المطلع على مافيهن لاتخفى عليه الظواهر ولاالسرائر وإن دقت وخفيت ، وأنه سبحانه وتعالى سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم .

قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ « سورة البقرة : الآية :٢٨٤ » .

وقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ « سورة آل عمران: الآية :٢٩ » .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

« سورة المائدة : الآية: ٤ » .

فلوشاء الله سبحانه وتعالى أن يوفق أهل الإسلام للإيمان فيرحمهم أو يعذب المنافقين إن شاء بكفرهم بالله ونفاقهم . فالله سبحانه وتعالى=

= يعذب من يشاء على حسب عمله ويغفر لمن يشاء . والله بيده كل شيء .
وهو على كل شيء قدير .

وهكذا تتضح المشيئة الإلهية بأن يغفر لمن يشاء من الذين يؤمنون به ويرسوله ويعذب من يشاء من الذين يعيشون فى الأرض بالفساد ، ولايسمعون كلام الله ورسوله . فهؤلاء الذين حق عليهم القول يعذب من يشاء .

وكذلك تتجلى الرابطة بين العبودية والربوبية فى أن الحق سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يوفى بعهده كما أوجب ذلك على نفسه فإذا عمل العبد أعمالاً أمره الله بها فأتقنها فقد شرع الله لنفسه أن يجازى هذا العبد الصالح على ماقام به من أعمال للبر وأفعال للخير وماكلفه من فرائض وتكاليف . ويتمثل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٤٠ » .

فعلى العبد إذن إن يعمل بما أمره الله سبحانه وتعالى ويطلب من الله تعالى أن يغفر له ، كما أن الله تعالى يطالب العبد أن يأتمر بأمره ويوفى بعهده .

قال تعالى : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى﴾ « سورة طه : الآية: ١٤ »

هناك إذن رابطة بين الربوبية والعبودية تقوم على الصدق والحق والرجاء فى وعد الله والخوف من وعيده تتلخص هذه الرابطة فى العمل بأمر الله من ناحية وفى الدعاء من جانب العبد من ناحية أخرى ، وهذه الرابطة قائمة على الأدب مع الله تعالى والطاعة له جميعاً . =

وقد وضعنا هذه الرسالة للتنفير عن طريق هؤلاء المغترين . فإذا حصل التنفير فلينظر في بقية رسائلنا الموضوعة لبيان الآداب المتعلقة بالخلق من الملوك والعلماء وأصحاب الحرف وغيرهم . والحمد لله رب العالمين والصلاة والتسليم على أشرف مخلوقاتك وزين عبادك سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين . تمت .

= فالإنسان إذن محتاج إلي الله بالضرورة والله سبحانه وتعالي مستغن عن العالم والإنسان جميعاً ، فهو الخالق الكامل القادر العليم الحكيم . أما الإنسان فهو الضعيف الذي لاحول له ولاقوة والذي بدون الاستعانه بالله سبحانه وتعالي لايستطيع أن يفعل شيئاً .

يقول الرسول صلي الله عليه وآله وسلم حاكياً عن ربه سبحانه وتعالي : « من تقرب إلي الله بشبر تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت منه باعاً ، ومن آتاني يمشي أتيته هروله » .

لذلك كان الواجب علي العبد أن يهتم بطاعة الله سبحانه وتعالي وأن يعقد نيته علي هذه الطاعة .

ومن الواجب كذلك علي العبد أن يعزم علي التقرب من الله ، وأن تكون إرادته أن يتقرب إلي الحق سبحانه وتعالي حتي يصبح عملاً وسلوكاً . ثم يجاهد العبد جهاداً مع نفسه حتي يعينه الحق سبحانه وتعالي من التقرب إليه لأن العبد لاحول له ولاقوة إلا بالله العلي العظيم .

وفي التقرب يتمثل العبد الله دائماً في كل خطوة يخطوها بحيث يدرك أن الله تعالي أقرب إليه من حبل الوريد في كل آن . والله سبحانه وتعالي يعلم من عباده الضعف والجهل وقلة الحيلة فيأخذ بيد العبد ويربطه به برابطة لاتنفصم عراها ، فيعيش العبد في الخير الدائم والنعيم ويشعر بالأمن والطمأنينة في الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة .

فهرس الموضوعات

رقم الايداع
١٤٧١٢ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977-5259-72-x